

النكاح الحوي

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، ازْكُوا ، واسجدوا
واعبدوا ربكم . وافعلوا الخير لعلكم تفلحون »
(قرآن كريم)

تأليف

محمد علي فايز

١٣٧٥ هـ - ١٩٥٦ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الكتاب

لفضيلة الأستاذ العالم العامل المجتهد

الشيخ محمد أبي زهرة

أستاذ الشريعة الإسلامية بكلية الحقوق بجامعة القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم : الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على
الرسول الأمين ، المبعوث رحمة للعالمين ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

أما بعد : فإن الأستاذ محمود على قراعة غصن من دوحة عظيمة ، أصلها ثابت ،
وسلالة من أسرة طيبة طاهرة تقية ، انصرفت إلى علم الإسلام في غير خيلاء
ولا استعلاء ، ولكن في عزة ومن غير استخذاء ، لا يتزاحمون على الأبواب ،
ولا يجعلون العلم والفكر سلعا تباع وتشترى ، وليس لهم في سوق النفاق
ناقة ولا جمل ، ولقد عرفت شيوخها وشبابها ، فما وجدتهم يخرجون عن ذلك
السمت النزاهة العفيف ، وهو منهاج العلم الديني القويم ، وسبيل السلف الصالح ،
والطريق الجدد ، من سار في غيره عثر ، ومن تنكبه ضل وإن اشتهر .

فكاتب هذا الكتاب نبت في ذلك المنبت الكريم ، والعرق دساس ،
فكان على منهاج سلفه ، ومع أن تعلبه قانوني ، اتجه إلى الكتابة في حقائق
الإسلام يكشفها ، ويبينها ، فكتب عدة كتب ، منها هذا الكتاب «التدين الحق» .
وإن الكتاب ليس نثرا من المعلومات غير مرتبط ولا متناسق ، بل هو
وحدة تتماسك أجزاؤها ، ولا تتناثر عناصرها ، وله هدف يقصد إليه ،
وغاية ينتهي إليها ، وعنوانه يكشف غرضه ، ويؤمى إلى أجزائه المتحددة المنسجمة ،
فهذه بيان التدين الحق ، والتدين الحق يتقاضى وجود عناصر ثلاثة : نفس
مخلصة ، وفكر مستقيم ، واتجاه إلى ينبوع الدين الصافي .

ولذلك نجد الكتاب في فصوله وأبوابه ، واتجاهاته واستشاداته ، يتجه إلى تحقيق هذه العناصر الثلاثة المتلاقية غير المتنافرة ، فهو يتجه إلى تخليص نفس المتدين من كل ما يرنق لإخلاصها ، ويدعو قارئه إلى أن يتعد عن النفاق الديني : « والاتجاه إلى الباطل المقنع بقناع الحق ، وإنه في هذا السبيل يدعو المتدين إلى أن يتكشف أغوار نفسه ، ويتعرف أسرارها وبواعثها إلى الأعمال ، ومقدار خضوعها لسلطان القوى القاهر مالك السموات والأرض ، فإن كانت تحس بسلطان الله تعالى عند كل فعل ، وعند كل حركة فهي التي ترجو النجاة ، ويستشهد في ذلك بقول الشيخ أبي الحسن الشاذلي : « أيسر من نفع نفسي لنفسي ، فكيف لا أياس من نفع غيري لنفسي ، ورجوت الله لغيري ، فكيف لا أرجوه لنفسي » .

ويسترسل الكاتب في بيان إحساس النفس المؤمنة بمراقبة الله تعالى ، وبأنه القادر على كل شيء ، ولكنه يسير في منهاجه على حذر خشية أن يؤدي كلامه إلى أن يظن القارئ أنه لا يدعو الله إلى الإيمان بالقضاء والقدر من غير عمل ، فيبين أن العمل لا يناهى القدر ، وأن العزيمة للعمل المنتج المثمر لا تتنافى مع التوكل ، وأن التوكل على الله حق توكله هو العمل الصالح من الإحساس بأن وراء العمل قدرة الله المتصرفة المسيطرة الحاكمة ، وأن التوكل من غير عمل هو التواكل ، وليس من الإسلام في شيء .

وفي سبيل تصفية النفوس من أدرانها يوجه قارئه إلى ما في العبادات الإسلامية من معان روحية ، من أخذ بها صفت نفسه ، وزكت روحه ، وسمت إلى الملكوت الأعلى ، وهي في جسم الإنسان ابن الأرض الذي خلق من سلاله من طين .

ويبين في هذا السبيل التصوف الحق ، والزهادة الحق : وينعش على المتصوفين الذين اتخذوه مظاهر وضجات من غير حقائق ومعان ، وأصواتاً تعالى وتتصايح من غير قلوب تخشع لذكر الله ، وتقشع لعظمته وجلاله سبحانه وتعالى . ثم يبين في هذا السبيل أيضاً مقدار اتصال المؤمن بالمادة والمال فيبين أن المؤمن الصادق الإيمان يطلب المال من حله ، ولكن من غير طمع ولا جشع ،

ومن غير أن يكون طلب المال همه ، فيطلبه على أن يكون كحقيقته وسيلة لإشباع حاجات هذه الحياة ، لا أن يكون في ذاته غاية تترجى ومقصدا يقصد لذاته ، لا لغيره ، فهنا الخطر ، فإن المال إن قصد لذاته استعبد صاحبه ، وصار له سيدا مطاعا ، وبذلك تدنس نفسه ، ويكون الشح المطاع ، والهوى المتبع .

وإن بيان هذا العنصر النفسى منبث في كل جزء من أجزاء الكتاب وبجواره العنصر الثانى ، وهو الفكر المستقيم ، ولذلك دعا في الكتاب إلى أن يظهر المتدين عقله من الأوهام ، فلا تسيطر عليه الخرافات ، ويتجه إلى علم الكون وما فيه دارسا باحثا ، ففي كل جزء منه آية تدل على الوحدانية ، وعلى القدرة الإلهية ، وعلى السلطان الكامل لمالك السموات والأرض .

ثم هو في سبيل تقويم فكر المتدين يبين معنى التوحيد والتنزيه ، ويتكلم في بعض المتشابه ، ويدعو إلى تأويله ، ليتفق مع حقيقة التنزيه ، وما يليق أن تتصف به الذات العلية المنزهة عن التركيب ، ومشابهة الحوادث ؛ ليس كمثل شئ . وهو السميع البصير ، وهكذا يسترسل في بيان الحقائق العلية الإسلامية التى تنبئ فكر المؤمن من أن تسيطر عليه الخرافات ، وتمكنه من علم الكون وعلم الحقيقة معا ، وإن ذلك العنصر كصاحبه منبث في ثنايا الكتاب غير متميز بقسم فيه .

والعنصر الثالث من عناصر التدين الصحيح ، وهو الاتجاه إلى القرآن والسنة تطلب منهما حقائق هذا الدين ، ويكونان الحكم عند الاختلاف ، كما قال تعالى : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلبوا تسليما ، فإنهما المحجة الواضحة ، وهما رسالة النبوة التى تركها النبي صلى الله عليه وسلم ، كما قال عليه السلام : « تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعدى أبدا ، كتاب الله وسنة رسوله » .

وإنه ليبين بعد ذلك أثر التدين الصحيح ، وهو أن يكون المؤمن حسن الصحبة صادق الألفة ، حلو المعشر ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم « المؤمن مألَف ، فلا خير فيمن لا يألف ، ولا يؤلف » .

هذه صور من الكتاب ، ولقد وددت أن تكون العناصر الثلاثة التي تعد أركان الكتاب متميزة كل واحد منها في باب ، ولا تكون مبثوثة فيه ، وأن تكون هي عناوين أبوابه ، وهذا أمر شكلي ، لا يغير من جوهر الموضوع ، وأنا نضرع إلى المولى أن يجعلنا من المتدينين حقاً وصدقاً ، ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمة ، إنك أنت الوهاب ،

محمد أبو زهرة

المؤلف : أشكر لفضيلة الأخ الشيخ محمد أبي زهرة ثناءه ، وأبدي لولا أن الأمانة العلمية تقتضي إثبات كلامه كله لحذفت هذا الثناء ، لاتواضعا ولكن لأنريد أن تتحدث أعمالنا عنا لاحسبنا ، وكذلك أشكر له نقده وبيانه أن التدين الحق يقتضي وجود عناصر ثلاثة : نفس مخلصه ، وفكر مستقيم ، واتجاه إلى ينبوع الدين الصافي ، ورغبته في أن تكون عناوين الكتاب هي هذه العناصر المبثوثة فيه ، وأبدي أن الترتيب الذهني شخصي يختلف باختلاف الأشخاص ، حتى أنه يختلف باختلاف الظروف الذهنية للشخص الواحد ، ولقد كنت أرغب في أن يكون فصل معرفة الله أول فصل وأن يكون ثاني الفصول هو روحانية الإسلام في العبادات ، ولكني آثرت أن يكون أولها التفكير في خلق الله وأن يكون فصل المعرفة آخرها ، لأنني راعيت أن المعرفة مبثوثة في كل الفصول وكذا العبادة ، فرغبت في أن يكون إيضاح المعرفة في آخر الكتاب ، وهذا كما قال فضيلة الأستاذ ، عرضي غير جوهري ، ما دمتنا قد أتجهنا في الكتاب للإخلاص النفسي ولاستقامة الفكر ولكتاب الله وسنة رسوله الكريم !

ولقد ذكر فضيلة الأستاذ الشباب ، وهو أدرى بحيرة شبابنا في التدين ، وأذكر عام ١٩٣٤ وأنا في ليسانس الحقوق ، أن رأيت أحد إخواننا الطلبة قد أطلق لحيته ولم يحل بينه وبين إطلاقها غضب والده وتهديده بطلاق أمه والإحجام عن الصرف عليه إذا لم يحققها ولا نصح أستاذ الشريعة الإسلامية المرحوم الشيخ أحمد إبراهيم له ، وأنه إذا كان لابد فاعلا فليكتف بقدر القبضة ، وأن الدين في القلب ، وأن الله لم يأمره بترك مذاكرته والسهر في التهجد

وأن حب العلم ، وإرضاء الوالدين والسعى للرزق من العبادة . . . ثم فرقت بيننا وبينه الحياة ، ولا أدري بعد ذلك ماذا كان من أمره في التزمت ، وإن كنت أعرف أنه انصرف عن سنة الحياة الدينية الصحيحة إلى الحياة الدينية المزيفة التي تباعد بينه وبين التدين الحق !!

وقابلت منذ أعوام زميلاً آخر — كان يعرف عنه بعض الانحلال الخلقي — وكانت يده مسبحة أطول منه ، فلما حيته أشار بيده أن لا ، لأنه مع مسبحته عن الحياة وعن الناس في شغل . . . ثم علمت أنه عاد لانحلاله القديم ، بأشد مما كان ، وانضمامه لأصدقاء السوء ، ولعله يعود بعد ذلك لتزيمته في غده ! وما هذا إلا لأن شبابنا يجهلون التدين على حقيقته !

وفي هذا التبليغ ، يقول الأخ الأستاذ يحيى نامق في كتابه القيم « حبات المسبحة » ، ص ١٣ : « إننا نلاحظ على الشباب في هذه الأيام ، نوعاً من الجحود والتمرد على كل ما له صفة « التدين » ، فما السبب ؟ هل لأن بعض المحافظين من رجال الدين يميلون إلى التعصب وعدم مسابقة كل جديد في العلوم والفنون والآداب ؟ أم ترى أن كوارث الحروب من جهة واضطرابات الحياة الاقتصادية والاجتماعية من جهة أخرى ، ساعد على ذبوع الشك في قدرة الدين على علاج المشاكل الحديثة ؟ أم أننا نفهم الدين والعبادة فهماً خاطئاً فنلقن أبناءنا أركان الدين قبيلاً أن يفقهوا معنى الإيمان بالله ، الإيمان بالنور الشامل للسموات والأرض ... ، !!

فالذي نريده من « التدين الحق » هو اطمئنان القلوب والثقة بالله سبحانه وتعالى وحب الخلق أجمعين ومداداة النفوس — وتجرع المداداة تدريجياً بالصبر والمعرفة — وتزكيتها والحفاظة على سلامتها وسلامة الأجسام والتطهير من مساوئ الحقد والبغض والحسد !

ولأريب في أن أي مزعزع للاطمئنان ليس من الدين وكذلك أي مضعف للأجسام ليس منه كذلك ، كما أنه ليس منه إلا كل سمو ونبل وعظمة وتوقل إلى العلا ، ولا وصول إلى ذلك كله إلا بمعرفة الله ومراقبته وحبه وتوحيده سبحانه حق التوحيد وطرح كل شرك له سبحانه ظاهر أو خفي ، وطرح كل ما يدعو للانحلال والضعف في الفكر أو الجسم أو الروح ! والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

فهرس كتاب التدين الحق

« سبحانه الرحمن عز سناؤه الله جل جلاله خلق الوجو والنجم حين يسير وضاء : فمن والزرع إن ياضج فرحته ، وإذا والنهر إذ يجرى فرانا سائفا والطير إن غنى وطار : فقدره الله خالق كل شىء فى الحيا هو وحده متصرف فى ملكه »

« الشيوخ إبراهيم بدوى »

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٢٨	خطأ ابن بشيش فى صلواته فى وصفه الذات الحمدية بأنها اللطيفة الأحدية مع أن الله تعالى يقول : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل »	٣	الإهداء
—	ومن الوثنيات القسم على الله بألفاظ غير مفهومة	٤	المقدمة
—	حكم الأذكار الملحونة والحرفة وضرب اللاوندى وما يفعله أرباب العارق فى الموالد وزفة الرقاعى والبيوى وزفة القمار الخ ..	٧	(١) الإسلام والتفكر فى خلق الله تعالى
٣٤	تزيين المتصوفة لأتباعهم ترك الاشتغال بأعمالهم	١٩	(٢) براءة الإسلام من الوثنية والضعف والانحلال
٣٨	جهل كثير من رؤساء الصوفية بأحكام الدين	٢٠	إدخال بعض السكداين فى الدين ، مبادئ وأحاديث كاذبة
٣٩	سيطرة المشايخ على مریديهم	٢١	عدم اهتمام الفقهاء ببحث حكمة بعض العبادات
٤١	ذكر ما بعدة زنيه رجال الصوفية من تعليم الشيخ مریديه شيئا من خواص أسماء الله الحسنى وتلاوتها مرات لأغراض غير العبادة	٢٥	أخذ المال من المصحف لا يجوز وكذا القسم على الله بشىء أو بإنسان لا يجوز
		٢٦	استمرار بعض المسلمين فى جعل الخلاف فى الفروع من دواعى التفرق
		—	استمرار بعض المسلمين فى استغفال البعض الآخر كقول بعضهم إذا نزل بك حادث فاستوحى يكشف ما بك من الشدة
		٢٧	من جنس الشرك قول المقاتل إذا عثر بإياه محمد ! بالست نقيسة ! أو ياسيدى الشيخ فلان أو نحو ذلك

الصفحة	الموضوع
٧٤	حكم التفكير فيما لا يحل
٧٧	أسباب أزمة الزواج هو انحلال المعاني
.	الأخلاقية في النفوس
٧٨	حكم الفناء
٨٠	(٤) المعاشرة والألفة والصحة في الإسلام
.	حقوق الجار
٨٤	آفات وفوائد النكاح
٨٥	وأينا في معاملة غير المسلمين
٨٧	(٥) الإسلام وفعل الخير
٩١	فضل الصدقة
٩٤	حسن معاملة الخدم والدواب
٩٨	الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
١٠٠	قضاء حوائج المسلمين
١٠١	نصر المسلمين
—	عدل الحاكم ونصحه من الدين
١٠٢	التمسك بالحق وأداء الواجب من الدين
١٠٣	(٦) معرفة الله وتوحيده وحيه
١٠٨	ومراقبته في الإسلام
.	معنى العبادة
—	معرفة الله تعالى
١١٢	توحيد الله والتوكل عليه
١١٨	اطمئنان القلوب بالله ومع الله
١٢٣	(١) معنى الظلم الذي حرمه الله — على نفسه
.	(ب) الوسوسة
١٢٥	(ح) حد السؤال في الأمور الدينية
١٢٦	الأدب مع الله تعالى
١٢٧	معنى كون الله تعالى في السماء
١٣٠	معنى نزول ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا
—	معنى خلق الله آدم على صورته
١٣٢	معنى السعيد من سعد في بطن أمه
١٣٤	كيف تزيد صلة الرحم في الأجل
١٣٥	المختوم
١٣٦	معنى أن الصدقة تدفع القضاء المبرم

الصفحة	الموضوع
٤٢	ما يسميه بعض الصوفية من حمل بلايا الناس وتصريف من ديمونهم أصحاب النوبة
٤٥	سوء فهم أغراض الدين أو فهم معاني الأحاديث ، ووجوب الأخذ بأمر النبي في أمور الدين ، ولكن لا يلزم الأخذ بشيء من آرائه الدنيوية كراهه في أمور المعالجة للأجسام
٤٨	النهي عن الرقى والتائم وحمل الرقى على أنها خاصة بالرسول أو خاصة بالمقولة له غلط من انبسط في دعوى المحبة
٤٩	وقوع بعضهم في بعض ما وقع فيه النصارى من دعوى المحبة لله مع مخالفة شريعته وإيمانهم للخاصة من المشاركة في الله من جنس ما تثبته النصارى في المسيح وأمه
٥٤	كل محبة لا تكون لله فهي باطلة
٥٥	إفساد الشهوات الخفية بتحقيق محبة النفوس لله وعبوديتها وإخلاص دينها
٥٦	نقد مسالك رجال الصوفية في صحبتهم الأحداث
٥٩	هل النظرة العابرة لجمال برى تعد عشقا أم تعد لهوا ؟
٦٠	حرمة النظر إلى وجه الأمهة المشهورة
٦١	حكم معاشرة المرد
٦٢	مجادلة بعض الصوفية في سخط هل في الجنة إنيان الذكور أم لا ؟
٦٣	الإسلام لا يكره الفنى
٦٦	(٣) الإسلام والمعاني الجنسية البول والعائط
—	الإختتان
٦٧	الفعل عند الجماع أو الاحتلام
٦٨	حكم قضى الموضوع باليس النساء
٧٠	حكم كشف العورات
٧٢	حكم الشرع في النظر إلى الوجه والجسم
٧٣	حكم الكلام مع الأجنبية

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
—	روحانية الطهارة	١٣٦	معنى لا يزنى الزاني وهو مؤمن
١٦٣	روحانية الصلاة	١٣٧	حب الله تعالى
—	روحانية الزكاة	١٤٠	مراقبة الله تعالى
١٦٥	روحانية الصوم	١٤١	النية ميل القلب إلى الخير وإرادته له
١٦٦	روحانية الحج	١٤٤	الإخلاص لله
١٦٨	روحانية تلاوة القرآن الكريم	١٤٦	الصبر والشكر
١٦٩	روحانية الذكر	١٤٧	يجب ألا يأكل الإنسان إلا حلالاً طيباً
١٧٢	أى العبادات أفضل ؟	١٤٨	الرياء
١٧٥	الاقتصاد في الأعمال	١٥٠	التوبة
١٧٧	وبعد !	١٥١	شروط صحة التوبة
١٧٨	الأزياء قتيور	١٥٢	أروع مثل للتوبة في الإسلام (توبة الخلفين)
١٨٠	أهم مراجع الكتاب	١٦٢	(٧) روحانية الإسلام في العبادات

الإهداء

إلى أولادى

قال عليه الصلاة والسلام : « إن الله لا ينظر

إلى أجسامكم ولكن ينظر إلى قلوبكم » !

هذا كتاب ستجدونه فى مكتبتي بعد أن تكبروا ، يفهمكم أن والدكم كان يعيش بالحب وللحب ، وأنه كان يرى مخ كل الصلوات الروحية حتى أسماها — وهى صلة العبد بربه — هو الحب ، وستكبرون إن شاء الله وستجدون فى الحياة مناقضات للحب ، من حسد وبغضاء وحقدا فاعلموا أن والدكم كان يتغلب على هذه الصغائر ، وأنه كان يحب شائثه ويحسن إلى مسيئته ، وأنه كان ينتصر عليهم بالحب ، وأنه وإن كان يحب الجمال فى المعانى والصور . . ويتعشق اللغات الأجنبية ، ويلبس القبعة ، ويتردد على المسارح والسينما ، إلا أنه كان يقدم طهارة النفس عن رذائل الأخلاق ومذموم الأوصاف ، مؤمنا بحشر كل إنسان على صورته المعنوية ، لأن الصور فى هذا العالم كما يقول الغزالي غالبية على المعانى ، والمعانى باطنة فيها ، وفى الآخرة تتبع الصور المعانى !

وأرجو الله أن تحشروا يا أولادى ويحشر أبوك معكم على خير الصور

المعنوية التى تظهرها طهارة القلب وصفاء الروح !

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ؟

محمود على أفراغة

منشئة البكرى فى ٢٠ فبراير سنة ١٩٥٦

المقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله إقراراً بنعمته ، ولا إله إلا الله إخلاصاً بوحديته ، وصلى الله على سيدنا محمد عبده ونبيه ورسوله وخير بريته ، وبعد :

فقد روى أن حاتماً الأصم كان تلميذ الشقيق البلخي رحمهما الله ، فقال له يوماً : يا حاتم ، منذ كم صحبتني ؟ قال حاتم : منذ ثلاث وثلاثين سنة ! قال : فما تعلمت في هذه المدة ؟ قال : ثمان مسائل ! قال شقيق : إنا لله وإنا إليه راجعون ، ذهب عمري معك ولم تتعلم إلا ثمان مسائل ، فما هي ؟ قال :

(الأولى) نظرت إلى هذا الخلق فرأيت كل واحد يحب شيئاً ، فلا يزال محبوبه معه فإذا ذهب إلى قبره ، فارقه ، فجعلت الحسنات محبوبي ، فإذا دخلت قبري ، دخل محبوبي معي ! قال : أحسنت !

(الثانية) قال : نظرت في قول الله عز وجل : « وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ، فإن الجنة هي المأوى » ، فعلت أنه قوله تعالى فأجهدت نفسي في رفع الهوى حتى استقوت على طاعة الله تعالى !

(الثالثة) أنى نظرت إلى هذا الخلق ، فرأيت كل من معه شيء له قيمة وله عنده مقدار يحفظه ، ثم نظرت في قول الله عز وجل : « ما عندكم ينفد وما عند الله باق » ، فكل ما وقع لي شيء له قيمة ومقدار ، وجهته إلى الله تعالى ليبقى لي عنده !

(الرابعة) نظرت إلى هذا الخلق فرأيت كل واحد منهم يرجع إلى المال والحسب والشرف والنسب ، فنظرت فإذا هي لا شيء ، ثم نظرت إلى قوله تعالى : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ، فعملت على التقوى حتى أكون عند الله كريماً !

(الخامسة) نظرت إلى هذا الخلق ، فوجدت بعضهم يظعن في بعض ، ويلعن بعضهم بعضا ، فعلبت أن أصل ذلك الحسد ، فنظرت إلى قوله تعالى : « نحن قد قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا » ، فتركت الحسد وعداوة الخلق وعلمت أن الذى قسم لى كائن ثم لا بد منه !

(السادسة) نظرت إلى هذا الخلق ، يبغى بعضهم على بعض ، ويعادى بعضهم بعضا ، فنظرت إلى عدوى فى الحقيقة فإذا هو الشيطان ، إذ قد قال الله تعالى : « إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا » ، فعاديته ، وأحبيت الناس أجمعين !

(السابعة) نظرت إلى الخلق ، فوجدتهم يطلبون هذه الكثرة ، ويذلون أنفسهم بسببها ، ثم نظرت إلى قوله تعالى : « وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها » ، فعلبت أنى من جملة المرزوقين ، فاشتغلت بالله عز وجل وتركت ما سواه !

(الثامنة) نظرت إلى هذا الخلق ، فرأيتهم يتوكل بعضهم على بعض ، ويتكل هذا على تجارته ، وهذا على صنعه ، وهذا على صحة بدنه ، وكل مخلوق يتكل على مخلوق ، فرجعت إلى قوله عز وجل : « ومن يتوكل على الله فهو حسبه » فتوكلت على الله عز وجل !

قال شقيق : وفقك الله يا حاتم ... فلقد جمعت الأمور كلها !

وهذا كتاب يتحدث عن الدين الحق ، كما يفهمه مؤلفه ، وكما يعتقد ، وكما يؤمن به ، وهو لا يؤمن إلا بالحق ، لأنه موحد ولأنه مؤمن ، والإيمان لا يعرف الشرك الخفى ولا الشرك الظاهر ، وهذا كتاب يبغض فيه صاحبه النفاق الدينى والزيف والزيف ، والميل للباطل المقنع بقناع الحق ، ويتهم فيه المنافقين الدينين بالخروج على الدين الصحيح ، ويدعو إلى أن تكون حسناتك معك إذا دخلت إلى قبرك ، لأنها هى التى ستدخل معك ، لا مالك ولا جاهك ولا أهلك ، وإلى دفع الهوى ، وإلى توجيه كل ذى قيمة لله لبقى عنده ،

وإلى أن تكون كريما عند الله بالتقوى ، وإلى حب الناس جميعا وحب هدايتهم ،
وإلى الاشتغال بالله ، وإلى التوكل عليه سبحانه وحده ، وإلى التخلق بأخلاق
القرآن ، بالنأدب بآدابه ، والتخلق بمحاسنه ، والالتزام بأوامره وزواجره ،
إذ قال تعالى مكرما نبيه : « وإنك لعلی خلق عظیم » ، إذ المسلم الحق حسن الخلق
لا يصدر منه ما يسيء ، ويحب وطنه ، ويكون نظيفا في جسمه وفكره ، وهو كما
قال عليه الصلاة والسلام : « من سلم المسلمون من لسانه ويده ^(١) » ، والإسلام
— كما قال عليه الصلاة والسلام أيضا — « أن تسلم قلبك لله ، ويسلم المسلمون
من لسانك ويدك » .

وفقنا الله جميعا للخير ، وهدانا جميعا للإسلام الصحيح .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ؟
محمود علي فرائع

(١) وقال أيضا : « أفضل المسلمين من سلم المسلمون من لسانه ويده » ، قالوا : من المؤمن ؟
قال : من آمنه المؤمنون على أنفسهم ، قالوا : من المهاجر ؟ قال : من هجر سوء واجتنبه » .

المصّيل الأول

الإسلام والتفكر في خلق الله تعالى

« أيسر من نفع نفسى لنفسي ، فكيف لا أياس
من نفع غيري لنفسي ، ورجوت الله لغيري ،
فكيف لا أرجوه لنفسي !
الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه

عنى فيلسوف الشرق أستاذنا المرحوم الشيخ طنطاوى جوهرى فى كتبه
بتعريف الناس بالكون وبهيجته ، حتى قال فى كتابه النظام والإسلام: « لقد حدا بى
شدة ولوعى وشوقى لمعرفة الكون أن جعلت أوقات الرياضة لصرف عنان
الفكر للتأمل فى مصنوعات الله جل وعلا ، مؤثرا تلك اللذة على ما سواها
بالطبع والغريزة ، فكنت إذا هبت النسمات فى الخلوات أو بين أغصان الأشجار
أو غردت الأطيار ، وسمعت خرير ماء الأنهار ، تمثل لى من تلك الأصوات
وتجلى من مباهج تلك الأكوان بهجة العالم وحكمة المبدع بأظهر مجلى وأبدع
معنى ، (١) .

ويقول : « الله أكبر ، قهر عظيم لنفوس هذا النوع الإنسانى ، وإلهام كأنه
ألقي فى روع كل نسمة أن العالم هو الحياة فادعاه كل وإن جهله ، ويا للعجب
أعلى الأبصار غشاوة ، أم فى الأسماع وقر ، أم القلوب غلف ، أم أزيل الغطاء
عنها ؟ ولكن جعل من بين أيديهم سد الشهوات ومن خلفهم سد سوء العادات ،
أم هى ظلمات بعضها فوق بعض ، أم هو موج الأهواء من فوقه موج
الأهوال ، من فوقه سحب الظلم ، ظلمات بعضها فوق بعض أحاطت بهذا النوع
من كل جانب حتى إذا التفت إلى فطرته التفاتة لم يكدرها ، ولكن الأنبياء

(١) راجع النظام والإسلام ص ٥ للشيخ طنطاوى جوهرى .

والمرسلين والحكماء المخلصين نور من الله ليكشفوا الظلمات ويرفعوا سد العادات . ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ،^(١) .

وحاصل حقيقة التفكير كما يقول الغزالي يرجع إلى إحضار معرفتين للتوصل بهما إلى معرفة ثالثة ، وأما ثمرة الفكر فهي العلوم والأحوال والأعمال ، ولكن ثمرة الخاصة العلم لا غير ، فإذا حصل العلم في القلب تغير ، وإذا تغير حال القلب ، تغيرت أعمال الجوارح ، وذكر القلب خير من أعمال الجوارح ، ولذا قيل تفكر ساعة خير من عبادة سنة .

والفكر هو المبدأ والمفتاح للخيرات كلها ، وقد يجرى في أمر يتعلق بالدين أى في المعاملة بين العبد وبين الرب ، وقد يجرى فيما يتعلق بغير الدين ، وجميع أفكار العبد الدينية إما أن تتعلق بالعبد وصفاته وأحواله ، وإما أن تتعلق بالمعبود وصفاته وأفعاله ، ومحب الله تعالى ينبغي أن لا يعدو نظره وتفكيره محبوبه ، وتفكره محصور في أقسام :

١ — تفكر في صفات نفسه ليميز المحبوب منها (من المحبوب) عن المكروه ، وكل ما هو مكروه عند الله أو محبوب ينقسم إلى ظاهر كالطاعات والمعاصي التي تتعلق بالبدن وأعضائه ، وإلى باطن كالصفات المنجيات والمهلكات التي محلها القلب ، ويجب في كل واحد من المكاره التفكير في ثلاثة أمور : التفكير في أنه هل هو مكروه عند الله أم لا ، فإن كان مكروهاً فما هو طريق الاحتراز عنه ، وهل هو متصف بهذا المكروه في الحال أو هو متعرض له في الاستقبال فيحترز عنه ، أو قارفه فيما مضى من الأحوال فيحتاج إلى تداركه ، وبعبس ذلك يكون التفكير في المحبوبات ليعمر القلب بالأخلاق الحمودة وينزه الباطن والظاهر .

٢ — التفكير في جلال الله ، وفيه مقامان : التفكير في ذاته وصفاته ومعاني أسمائه ، وهذا مأموع منه حيث قيل تفكروا في خلق الله تعالى ولا تفكروا في ذات الله ، لأن العقول تنحير فيه ، فلا يطبق مد البصر إليه إلا الصديقون

(١) راجع النظام والإسلام ص ١٦ للشيخ طنطاوى جوهرى .

ثم لا يطبقون دوام النظر ، أما النظر الثاني فهو النظر في أفعاله وبدائع أمره في خلقه ، وكل ما في الوجود مما سوى الله فهو فعله ، وكل ذرة من الذرات من جوهر وعرض وصفة وموصوف فيها عجائب وغرائب تظهر بها حكمته وجلاله وعظمته ، إذ في مشاهدة آيات الله في أرضه فوائد للمستبصر . وما من ذرة في السموات والأرض إلا ولها أنواع شهادات لله تعالى بالوحدانية هي توحيدها ، وأنواع شهادات لصانعها بالتقدس هي تسييحها ، ولكن لا يفقهون تسييحها لأنهم لم يسافروا من مضيق سمع الظاهر إلى فضاء سمع الباطن ، ومن ركاز لسان المقال إلى فصاحة لسان الحال ، ومن يسافر ليستقرى هذه الشهادات من الأسطر المكتوبة بالخطوط الإلهية على صفحات الجمادات ، لم يطل سفره بالبدن ، بل يستقر في موضع ويفرغ قلبه للتمتع بسماع نغمات التسييحات من آحاد الذرات ، ! ومن آيات الله التي ذكرها الغزالي :

١ — خلق الإنسان من نطفة ، فقد قال تعالى : « وفي أنفسكم أفلا تبصرون » وقال : « قتل الإنسان ما أكفره ! من أي شيء خلقه ١٩ من نطفة خلقه فقدره ، ثم السبيل يسره ، ثم أماته فأقبره ، ثم إذا شاء أنشره » . والإنسان مأمور بالتدبر في نفسه وفي إنعام الله عليه « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ، وأنه معه » وهو معكم أينما كنتم ، فإن التفكر في ذلك يحمله على الحياء من الله « والله بما تعملون بصير » .

٢ — ومن آياته أن خلق الأرض فراشا ومهادا وسلك فيها سبلا فجاجا وجعلها ذلولا لتمشوا في مناكبها وأرسى فيها الجبال أوتادا لها تمنعها من أن تميد وإذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبئت عجائب النبات وخرجت منها أصناف الحيوانات ، وأودع المياه تحتها فقجرت العيون وأسال الأنهار تجري على وجهها ، وأخرج من الحجارة اليابسة ومن التراب السكر ماء رقيقا عذبا صافيا زلالا ، وجعل به كل شيء حتى فأخرج به فنون الأشجار والنبات مختلفة الأشكال والألوان والطعوم والصفات والأرايح والطبائع والتعهد والمنافع .

٣ — ومن آياته الجواهر المودعة تحت الجبال والمعادن الحاصلة من الأرض .

٤ — ومن آياته أصناف الحيوانات وانقسامها إلى ما يطير وإلى ما يمشى وانقسام ما يمشى إلى ما يمشى على رجلين وإلى ما يمشى على أربع وعلى عشر وعلى مائة كما يشاهد في بعض الحشرات ، ثم انقسامها في المنافع والصور والأشكال والأخلاق والطباع .

٥ — ومن آياته البحار العميقة المكتتفة الأقطار وسعتها وعجائب ما فيها من الحيوانات والجواهر .

٦ — ومن آياته الهواء اللطيف المحبوس بين مقعر السماء ومحدب الأرض ولا يدرك بحس اللبس عند هبوب الرياح جسمه ولا يرى بالعين شخصه وجملته .

٧ — ومن آياته ملكوت السماء وما فيها من الكواكب إذ قال تعالى : « أنتم أشد خلقاً أم السماء بناها ، رفع سمكها فسواها ، وقال تعالى : « أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء ، » أى أولم ينظروا إلى ما خلق الله فيهما من شيء ليستدلوا على وحدانيته ^(١) .

هذا ولقد ضرب أستاذنا المرحوم الشيخ طنطاوى جوهرى أمثلة للعلم والإسلام والنظام ، نلخصها ونبسطها فيما يلي :

١ — انظر إلى النبات المسمى بلغة العامة النخل الافرنجى وهو من الفصيلة الزنبقية فتجد أزهاره مرتفعة قليلا على سوق جميلة لها ست أوراق كأنها تاج على رأس ملك ، يضاوية الشكل مستطيلة جدا ، ناصعة البياض كأنها استعارت لونها من القمر ، بينها فرج متساوية المقادير داخلها ست أنابيب دقيقة ظريفة بيض أسافلها حمر أعاليها ، كل أنبوبة أمام ورقة كأنها لباسها ، وتذكر قوله تعالى « وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم » ، وقوله : « الذى أحسن كل شيء خلقه » ، وقوله : « وكل شيء عنده بمقدار » .

(١) راجع ص ١٣٩ — ١٤٧ من الثقافة الروحية من كتاب أحياء علوم الدين للقرالى محمود على قراءة .

٢ — وإذا تأملت في وسط أعضاء الذكور في هذه الزهرة ، فإنك ترى أنبوبة في وسط تلك الدائرة وهي عضو التأنيث وسط أعضاء التذكير تستقبل بها الطلع وهي مادة اللقاح التي خلقت في تلك الأعضاء الستة المحيطة بها ، فتأخذه وتنزله إلى أسفل في جوفها مع الدقة الغريبة والحكمة العجيبة ، ثم كيف وضع محل الإناث في وسط الدائرة وكيف جعلت فيها منافذ كثيرة لا ترى إلا بالمنظار المعظم لتقبل مادة الطلع ويخلق فيها الحب ، وكيف جعل الذكور خلف الإناث يحافظون عليهن لأنهن يحافظن على مابه بقاء النوع ، صنع الله الذي أتقن كل شيء . . .

٣ — كم من قارئ فنون العلوم وهو عنها غافل ، كم من آية في السموات والأرض يرون عليها وهم عنها معرضون ، فما أحسن صنع الله وما أجل اتقانه ، أمن خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء ، فأنبثنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ، أله مع الله ، بل هم قوم يعدلون ، وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالابصار ، يقلب الله الليل والنهار ، إن في ذلك لعلبة لأولى الأبصار ، وقال تعالى في الذكور والإناث في النبات ، والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبثنا فيها من كل زوج بهيج ، وأشار إلى الريح ملقحة بقوله : « وأرسلنا الرياح لواقح » ، وقال في الأزواج : « ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » ، وقال : « أنبتنا فيها من كل شيء موزون » ، فالنبات ربت أوراقه وأزهاره وأشكاله وظلاله ، حتى أنك ترى ظل الشجر يتحرك تبع الشمس وهي تجري بنظام وحساب متقن عجيب ، فهكذا ترى الظل تابعا لها حتى جعل للظل عناية واهتمام في الفلك ، وناهيك بالمزاويل الأفقية والمنحرفة والرأسية ، وكيف تعرف بها الساعات والدقائق والثواني بنظام عجيب ، فهذا كله وزن معنوى سرى في كل شيء ، وكل شيء عنده بمقدار ، والسماء رفعها ووضع الميزان ، فتبارك الله أحسن الخالقين ، وفي الأرض آيات للبقين . .

٤ — أما نظام الفلك وأن الشمس والقمر والكواكب بحساب كما في النبات ومقاديره ، فذكرت مرات كثيرة في القرآن الكريم لقوله تعالى ، والشمس والقمر بحسبان ، والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم ، فذكر التقدير وهو معلوم في الفلك ، والقمر قدرناه منازل ، وقالق الاصبح وجعل الليل سكنا والقمر حسبانا ، ذلك تقدير العزيز العليم ، وأشار إلى ما هو أدق فقال ، وما يعزب عن ربك مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين ، إن الله سريع الحساب ، وهو أسرع الحاسبين ، وقوله ، وكل شيء عنده بمقدار ، يدخل فيها علم الكيمياء والطبيعة والفلك ، فهذه كلها محدودة كمقادير الأوكسيجين والايديروجين في الماء .

٥ — لا يحتاج بالقضاء والقدر إلا الخاملون الضعفاء من كل أمة انحط مجدها ودك شأخ سعدها ، والقرآن الكريم أول رادع لهؤلاء وموبخ لهم ، وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرمانا من دونه من شيء ، فيرد عليهم بقوله ، وكذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل إلا البلاغ المبين ، تهديد لهم وابداء أن الحجج ظاهرة على السنة الرسل ، وسيقول الذين أشركوا ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمانا من شيء ، وكذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا ، قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ، إن تدعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون ، قل فלה الحجة البالغة ، فلو شاء لهداكم أجمعين ، وفيما ذكره التنزيل ، وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله ، قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه ، إن أنتم إلا في ضلال مبين ، فأجابهم بالتهديد بالصيحة التي تأخذهم وهم يخضعون ، ويتجادلون بالباطل فيما لا يفيد ، وما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخضعون ، وهذا كما روى أنه صلى الله عليه وسلم دخل مرة على علي وفاطمة رضي الله عنهما ، فقال هل أنتما تقومان الليل ؟ فقال سيدنا علي إن أرواحنا بيد الله إن شاء أيقظها وإن شاء أمسكها ، فضرب صلى الله عليه وسلم بيده على فخذه

وقال : « وكان الإنسان أكثر شئ جدلاً ، يشير إلى أن هذا الجدل لا فائدة فيه واحتجاج ضعيف » وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ، وما لهم بذلك من علم ، لأن نظرم سطحى وقياسهم مدخول فيه . ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذى عملوا ، فقد ظهر الفساد من عامتنا وخاصتنا حتى صدقوا الكذابين وضعفاء العقول والدجالين وعلماء الفنون فى غير ما يعرفون .

والمسلم الحق يجب إن يعتقد بعقيدة القدر ويعمل فى آن واحد ، فقد قال تعالى : « فإذا عزمت فتوكل ، وفى الحديث « اعقلها وتوكل » فالتوكل ندب بعد العزم والأخذ بالأسباب المقتضية له^(١) ، فأنا كمسلم أحاول أن أكون مسلماً صحيح الإسلام مؤمناً صادق الإيمان ، لا تهمنى المناقشة البيزنطية فى نصره رأى عن رأى ، وإنما يهمنى أن آخذ بالأسباب وأن أجعل توكلى بعد أخذى بالأسباب على الله الذى وفقنى للأخذ بها ، فالطالب مطالب بالاستذكار للامتحان وأخذه بالأسباب أن يستذكر دروسه ، والصانع يأخذ بالأسباب بأن يعمل فى صناعته ، والعامل يأخذ بالأسباب بأن يجد فى عمله ، وأما نجاحه وتوفيقه فليس له بل لله الذى إن شاء وفقه وإن شاء لم وفقه ، لحكمة تخفى على العبد ، وليس له أن يطلب تفسير الأمر فوق إدراكه .

٦ — قرن القرآن الكريم القيامة بجعل الإناث والثر فى الأكام ، وإليه يرد علم الساعة ، وما تخرج من ثمرات من أكامها وما تحمل من أثى ولا تضع إلا بعلمه ، استدلل بالترقى فى الوجود والنشأة على نمو الأرواح بعد الموت ، وتشابه النشأتين « يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث ، فإننا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقه ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة ، لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ، ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ، إلى أن قال : « وإن الساعة آتية لا ريب فيها ، فجعل عالم الأرواح كعالم الأجساد ، وأنه يصور

(١) ذهبت فرقة من المسلمين إلى أن الإنسان له اختيار ، وذهبت أخرى إلى أنه مجبر ، وذهبت ثالثة إلى أنه يختار جزءاً ، ولكل أدلة أخذ بظاهرها .

الروح كيف يريد بعد هذا العالم . أثبت أن لكل شيء خلاصة وثمره وإلا كان وجوده عبثاً . أفرأيتم ما تمنون أنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ، نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسوقين على أن نبدل أمثالكم وننشتكم فيما لا تعلمون ، ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون ، أفرأيتم ما تحرثون ، أنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ، لو نشاء لجعلناه حطاماً فظلمتم تفكهون ، إنا لمغرمون بل نحن محرومون ، أفرأيتم الماء الذى تشربون ، أنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ، لو نشاء لجعلناه أجاجاً فلولا تشكرون ، أفرأيتم النار التى تورون أنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون ، فالزرع والماء والنار لم تكن إلا لغاية فهكذا فليكن الإنسان له غاية وهى نفسه الباقية فى النشأة الأخرى ، وأكد هذا بقوله : نحن خلقناكم فلولا تصدقون ، كل هذا فى سورة الواقعة ، وأصرح من هذا قوله فى سورة يس : الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم توقدون ، وفى هذا رمز غريب جداً . إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار آيات لآولى الألباب الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ، ربنا ما خلقت هذا باطلاً ، ، ، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون .

٧ - جسم الإنسان خلاصة الأغذية والأمزجة المحيطة به ، فهكذا عقله خلاصة الآراء والأفكار والعلوم والمحدثين به من الأصدقاء والخلائق ، وهو ينمو كما ينمو النبات والحيوان ويترقى بحسب ما يتغذى به وتختلف نهايته باختلاف ما نشأ عليه كثمار النباتات وبهذا يكون موزوناً كما اتزن عالم النبات والحيوان ، ويكون جزاؤه موزوناً بميزان كما عليه كل نبات وحيوان فى أن نهايته على حسب بدايته ، والوزن يومئذ الحق ، فمن ثقلت موازينه فألك هم المفلحون ، ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون ، ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً ، وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ، ، ، الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان ، ، ، ووضع الميزان ألا تطفوا فى الميزان ، وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان .

وشأن الإيمان إذا كان على علم أن يثبت كما ثبت لإيمان سحرة فرعون بموسى إذ كانوا علماء بالسحر وجاء بما هو أعلى منه ولم تحط به علومهم ، وشأن المقلد أن يتزلزل يقينه كما فى بنى إسرائيل آمنوا تقليدا فلما جاوزوا البحر قالوا يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة ، قال إنكم قوم تجهلون ، إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون ، قال أغير الله أبغىكم إلها وهو فضلكم على العالمين .

٨ — قال تعالى: ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا ، ثم جعلنا الشمس عليه دليلا ، ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا ، ، وهو الذى جعل لكم الليل لباسا والنوم سباتا وجعل النهار نشورا ، ، وهو الذى أرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته وأنزلنا من السماء ماء طهورا ، ، لنحيي به بلدة ميتا ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسى كثيرا ، ، ولقد صرفناه بينها ليزكروا فأبى أكثر الناس إلا كفورا .

فانظر كيف أبان فى الجملتين الأوليين فوائد ضوء الشمس والآخرين فوائد الحرارة بأوجز عبارة وأحسن ترتيب ، أما قوله: « وأنزلنا من السماء ماء طهورا » ، فيفيد أنه كما به تكون حياة الجسم تكون طهارة البدن لتتجه الروح إلى مدبر الكون وتعرفه ، وهذا من الكنايات اللطيفة والرموز العجيبة المندجة أثناء ذكر هذه النعم ، فكأنها ذكرت لتحمل على الطهارة فالعبادة فالمعرفة وهى المقصودة من الحياة ، ثم إن أكثر الناس لا يعلمون لماذا خلقوا وما رباط الجسم بالروح ، ففسوا تصريف الماء بين ملح أجاج تارة وعذب فرات أخرى وتطوره وتشكله بأشكال مختلفة فى باطن الأرض وظاهرها من أنواع المياه المعدنية والأنهار والبحار واختلاف الطعوم اختلافا كثيرا وما يتبع ذلك من المنافع وهكذا تفننه فى الثلج والسيولة والتبخر ، ولقد صرفناه بينهم ، فأبى أكثر الناس إلا كفورا .

فالقرآن جمع بين مطالب الروح والجسد أو الدين والدنيا أو العلم والعمل أو الأدبيات والماديات ، فانظر كيف نرى توصيفه لمحاسن الطبيعة وما فى الكون

من علوم لتحلى النفوس بكاملها وتسعى لمطالبات الحياة وتسعد سعادتي الدنيا والدين .

٩ - قست القلوب فأصبحنا لا نعرف من الصلاة إلا مجرد الرسم والإسم ولا من الذكر إلا اللفظ ولا من العلم إلا القول ولم ننظر لماذا وضعت وما غايتها حتى أصبحت الصلاة لا تنهى عن الفحشاء والمنكر لعدم تمازجتها النفوس وهكذا قراءة علوم الآلات والمقاصد وهكذا القرآن يقرأ ولا تفكر فيه ولا تدبر، وكما ندد الله على بنى إسرائيل في ذلك كقوله تعالى : « ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني وإن هم إلا يظنون ، » .

١٠ - ليس الإنسان ما نراه من شكل ظاهر وما نعلمه من أعضاء باطنة إذ كثيراً ما يعبر الإنسان عن نفسه بأنا وهو غافل عن شخصه الجسماني، فمرجع الضمير والأنانية إنما هو أمر مغاير للجسمية مفارق للمادة ، ألا وهو تلك اللطيفة الهابطة من عالم مسيطر فوق عالمنا المادى مهيمن عليه تتصرف فى الجسم بحسب ما يبدو لها من صلاح أو فساد ، لها اتصال بمبدعها تحس فى كل آن بأن هناك سلطانا قاهرا فوقها قادراً على أن يوليها سعادة أو شقاء ، إحساساً فطرياً لا يغادرها ، وتلك اللطيفة هى الروح ، وما أدراك ما الروح ، سر من عالم الإبداع تنزل من عرش عظمتة إلى حضيض العناصر المتركة ، ومهما انتقش فى لوحها من عقائد وعبارات وأخلاق منسوبة إلى ذلك القاهر ، أذعننت له ، ودوام ذلك الانتقاش من مبدأ الطفولية إلى الأجل المحدود ، ولذا كانت رابطة الدين أقوى مؤثر فى النفوس لأنها أحرزت الشرفين وهما اتصال سندها بمبدع الكائنات ودوامها إلى آخر العمر .

١١ - اطلع الغربيون على سر الكون وحوادثه فاستفادوا منه ما جهلناه من توالى الحوادث علينا وجهلنا ، فاستنتجوا هذه القواعد :

(١) الجديد يبىد القديم . (٢) الطبيعة تستبقى الأحسن .

(٣) الانتخاب سنة فى الكون .

(٤) الفروع ترث الأصول .

فهذا اعتبار الغريين لعلم الطبيعة ، فانظر كيف أثر على عقولهم حتى امتزجت هذه العقيدة بدعائهم فصارت طبيعة لازمة لهم حتى صارت أعمالهم تضارع سنة الكون فسارعوا إلى الأخذ بالأحسن في كل شيء ، هذا هو الذي هدى إليه القرآن تارة صريحا وأخرى تلويحا وآونة اعتبارا فقال في الأولى : « فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب » ، والقول في الآية يشمل أمور الدين والدنيا جميعا ، فانظر كيف بشرهم أولا وجعلهم من أولى الألباب آخرا ، وقال في الثانية : « وقل سيروا في الأرض فانظروا » ، « أولم يسيروا في الأرض فينظروا » ، « وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون » ، وقال في الثالثة : « وكنم من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون » ، وأنكم لترون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون » ، « وسكنتم مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال » ، « ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون » ، « ولقد تركنا فيها آية يبينه لقوم يعقلون » .

١٢ — علم الموسيقى يأتي بعد جميع العلوم من الإلهيات والطبيعات والرياضيات إذ هو المعبر عن نهاية جمال الطبيعة وحكم الخالق عز وجل ، وكان الكرة الأرضية وهي تزف حول الشمس — والأصوات الموسيقيات تزفها صباح مساء — عروس تجلت في حلالها ، ولما عجزت عن النطق والإفصاح عما تستعد له من التحليل والتركيب والتصوير والبدائع على دوام الدهور والعصور الذي لا نهاية له ولا غاية لمداه ، أرادت أن تفهمك ذلك بتلك الأصوات ، وأن فيها من العجائب ما لا يقدر على حصره اللسان ، وإذا يصدق عليها قول بعض الحكماء : « إن النغم فضل بقي من النطق عجزت النفس عن استخراجها بالكلام فأبرزته بالصوت ، فهكذا الكرة الأرضية أجمعها استعدت لما لا يتناهى من الصور والأشكال فأبرزته في قالب حفيف الأشجار وخرير الأنهار ونغم الموسيقى » .

إذا فهمت ما تلوناه عليك وأصغيت بقلبك إليه ، وأن بين عالم الأصوات
ونغماته والعناصر وتركيبها تناسباً هندسياً واحداً لولاه ما تناسبت الصور
ولا النغمات ، عرفت قول حكيم اليونان : « العالم موسيقى » ، وهذا القول لا يفهمه
إلا دارسو العلوم « قل بفضل الله وبرحمته ، فبذلك فليفرحوا ، وهو خير
بما يجمعون » (١) .

ولقد نقل ابن الجوزى فى روضة المشتاق عن بعض السادة أنه قال : ثمان
خلال من لم يحرم فعلها ، لم يحرم حق المجازاة عليها ، من وفق للتوبة لم يحرم
القبول « وهو الذى يقبل التوبة عن عباده » ، ومن وفق للمجاهدة لم يحرم الهداية
« والذين جاهدوا فىنا لنهدينهم سبلنا » ، ومن وفق للصبر لم يحرم الجزاء « إنما
يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » ، ومن وفق للتوكل لم يحرم الكفاية « ومن
يتوكل على الله فهو حسبه » ، ومن وفق للاسترجاع لم يحرم الرحمة « أولئك عليهم
صلوات من ربهم ورحمة » ، ومن وفق للتقوى لم يحرم المخرج من الشدائد
« ومن يتق الله يجعل له مخرجاً » ، ومن وفق للدعاء لم يحرم الاجابة « ادعونى
أستجب لكم » ، ومن وفق للشكر لم يحرم المزيد « لئن شكرتم لأزيدنكم » ،
فترجو الله قبولنا بالتفكر فى خلقه ، ورحمتنا بهدايتنا لشكره وتقواه والتوكل
عليه ومجاهدة النفس والصبر لها وعليها !

(١) راجع ٢٤ و ٢٥ و ٢٦ — ٢٨ و ٢٩ — ٣٢ و ٣٦ و ٤٣ — ٤٦ و ٥٤ —
٥٨ و ٦٠ — ٦٤ و ٨٣ و ٨٩ و ١٠٤ — ١٠٦ و ١٩٧ من كتاب النظام والإسلام
لأستاذنا المرحوم الشيخ طنطاوى جوهرى .

الفصل الثاني

براءة الإسلام من الوثنية والضعف والانحلال

وهل أفسد الدين إلا الملوك وأحبار سوء ورهبانها
فباعوا النفوس ولم يربحوا ولم تغل في البيع أثمانها
لقد رتع القوم في جيفة بين لدى العقل أثنائها
ابن المبارك

من الكلمات المأثورة عن السيد جمال الدين الأفغاني أن القرآن وحده
كاف لرفع البشر إلى أرقى مقام من العلم والعرفان والفضائل والحضارة ، لو أن
شعبا وحده على صخرة في جزيرة بالبحر ولم ير غيره ، ليس معنى هذا أن فيه
مسائل جميع العلوم والفنون التي يرقى بها البشر ، إنما معناه أنه يصلح العقول
والأنفس ويدفعها بهدايته إلى طلب هذا الكمال !

وكتب إلى المرحوم السيد رشيد رضا صاحب المنار صديقه المرحوم الشيخ
عبد القادر المغربي من الاستانة أيام كان السيد جمال الدين فيها ، أنه زاره فكان
بما سمعه منه أنه ليس بين أوربا وبين القرآن من حجاب يمنعهم من الاهتداء به
إلا نحن معاصر المسلمين ، وقال إنه رفع كفيه ووضعهما أمام وجهه وفرج بين
أصابعه وقال : ينظرون إلينا من خلال القرآن هكذا فيرون وراءه شعوبا قد
فسا فيها الجهل والفقر والكسل و... و... فيقولون لولا أن تعاليمه باطلة
لما كان أتباعه بهذه الدركة من الانحطاط ، فإذا أردنا أن نهديهم إلى الإسلام
فلنقنعهم أولا أننا لسنا مسلمين^(١) .

وتوجد أشياء تنسب إلى الإسلام زورا تدعو للضعف والانحلال ،
والإسلام منها برىء ، منها :

(١) راجع كلمة المرحوم السيد رشيد رضا في أهرام ٢١ مارس سنة ١٩٢٣ .

١ — إدخال بعض الكذابين في الدين جملة مبادئ وأحاديث تثبط الهمم عن السعى سواء في المنفعة الشخصية أو العمومية مثل قوله « المؤمن مصاب ، والفقير في الدنيا غنى في الآخرة وأكثر سكان الجنة البله والرزق كالظل إن سعيت وراءه يهرب منك وإن تركته تبعك ونحو ذلك ، وهذا كما يرى أصحاب الإرشاد كله خطأ عظيم ، والحق هو ما ورد في القرآن الكريم من أنه ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى ، وأما ما جاء في القرآن الكريم من آيات التوكل مثل قوله تعالى « ومن يتوكل على الله فهو حسبه » أو قوله تعالى « إن الله يحب المتوكلين » فلا ينافي ذلك ، ومعناه أن الإنسان مهما سعى أو ترك السعى أو تحرك أو سكن ، فأمره في النجاح والخيبة موكول إلى الله تعالى ، فهو يسعى موجهها وجهه إلى الله متوكلا عليه مسلما أمره إليه طالبا منه التوفيق والنجاح ، وهو مما يزيده إقداما في سعيه ، ولهذا جاء « فإن عازمت فتوكل على الله ، فالتوكل بعد العزم .

ومن علامات الأحاديث الموضوعة : المجازفات التي لا يقولها الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم والأشياء التي تنكرها بداهة العقل ، ومنها سماجة الكلام وأنه فيما يسخر منه كأحاديث الأرز والباذنجان ونحوهما التي لا تليق إلا بفقهاء الريف ، ومنها مخالفته لفحوى القرآن كحديث مقدار الدنيا ، ومنها ركة الألفاظ وركعة المعنى كمن صلى كذا فله كذا في الجنة سبعون دارا في كل دار سبعون ألف بيت ١

وشر الكذب الكذب على الله ورسوله ، ومن الكتب المشحونة بالموضوعات والخرافات — كما ذكرها أصحاب الإرشاد — كتاب نزهة المجالس وكتاب تنبيه الغافلين وكتاب الجامع الصغير للسيوطي وكتاب الحيوان للدميري وكتاب قصص الأنبياء للثعالبي وكتاب المستطرف وكتاب نور الأبصار في مناقب آل بيت النبي المختار وكتاب أخبار الأنبياء وكتاب خريدة العجائب وكتاب الروض الفائق في المواعظ وكتاب فتوح الشام للواقدي ، والأحاديث الواردة في الملاحم موضوعة ، وما ينسب لكثير من الصوفية في تفسير القرآن

والحديث وتأويل معانيه — لا بظاهر ألفاظه بل بما يدعون من معانيه — هو خلط وتحريف وتخريف ، وأغلب ما ينقله القصاص المسمون بالوعاظ هو موضوع وكذب ، ولذا ألف السيوطي كتاباً سماه تحذير الخواص من أكاذيب القصاص .

٢ — عدم اهتمام الفقهاء ببحث حكمة بعض العبادات وكيفية إيصالها إلى التقوى المقصودة للشارع منها ، فهم لا يحفلون بها بل لا يكادون يذكرونها ، فمثلاً في الصيام يملأون الصحائف بالدقائق النادرة التي لا علاقة لها بحكمة مشروعية الصيام ويبحثون في الغبار الذي يدخل الأنف في الطريق وفي وضع الحلال في الأذن ، ويكثرون من الكلام عن الاستنجاء ، بل منهم من يذهب إلى عملية طويلة تقتضي القعود للاستنجاء موضعاً آخر وذكر أدعية قبل كشف العورة مرة ثانية وبعدها ، مع أن الضرورات العملية تقتضي سرعة الانتهاء منها ، وأنه لا يجوز ذكر اسم الله تعالى في هذه الأماكن تنزيهاً له سبحانه وتقديساً^(١) .

والقليل من الفقهاء من يعنى ببحث ما قد يعرض للمتعبدين من خواطر ، فمثلاً لماذا يذكر إبراهيم في التشهد في الصلاة ؟ اختار ابن تيمية في سبب ذكر إبراهيم أن يقال محمد هو من آل إبراهيم كما روى علي بن طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى : « إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران علي العالمين » ، أن محمداً من آل إبراهيم ، وهذا بين فإنه إذا دخل غيره من الأنبياء في آل إبراهيم فهو أحق بالدخول فيهم فيكون قولنا كما صليت علي آل إبراهيم متناولاً للصلاة عليه وعلى سائر النبيين من ذرية آل إبراهيم ، وقد قال تعالى : « وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب » ، ثم أمرنا أن نصلي علي محمد وعلي آل محمد خصوصاً بقدر ما صلينا عليه مع سائر آل إبراهيم عموماً ، ثم لأهل بيته من

(١) راجع ص ٥٦ و ٢٦٣ و ٦٣٧ من كتاب الارشاد لبعض العلماء وص ٢٤٢ و ٢٤٣ من وحى الأحاديث المحمدية الجزء الثاني لمحمود علي قراءة . هذا وقد ذكرنا في الجزء الأول ص ١١٢ أن النبي الكريم كان يقول إذا خرج من الحلاء : غفرانك ! استغفارك من اغفال الذكر في هذه الأماكن ، ويقول الحمد لله الذي أبعد عني الأذى وعافاني !

ذلك ما يليق بهم والباقي له ، فيطلب له من هذا الأمر العظيم ، ومعلوم أن هذا أمر عظيم يحصل له به أعظم مما لآبراهيم وغيره ، فإنه إذا كان المطلوب بالدعاء إنما هو مثل المشبه به وله نصيب وافر من المشبه وله أكثر المطلوب ، صار له من المشبه وحده أكثر مما لآبراهيم وغيره ، وإن كان جملة المطلوب مثل المشبه إنضاف إلى ذلك ماله من المشبه به فظهر بهذا من فضله على كل من النبيين ما هو اللائق به صلى الله عليه وسلم تسليماً كثيراً^(١) .

وتظهر مثلاً حكمة الطواف في الحديث المروى عن ابن عباس رضى الله عنهما ، قال : قدم النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه مكة وقد وهنتهم^(٢) حتى يثرب فقال المشركون إنه يقدم عليكم غدا قوم قد وهنتهم الحمى ولقوا منها شدة ، فجلسوا مما يلي الحجر وأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يرملوا ثلاثة أشواط^(٣) ويمشوا بين الركنين ليرى المشركين جلدهم ، فقال المشركون هؤلاء الذين زعمتم أن الحمى قد وهنتهم وهؤلاء أجلد من كذا وكذا ، قال ابن عباس : ولم يمنعه أن يأمرهم أن يرملوا الأشواط كلها إلا بقاء عليهم^(٤) ، وعن ابن عمر

(١) راجع ص ١٦٥ من فتاوى ابن تيمية ١٢ وص ٥٢٦ — ٥٢٨ وحى الأحاديث الحمديّة لمحمود على قراءة الجزء الثاني .
(٢) أضعفتهم .

(٣) الرمل بفتح الراء والميم : سرعة المشى والهرولة . وإني لأذكر هنا حذقة أحد المنفرحين من أساتذتي الذين سافروا إلى أوروبا وقوله لنا نحن الطلبة — وقد كنا في المدارس الثانوية إذ ذاك — أن الهرولة (الحسة) خز في نفسى قوله وحفظتها له وشاء السميع العليم أن يصاب هذا الأستاذ بحب أحد زملائنا الجامعيين فكان يطوف بالجامعة وبالجمعية الجغرافية وبكل الأماكن التي يتردد عليها ليحظى بلقائه !

والأشواط جمع شوط والمراد به المرة من الطواف بالبيت .

(٤) أخرجه الحمزة زاد البخارى في رواية أرمّلوا ليرى المشركين قوتهم وفي أخرى إنما سعى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبيت وبين الصفا والمروة ليرى المشركين قوته ، وفي أخرى لأبي داود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اضطلع فاستلم وكبر ثم رمل ثلاثة أطواف ، فكانوا إذا بلغوا الركن اليماني ونفّسوا عن قريش مشوا ثم يطلعون عليهم يرملون فتقول قريش كأنهم الغزلان قال ابن عباس فكانت سنة . راجع ص ٢٦٠ تيسير الوصول الجزء الأول للشيباني ويقول الشيباني إن الاضطباع في الطواف أن يدخل الرجل الرداء من تحت إبطه الأيمن ويجمع طرفيه على عاتقه الأيسر ومنكبه الأيمن ويتخطى الأيسر ، سمي بذلك لابتداء الضبعين وهما من تحت الأبط .

رضى الله عنهما ، قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا استلم الركن الأسود أول ما يطوف يخب^(١) ثلاثة أطواف من السبع .

ولماذا يقبل الحجر الأسود ويستلم ؟ عن عابس بن ربيعة ، قال : رأيت عمر رضى الله عنه يقبل الحجر ويقول إني لأعلم أنك حجر لا تنفع ولا تضر ولولا أنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ما قبلتك ، وأنكر بعضهم أن يكون الحجر الأسود من الجنة وأنه كان أشد بياضا من الثلج حتى سودته خطايا أهل الشرك ، كما جاء فى حديث حماد بن سلمة ، فرد عليهم ابن قتيبة بما خلاصته : وأما قولهم هل فى الجنة حجارة فما الذى أنكروه من أن يكون فى الجنة حجارة وفيها الياقوت وهو حجر والزمرد حجر والذهب والفضة من الحجارة ، وما الذى أنكروه من تفضيل الله تعالى حجرا حتى لثم واستلم ؟ والله تعالى يستعبد عباده بما شاء من العمل والقول ويفضل بعض ما خلق على بعض ، وأما قولهم إن كانت الخطايا سودته فقد يجب أن يبيض لما أسلم الناس ، فمن أوجب أن يبيض بإسلام الناس ، ولو شاء الله تعالى لفعل ذلك من غير أن يجب ! واعترضوا على حديث ابن عباس أن الحجر الأسود يمين الله تعالى فى الأرض يصفح بها من شاء من خلقه ، فرد عليهم ابن قتيبة أن هذا تمثيل وتشبيه ، وأصله أن الملك كان إذا صافح رجلا قبل الرجل يده ، فكان الحجر لله تعالى بمنزلة اليمين للملك تستلم وتلثم ، وأن عائشة رضى الله عنها قالت : إن الله تبارك وتعالى حين أخذ الميثاق من بنى آدم وأشهدهم على أنفسهم ألسنت بربكم : قالوا : بلى ، جعل ذلك فى الحجر الأسود ، وقال أما سمعتم إذا استلموه^(٢) يقولون إيماناً بك ووفاء بعهدك — أى قد وفينا لعهدك أنت ربنا ، وذلك أن الجاهلية قد استلموه وكانوا مشركين ، لم يستلموه بحقه لأنهم كانوا كفارا ، والمقصود به الطاعة لا التشبيه ، تعالى الله عنه^(٣) .

(١) الحب ضرب من السير سريع .

(٢) وفى نسختين : إذا لمسه .

(٣) راجع ٢٧١ و ٢٧٢ و ٣٦٦ — ٣٦٩ من تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة و ٨٥٦ — ٨٦٠ من وحى الأحاديث الحمديّة لمحمود على قراءة (الجزء الثانى) .

وهناك أمور كنت أستنكر بعضها وأنا صغير وأسأل السر عن بعضها الآخر فلا يجيب لسؤالي عنها ، فقد كنت أستنكر قول عجائزنا بوجوب تقبيل اللقمة التي توجد في الأرض وأكلها لأنها نعمة والنعمة لا يجوز أن تداس وكنت أوفق بين رأي ورأي العجائز ، فكنت أضعها جانبا بحيث لا تداس ولكني كنت أستقبح تقبيلها وأستنكر أكلها ، فلما كبرت وفي كتب البحث والحياة درست ، عرفت أن تقبيلها نكر وأن أكلها لا يجوز لأن نعمة الصحة من الله ولا يجوز لعبد أن يجلب لنفسه المرض من أكل لقمة لا يعرف من أكل منها قبله ولا لماذا ألقى بها ، هذا على ما أصابها من تلويث من داسها وما تعرضت له من الجراثيم والقاذورات ، فنعمة الصحة أولى بالرعاية من بقايا طعام رعايته في المحافظة عليه وفي وضعه في موضعه لا في أن تحترم بقاياه الملوثة أو الغير معروفة التاريخ ، وأيقنت أن الدين لا يأمر بهذا ولكن الجهل هو الذي يأمر به !

وكنت بالفطرة السليمة أحب غسل يدي قبل مباشرة أى عمل حتى قبل قضاء الحاجة وبعدها ، وعرفت بعد ذلك أن الدين يأمر بهذا لأن قواعد الصحة تعضده .

وكنت أسأل لماذا يكون الغسل ثلاثا والتسبيح ثلاثا الخ . . . فكان الجواب (كده) فلما كبرت عرفت أن أقل العدد المجموع ثلاثة (١) ، وكنت أسأل هل يقول سيدنا محمد في تشهده ، اللهم صل على سيدنا محمد . . . وبارك على سيدنا محمد ، أى هل يقول عن نفسه أنه سيد نفسه ، فلما وعيت الأمور عرفت أن السنة أن يقال ، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد . . . وبارك على محمد وعلى آل محمد ، وأن لفظ سيدنا إنما لفظ تحييب نقوله نحن حبا فيه وتكريما له .

(١) هذا وقد قال الشعراني إنه سمع عليا الخواص يقول لأمانى السجود دون الركوع لأن السجدة الأولى امثال للأمر عكس ما وقع لا بليس ، والثانية شكر لله تعالى على حصول امثال الأمر راجع ص ١٦٠ من المتن الكبرى للشعراني .

٢ — أخذ الفأل من المصحف لا يجوز ، خشية الوقوع فيما وقع فيه الوليد بن يزيد^(١) وكتابة المصاحف بالحروف المصغرة بدعة منكرة واتخاذها حرزا بهذه الكيفية أشد نكرا لأنها لا تقرأ بالعين المجردة بل قد يصل الأمر فيها إلى أن المنظار المقرب أو المكبر يدل على أنها مجرد خطوط أفقية ورأسية^(٢).

والأدعية التي جاءت بها السنة فيها سؤال الله بأسمائه وصفاته والاستعاذة بكلامه ، وأما الأدعية التي يدعو بها بعض العامة ويكتبها باعة الحروز من الطريقة التي فيها أسألك باحتياط قاف والطور والعرش والكرسى وزمزم والمقام والبلد الحرام ومثل هذه الأدعية ، فيقول ابن تيمية إنه لم يؤثر فيها شيء لآعن النبي صلى الله عليه وسلم ولا عن أصحابه ولا عن أئمة المسلمين ، وليس لأحد أن يقسم بهذه بحال ، بل قد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت ، وقال من حلف بغير الله فقد أشرك فليس لأحد أن يقسم بال مخلوقات البتة ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره ، كما قال البراء بن مالك : أقسمت عليك أي رب إلا فعلت كذا وكذا ، والعبد يسأل ربه بالأسباب التي تقتضي مطلوبه وهي الأعمال الصالحة التي وعد الثواب عليها ودعاء عباده المؤمنين الذين وعد إجابتهم ، كما كان الصحابة يتوسلون إلى الله تعالى بنبيه ثم بعمه العباس وغير عمه من صالحهم ، ويتوسلون بدعائه وشفاعته ، وأما قول القائل أسألك وأقسم عليك بحق ملائكتك أو أنبيائك أو نبيك فلان أو رسولك فلان أو بالبيت الحرام ونحو ذلك ، فلم ينقل عن النبي صلى الله عليه وسلم

(١) وما يحكى عنه أنه استفتح فألقى المصحف خرج ، استفتحوا وخاب كل جبار عنيد ، فألقاه ورماه بالسهم ، فلم يلبث بعد هذا إلا يسيرا حتى قتل . راجع ص ١١٩ و ١٢٠ من الفخرى لابن الطقطقي .

(٢) راجع ص ٦٧٨ و ٧٣١ من وحي الأحاديث الحمديّة الجزء الثاني لمحمود علي قراعة وص ١٧٣ و ٢٩٤ من فتاوى ابن تيمية المجلد الأول و ص ٣٠٣ — ٣١١ و ص ٢٦ من حكم ترجمة القرآن الكريم للأستاذ الشيخ محمد حسين مخلوف العدوي .

ولا أصحابه ولا التابعين لهم بإحسان ، بل قد نص غير واحد من العلماء على انه لا يجوز ، لأنه أقسم على الله بمخلوق ولا يصح القسم بغير الله وإن سأله به على أنه سبب ووسيلة إلى قضاء حاجته ، وأما التوسل بالإيمان بالنبي وبينه وطاعته والصلاة والسلام عليه وبدعائه والشفاعة ومحبة الصالحين ونحو ذلك فهو مشروع باتفاق المسلمين ، ولكن لم يقل أحد إن الدعاء مستجاب عند قبور الأنبياء والصالحين .

٤ — استمرار بعض المسلمين في جعل الخلاف في الفروع من دواعي التفرق والاختلال والانحلال ، مع أن الحنفي والشافعي والمالكي والحنبلي والزيدي والسني والشيعة كلهم دين واحد وأصول عقائدهم واحدة ، والخلاف فيها لا يضر بالأصول وإنما يكون في بعض الأشخاص أو الفروع أو الصفات ، وهذا كله ناتج من جهلنا بما حولنا وعدم فهمنا عمليا قوله تعالى : ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون ، ، وكأن الله لما أذهب الأندلس وكثيرا من بلاد الإسلام من أيدينا ، يريد أن ينبه شعور الباقين ، ولعمري أن هذا لا يكون إلا إذا عرف هذه الأحوال العلماء في العرب والترك والعجم ومصر وجعلوا مبدأ التعليم واحدا مع التحاب والتواد ، وكيف تعرف الأحوال إلا بالسياحات في الشرق والغرب^(١) .

٥ — استمرار بعض المسلمين في استغفال البعض الآخر ، ولذا يستنكر الإمام ابن تيمية ما حكى عن بعض المشايخ من قوله إذا نزل بك حادث أو أمر تخافه فاستوحني فيكشف ما بك من الشدة حيا كنت أو ميتا ، ويقول إن هذا الكلام ونحوه إما أن يكون كذبا من الناقل أو خطأ من القائل لأن الله لم يأمر بمثل هذا ولا رسله أمروا بذلك بل قال الله تعالى : فإذا فرغت فانصب وإلى ربك فارغب ، ولم يقل أرغب إلى الأنبياء والملائكة ، وقال تعالى :

(١) راجع من ٧٩ من كتاب النظام والإسلام لأستاذنا المرحوم الشيخ طنطاوى جوهرى .

« قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه ، إن عذاب ربك كان محذورا » . قالت طائفة من السلف كان أقوام يدعون العزيز والمسيح والملائكة ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ، وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يقل لأحد من أصحابه إذا نزل بك حادث فاستوحى ، بل قال لابن عمه عبد الله بن عباس وهو يوصيه : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك — أو قال أمامك — تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة إذا سألت فاسأل الله تعالى ، وإذا استعنت فاستعن بالله تعالى ، فإن العباد لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله تعالى لك ، لم يقدروا على ذلك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يقدروا على ذلك ، جفت الأقلام وطويت الصحف » ١

ويقول ابن تيمية في قول القائل إذا عثر يا جاه محمد ! ياللت نفسيسة ! أو ياسيدي الشيخ فلان أو نحو ذلك لما فيه استغاثته وسؤاله ، أنه من المحرمات وهو من جنس الشرك ، فإن الميت سواء كان نبيا أو غير نبى لا يدعى ولا يسأل ولا يستغاث به لا عند قبره ولا على البعد من قبره ، ولذلك يقول بإشراك من يقول بقضاء حاجة من يقرأ آية الكرسي واستقبال جهة الشيخ عبد القادر الجيلاني والتسليم عليه وخطو سبع خطوات مع كل تسليمة خطوة إلى قبره ، وأنه كذلك النذر للقبور أو لأحد من أهل القبور بزيت أو شمع أو شمعدان فضة أو ذهب أو ستر أو غير ذلك ، كالنذر لإبراهيم الخليل أو للشيخ فلان أو لبعض أهل البيت أو لغيرهم نذر معصية لا يجب الوفاء به باتفاق أئمة الدين ، بل ولا يجوز الوفاء به ، وإن تصدق بما نذره على من يستحق ذلك من الفقراء الصالحين ، كان خيرا له عند الله وأنفع له ، فإن هذا عمل صالح يثيبه الله عليه فإنه يجزى المتصدقين ولا يضيع أجر المحسنين ، والمتصدق يتصدق لوجه الله ولا يطلب أجره من المخلوقين ، بل من الله تعالى (١)

(١) راجع ص ٣٠٨ — ٣١٨ من فتاوى ابن تيمية ج ٤ و ٧٩٠ من وحي الأحاديث المحمدية ج ٢ لمحمود على قراءة .

وإن بشيش يصف الذات المحمدية في صلواته بقوله بأنها : « اللطيفة
الأحدية شمس سماء الأسرار ، وأنه « السبب في كل موجود ، ويقول :
« أغرقنا في عين بحر الوحدة السارية في جميع الموجودات ، ، وأين هذا من
قول رب العزة الخالق المنزه عن الشريك ، وما محمد إلا رسول قد خلت من
قبله الرسل ، وأين تلك الأوصاف ممن يقول له الله « وتخشى الناس والله أحق
أن تخشاه ، ، ومن وثنياتهم القسم على الله بألفاظ غير مفهومة مثل قولهم :
« بحق بطد زهيج واح يا حى ، وقولهم « بحق ظهور بدعق سقناطيس سقاوين
احون قاف آدم حم هاء آمين اللهم أقسم عليك بحق هذه الأسماء العظام وملوك
عبيدك الكرام ، وقوله « كدكد كردد كردد كردد دده الله رب العزة ،
وقوله : « اتينبوخ ملوخ باى وامن آى وامن مهباش الذى له ملك السموات
والأرض^(١) .

ولقد سئل أستاذنا المرحوم الشيخ محمد حسين مخلوف العدوى بصفته
وكيلا الأزهر ومديرا للمعاهد الدينية عن حكم الأذكار الملحونة والمحرقة
والطبل والزمر والتصفيق بالأيدي وما يحصل من الرطانة المعروفة عندهم
بضرب اللاوندى وفيما يقع من أرباب الطارق حال ذهابهم إلى بعض الأضرحة
من الفوائح المتعددة كلها وصلوا لجهة فيها بعض إخوانهم وحمل واحد يسير
أمامهم بفانوس يسمونه (الزى) وفيما يفعلونه في الموالد أثناء ذهابهم إلى
مركز مشيخة الطرق من الاصطفاف ميمنة وميسرة يحمل لهم الشموع الموقدة
والمجامر الأرجة غلمان يحملون بالملابس الفاخرة والمناطق المطرزة الناعمة

(١) واجع التعريف للجرجاني وس ١٢ — ١٥ الأستاذ عبد الرحمن الوكيل في مجلة الهدى
النبوى العدد الخامس جادى الأولى ١٣٦٦ ودلائل الحيرات . ويقول الدكتور ادرين . ا . كافرلى
في مجلة الهلال ص ٩٦ وما بعدها عدد فبراير سنة ١٩٥٦ : قد زخرت الشائعات التى روجت عن
الإسلام بأخطاء كثيرة ومن بين هذه الأخطاء أن المسلمين (ويسمونهم المحمدين) يعبدون محمدا ،
وليس عسيرا أن يتقبل الغربى هذه الفكرة ، فكما أن بعض المسيحيين يعبدون المسيح مؤسس المسيحية
فكذلك يظن بعض الغربيين أن المسلمين يعبدون محمدا مؤسس دينهم وأدعى من هذا إلى الأسف
أن بعض المعاهد فى أمريكا تلقن طلبتها هذه الفكرة ويرى أسانبتها أن محاولة المسلم أن يطبع محمدا
وبحاكيه فى كل أفعاله ليس الا عبادة فى حين يقرر المسلم بأنه لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وفى
حين أن طاعة المسلمين محمدا ليست إلا طاعة الواحدالأحد الذى دعاهم إلى عبادته ، ويعبده هو أيضا .

وفيا يسمى بزقة الرفاعى واليوى وزقة الفاروفى التصدى لمشيخة الطريق وأخذ اليهود وإرشاد الخلق بمن ليس أهلا للإرشاد ؟ فهد رحمه الله لإجابته بما خلاصته أن غالب هذه الأمور التى اشتمل عليها السؤال المذكور من البدع السيئة التى يجب على كل قادر من المسلمين إزالتها ، وأولى الناس بالمسارعة إلى ذلك سواس الأمة وعلماؤها الذين لهم الزعامة فى الدين ، فإذا تغاضوا عنها أو تواكلوا فى إزالتها أو بدا منهم ما يشعر باستحسانها والرضا عنها ، كانت التبعة عليهم مضاعفة واندرجوا فى وعيد قوله عليه الصلاة والسلام : « إذا ظهرت البدع وسكت العالم فعليه لعنة الله » ، وليس المراد بالعالم من تزيا بالزى الخاص ، بل كل من يعلم الحكم الشرعى فى الحادثة ، وقوله : « من نظر إلى صاحب بدعة ليوقره فقد أعاناه على هدم الإسلام » ، وقوله : « من نظر إلى صاحب بدعة بغضا له فى الله ، ملأ قلبه أمنا وإيمانا ، ومن استحققر صاحب بدعة ، رفعه الله فى الجنة مائة درجة » ، ومن لقيه بالبشر أو بما يسره ، فقد استخف بما أنزل الله على محمد صلى الله عليه وسلم ، وكثيرا ما كان يتمثل الإمام أبو حنيفة النعمان رضى الله عنه بهذين البيتين :

من الدين كشف العيب عن كل كاذب وعن كل بدعى أنى بالمصائب
ولولا رجال مسلمون لهدمت صوامع دين الله من كل جانب
وأول من أحدث هذه البدع فى الطرق الصوفية — كما فى الخطط المقرزية —
جماعة من مرتزقة الأعاجم فى أواخر القرن الرابع استمرروا مرعى الخوانك^(١)
التي أحدثها بمصر أهل الخير ليأوى إليها الزهاد والعباد ، فتدثروا بشعائر
الصوفية لينسبوا إليهم وتعطف القلوب عليهم ، واتهجوا مناهج أهل الإباحة
فأتوا من المنكرات ما يبرأ منه الدين وأهل التصوف ، إذ الصوفى — كما قال
شهاب الدين السهروردى — يضع الأشياء فى مواضعها ويدبر الأوقات
والأحوال كلها بالعلم ، يقيم الحق مقامه ويقيم أمر الحق مقامه ويستتر ما ينبغى

(١) كلمة فارسية جمع خانكاه ومعناها بيت وقد جعلت لتخل الصوفية فيها للعبادة .

أن يستر ويظهر ما ينبغي أن يظهر ويأتى الأمور من مواضعها بحضور عقل وصحة توحيد وكال معرفة ورعاية صدق وإخلاص ، إلا أن هذه المنكرات كانت خفية جدا إلى أن تقادم العهد وأهمل في الأمر أولياؤه وفقدت الغيرة الدينية وأسندت الأمور إلى غير أهلها ، فكثرت هذه البدع والمنكرات واتسع نطاقها !

ثم تصدى الشيخ مخلوف العدوى بعد ذلك إلى بيان حكم ما سئل عنه فأجاب بما خلاصته : أجمع المسلمون على حرمة الإلحاد في أسمائه تعالى والتحريف في آياته وحرمة ذكره على وجه ينافى الإجلال ، قال تعالى ، وذُر الذين يلحدون في أسمائه ، سيجزون ما كانوا يعملون ، وقال تعالى ، سبح اسم ربك الأعلى ، ولا ريب في أن اللحن في الكلمة المشرفة لإلحاد وتحريف في الإسم الشريف وذكر له تعالى على وجه لا تسبيح فيه ولا تقديس ، ولم يسمع عن أحد من أئمة الدين وأهل الطريق أنه ذكر الله تعالى أو قال بجواز الذكر على غير الوجه المشروع الوارد كتابا أو سنة ، وقد نصوا على أن أسماء الله تعالى توقيفية لا تثبت وضعا وكيفية إلا بكتاب أو سنة صحيحة وأن الكلمة المشرفة من القرآن والزيادة فيه كالتقص حرام ، وكما لا يجوز اللحن في أسمائه تعالى ، لا يجوز قصر لفظ الجلالة وهو نقصه عن المد الطبيعي الذي لا وجود للحرف إلا به لأنه من جملة اللحن ، وقد نص الفقهاء على أن الإتيان به مقصورا لا يعد ذكرا ولا ينعقد به يمين وتفسد به الصلاة في تكبيرة الإحرام ، ولا يختلف حكم الاستماع والفعل في هذه الأذكار المحرفة لأن السماع حكم المسموع كما أن للنظر حكم المنظور ، قال الله تعالى ، ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار ، فيحرم استماع هذه الأذكار المحرفة ، ويجب على السامع إنكارها والنهي عنها وبذل المجهود في نصح الذاكرين بها وإرشادهم إلى تصحيحها جهد المستطاع ، وذكر الله تعالى على الطريقة الشرعية من أفضل الأعمال التي حث عليها الشرع لماله من جميل الأثر في تهذيب النفوس واطمئنان القلوب وقمع الشهوات سواء كان سرا أو جهرا ، قبا ما أو قعودا ، وسواء كان الذاكر منفردا أو في جماعة لعموم قوله تعالى

« ألا بذكر الله تطمئن القلوب » وقوله سبحانه « فاذكروني أذكركم » وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال فى تفسير قوله تعالى « فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم » لم يعذر الله أحدا فى ترك ذكره إلا المغلوب على عقله ، وقد أكد الصوفية أمر الذكر جهرا ومع الجماعة نظرا إلى أن النفوس لما كانت كثيرة الخواطر والخطرات شديدة التقاعد عن العبادات تعثر بها الغفلة وتسميلها رؤية الأغيار ، كانت محتاجة فى سيرها إلى هذا المقصد الأسمى إلى استنهاض همتها بالجهر والرفقة الصالحة فى هذا السبيل ، والذكر إن لم يكن باسم من أسمائه تعالى الواردة فى القرآن فهو من باب الدعاء كما قال تعالى « والله الأسماء الحسنى فادعوه بها » ولا وجه للقول بكراهة الجهر بالذكر إذا خلا عن الموانع الشرعية ولم يكن فيه إخلال بشئ من آدابه المعروفة ، فالهزة والتمايل أثناء الذكر إن كانا بحالة لا تنافى الآداب وجلال المشهد ووقار الذكر فلا بأس بهما ، وإن كانا بحالة تنافى الآداب وتخرج بالذكر عن الوقار الواجب كما يفعله الجهلة الآن من التولى بالوجوه إلى الظهور والنزول بالرؤس إلى الأقدام والتثنى والتكسر والرقص والاضطراب ، فلا شك فى حرمتها على غير مغلوب الحال حقيقة لا تصنعاً .

وروى الفضيل أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا إذا ذكروا الله تعالى ، تمايلوا يمينا وشمالا كما تمايل الشجرة فى الريح العاصف إلى قدام ثم ترجع إلى وراء ، وأما الإنشاد فى الذكر لتنشيط النفوس بكلام لا يشوبه هذر ولا هراء ، بل المواعظ الحسنة والحكم البالغة ، فلا بأس به لأنه ذريعة إلى الجد والاهتمام فى التقرب إليه تعالى ما لم يتله به الذاكرون عن حضور القلب ويجعلوه مقصدا وغاية وما لم ينشأ عنه طرب واضطراب ينافى الخشوع والخضوع المعبر عنهما فى لسان الصوفية بالركة والتواجد ، فإنه حينئذ لا يسوغ أما استعمال الخرقه والحزام وعلم الراية ، فالأصل فيه عند الصوفية ما ورد من تعميم النبى صلى الله عليه وسلم لبعض أصحابه فى الجهاد وعقد اللواء ووضع شعار فى القوم ليجتمع بعضهم ببعض ، ولا شك فى أن الجهاد الأكبر هو مجاهدة

النفس والهوى ، فيصح التأسي فيه بما في الجهاد الأصغر ، تيمنا بفعله عليه الصلاة والسلام ، فإذا لوحظ في استعمالها حكمتها الأصلية ، ساغ استعمالها وإلا فلا ، أما الذكر بمثل (أنا أنت وأنت أنا) فأقل مراتب هذه المقالة الشنيعة الحرمه لأنه إن أريد بها أن ذات القديم عين ذات الحادث ، فذلك نوع من الاتحاد والحلول الذى ذهب إليه النصارى وبعض غلاة الشيعة ، وإن أريد غير هذا مما يصح فلا يسوغ ذكره شرعا ، أما التكلم بين العامة بعبارات الصوفية الغامضة ومخاطبة الناس بما لا تتسع له عقولهم ، فقد حذرتها الشريعة لاسيما إذا قصد بهذه الألفاظ والمعميات التلبيس والتدليس وإيهام العامة أن صاحبها من الخاصة لاستمالة قلوبهم واستنداء أكفهم ، فإن الخطر أشد والجرم أعظم ، وحسب امرئ من الشر أن يبيع آخرته بدنياء ، وأما الطبل والزمر فلا يسوغ اتخاذهما فى الذكر الذى هو أفضل الأعمال التى يتقرب بها إلى الله تعالى ، لأن الذكر جليس الحق يناجيه بأسمائه الحسنى وصفاته المقدسة ، فينبغى أن يكون على غاية من الكمال والآداب والتذلل والخضوع وأن يكون مجلسه أبعد المجالس عما ينافى آداب هذه الحظيرة المقدسة ، وأما التصفيق بالأيدى كما يفعل هؤلاء الجهلة فى الذكر فهو من البدع المنكرة ، وكذلك يحرم ذكر الألفاظ الساذجة حال الذكر سرا وجهرا ، أما هذه الرطانة المعروفة فى مصر (بضرب اللاوندى) التى يتصنعها من لا خلاق لهم فى حلقات الأذكار لإيهام أنهم مغلوبون على أمرهم مأخوذون عن حواسهم ، فليس لها أصل فى الدين مع إخلالها بآداب الذكر وجلال أسمائه تعالى ، فيجب الإنكار عليها وزجر متصنعها لاسيما إذا أدت إلى محرم أو مكفر ، قال تعالى إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا ، وقال تعالى وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ، ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ، وقال سبحانه ، الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعرون منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ، وأما سير أرباب الطرق ليلا وذكرهم فى الطرق جهرا ، فلا يسوغ شرعا لامتنانها ومنافاتها لجلال أسمائه تعالى إذا كان مع التحريف ، وكذلك حكم قراءة الصلوات والفواتح على الوجه الذى يفعلونه ، وأما الذهاب

إلى بعض الأمكنة لأجل الاجتماع على ذكر الله تعالى واستصحاب الفانوس للاستضاءة به ، فلا بأس به ما لم يشتمل على محرم أو مكروه فيمنع ، والحكمة في إحياء ليلة ميلاده عليه الصلاة والسلام وميلاد الأولياء والصالحين ، هي تذكير الناس بسيرته عليه الصلاة والسلام وسير هؤلاء الأجلة وما كان لهم من الأعمال الصالحة ليتأسوا بهم ، فينبغي أن يكون إحيائها بأنواع العبادة والشكر على هذه النعمة الجزيلة نعمة وجود القدوة الصالحة ، إلا أن الناس حسبوا هذه الحفلات في عداد الملاهي ، فأصبحت لذلك محرمة ، ومن هذه البدع ذهاب أرباب الطرق إلى مركز مشيختهم بالهيئة المعروفة حيث يجتمع بهم الشبان والنساء والأوغاد ويأتون من المنكرات ما عمت مفاسده ، وأما ما يسمى بزفة الفار فلا شك في حرمتها لأنها لا تشتمل إلا على السخرية ، وكذلك ما يقوم به أرباب الطرق كزفة البيومي والرفاعي لما اشتملت عليه من ألفاظ الذكر المحرمة والعبارات السمجة وحمل الألوية والرقص بها والضرب بالصنج المسمى عندهم بالباز وحمل المجامر وزر ماء الورد في الوجوه وامتناء شيخ السجادة صهوة جواده متكئا على نفر من أتباعه معتما بعمامة أحد أصحاب المزارات الشهيرة متظاهرا بالغيبة والسكر والتواجد إلى غير ذلك من العادات الذميمة والبدع السيئة ، وأما مشيخة الطرق فترية خاصة ، فهي من أهم الوظائف الدينية ، فلا بد لمن يتصدى للقيام بأعبائها أن يكون عالما بأحكام الشريعة على أكمل وجه ، سائسا خيرا بأحكام وقته ، حكيما عارفا بخواطر النفوس وحركاتها والأسباب التي تثيرها والعلل التي تصيبها والأدوية التي تزيلها والعوائق التي تضادها ، ليتمكن من هداية الخلق إلى طريق الحق بحاله ومقاله هداية خاصة وعامة ، ويندر الآن وجود من تتوفر فيه هذه الصفات ، وقد كان جديرا بمشيخة الطرق الكبرى أن تعنى بهذه المسألة الدينية الخطيرة ولا تدع أرباب الطرق المتشعبة في أنحاء القطر فوضى لا سראה لهم^(١) .

(١) راجع ص ١ — ٢٧ من القول الوثيق في الرد على أدعياء الطريق للرحوم الشيخ محمد حسين مخلوف العدوي ، طبع الأستاذ صالح مراد الهلالي .

(٦) ومن الظواهر الاجتماعية الخطيرة ومن الأدواء المتأصلة في مصر تزيين المتصوفة لاتباعهم ترك الاشتغال بأعمالهم ، وقد استنكر هذه الظاهرة الأستاذ الإمام عبد الوهاب الشعراني فحدثنا عنها وعن أسبابها ونتائجها في كتابه لطائف المتن والأخلاق في بيان وجوب التحدث بنعمة الله على الإطلاق ، وسأجعل حديثي هنا قاصرا على الحديث عن هذه الظاهرة مستشهدا بالشعراني وهو من أجلة العلماء العاملين وقد اتصل بالكثير من المجاذيب ومدعى المشيخة وعرف أسرارهم ونواياهم وخبيئات نفوسهم ، فحديثه عنهم حديث خبير ، وقد كان رضى الله عنه يبحث كل من يجتمع به من الإخوان على الاشتغال بالحرف والصنایع وعلى دوام إقامةهم فيها إن كانوا من أهل الحرف قبل اجتماعهم به ويقول : وهذا الخلق قليل من يتنبه له من متصوفة الزمان ، بل يزينون لمن يجتمع بهم ترك الاشتغال بالحرفة والاشتغال بأحزابهم وأورادهم ، وهم بعد ذلك على قسمين : إما أن الشيخ يطعمهم من الصدقات فيتلف بواطنهم ، وإما أن يسألوا الناس ، وبعضهم يأمر المريد أن يخلى دكانه ويعرض عن الدنيا فينفقه ثم يطلب دكانا بخلة فلا يجده ، فبعد أن كان يطعم الناس صار الناس يطعمونه ، وبعد أن كان يعطى السائلين ، صار هو يسأل الناس ، ويزيد الطين بلة هجوم المتمشixin على الظانين فيهم خيرا من العمال وصغار المحترفين والموظفين ومطالبتهم بما يسمى النبعة أو النفحة يقدمونها لهم ولاتباعهم من العاطلين المدعين للانجذاب والمتظاهرين بالتقوى والصلاح ، هدية إجبارية أو ضريبة اختيارية سنوية أو شهرية أو أسبوعية أو يومية حسب قوة الإيحاء والانخداع وقد كان إبراهيم المتبولى رضى الله عنه يقول إن المؤمن المحترف أكمل عندى من المجاذيب ومن مشايخ الزوايا الذين يأكلون بدينهم وليس يدهم حرفة دنيوية تعفهم عن صدقات الناس وأوساخهم ، وعد الإمام عبد الوهاب الشعراني رضى الله عنه من نعمه تبارك وتعالى عليه شهوده لحاسن العامة من المحترفين وتفضيلهم كشفاً وبقينا ، وكان يكره الأكل من شئ أعطيه على اسم كونه من الصوفية أو اسم كونه من الصالحين ، وكذا التطلع لما فى أيدى الخلائق من المناصب والمطاعم والملابس والنقود وغير ذلك ،

وكان يشكر الله تبارك وتعالى لحايته من الأكل من طعام المهورين ومكاسبهم سواء دعوه إليه في بيوتهم أو أرسلوه إلى بيته ، وكان يقول « وما من الله تبارك وتعالى به على : عدم أكل من طعام من يعتقد في الصلاح ، لأنه لا يخلو حالي من أمرين : إما أن أكون صالحا في نفس الأمر من حيث لا أشعر ، أو غير صالح ، فإن كنت صالحا فقد أكلت بدني طعاما ، وإن كنت غير صالح فقد أكلت حراما في الشرع لأنه لو اطلع على ما أقع فيه من المخالفات ليلا ونهارا لم يعتقد في أبدا ، ، « وما من الله تبارك وتعالى به على : عدم أكل من طعام من أكل بدنه من فقراء هذا الزمان ويجرد الناس ويسلقهم إذا لم يبروه ، لاسيما إذا عمل مولدا كبيرا فإنه يحلل الحرام ويعتدي به ولا يحرم الحرام ويحتمه ، ، « وما من الله تبارك وتعالى به على : حمايتي من الأكل من طعام النذور والأعراس والعزاء والجمع ، لأن طعام النذور لا يعمل له صاحبه إلا بإلزامه نفسه ، وكان سيدي على الخواص رضى الله تعالى عنه يقول : طعام المتكفين يورث الظلمات في القلب لأنه كطعام البخيل على حد سواء لكونه يطعم الضيف وعنده ثقل من ذلك ، ولما دار بعض إخواننا بالشرقية والغربية ومعه جماعة بكثرة ، عاب عليه ذلك وأرسل يحط عليه ، وقال إن جميع أعمالك كل يوم لا تنفي بضمن الطعام الذي تأكله بالحاجة يوم القيامة ، وقد كان سيدي محمد بن عنان وسيدي على المرصفي وسيدي محمد السروري رضى الله تعالى عنهم إذا ذهبوا إلى طعام أحد يذهبون بجماعة قليلة بشرط إعلام أصحاب الطعام بهم قبل الذهاب وانسراح صدره بذلك ، ، « ومعلوم أن طعام البخيل داء كما صحت به الأحاديث لاسيما إن عملته امرأة من كسبها ، فإن الأكل منه ينافي شهامة الرجل لاسيما سيدي الشيخ الحاضر بجماعته ليأكل ويلبس الصحون حتى لا يخل فيهما لمن بعده شيئا ، وأما أطعمة العرس الواسعة فإن الغالب على صاحبه التكلف فيه ، وقد نهانا الشارع صلى الله عليه وسلم عن الأكل من طعام المتكفين والمتباهين والمتفاخرين ، وأما طعام العزاء والجمع وتمام الشهر فربما دخلته المفاخرة كذلك ، وربما عملوا ما عملوا من الفطير والعجمية والحلو والأرز متكفين له خوفا من عتب الناس ، وربما كان ذلك من مال الأيتام ، !

« وما من الله تبارك وتعالى به على : حمايتي من الأكل من طعام الصنایعی الذي يعمل بالقوت لاسيما إن كان قد طعن في السن إلا إن كافأته على ذلك بإعطائه ثمنه أو بتوجيهي إلى الله تبارك وتعالى أن ينزل له البركة الخفية في رزقه بقیة عمره وأرى أثر الإجابة في دعائي ، وسبب التورع عن مثل ذلك كون الصنایعی يقاسى شدة في كسبه طول يومه ، فلا ينبغي لمن له مروءة أن يأكل من مثل ذلك لاسيما إن كلفته امرأة لعمل أسبوع أو مولد أو نحو ذلك ، » وما من الله تبارك وتعالى به على حمايتي من الأكل من طعام من علمت أن عليه ديناً حالاً وهو يماطل صاحبه مع القدرة على وفائه ، والعلة في ذلك كون الواجب عليه أن يصرف ثمن ذلك الطعام في الدين ، ففي أكلنا منه شبهة لكون الحق فيه لغيرنا ، ولذلك لانا كل من طعام شخص عليه دين وهو عاجز عن وفائه بل هو أشد من أكل طعام القادر لما فيه من الاجحاف به ، ولو دعانا بطيب نفس فلا نجيبه لأنه جاهل ، ، « وما من الله تبارك وتعالى به على : حمايتي من الأكل من هدية علمت بالقرائن أن لها عند صاحبها قدراً عظيماً كأن أرسلها مع غلامه وقال له لا تسلمها إلا إلى عبد الوهاب في يده أو جعل على وعائها قفلاً أو خيطه أو علمت أنه في كل قليل يتذكرها ولو في نفسه ، وذلك علامة أن نفسه تتبعها بعد أن أرسلها ، ففيها ضرب من التكليف ، وكأن ينص على أني آكل ولا أعطيها لغيري ، ، « وما من الله تبارك وتعالى به على : تنفيري للاخوان أن يرسلوا إلى طعاماً من بيوتهم أو هدية من غير استدعاء مني وأعلمهم أن في إرسالهم شيئاً إذا أرادوا استقبالي لما يرسلون وأطعمهم أو خالفتهم — مفسد كثيرة ، منها أن قلبي يخرب بأكل طعامهم فلا يصح لي بعد ذلك توجه إلى الله تعالى في قضاء حوائجهم لأن مقامهم في الكسب لا يخلو من غش أو محاباة أو بيع على أحد من الظلمة وأعدائهم ونحو ذلك ، فإذا أكلت من طعامهم صرت في التوجه إلى الله تعالى كأحدهم في غلظ الحجاب فضروني وضروا أنفسهم ، ومنها أنه ربما يترتب على مخالفتي لما أراده بعضهم نفرة خاطره مني فلا ينقاد لنصحي له بعد ذلك ، ومنها أني إذا قبلت من أحدهم إحساناً من طعام أو كسوة يصير عنده دلال على فلا يخاف من مخالفتي بعد

ذلك فيما أنصح به وأشير به عليه ، فيقل نفع الصحبة بيني وبينه ، ومنها أن من أكل من قصعة رجل وهو غير معصوم ذل له ، وإذا ذل له فقد فتح باب عدم المبالغة في نصحه وكثرة مسامحته في فعل يراه يضره في دينه ، ، ، وما من الله تبارك وتعالى به على : حمايتي من الأكل من طعام شفعت فيه شفاعتي وقبلت عند أحد الولاة أو قبول هدية على ذلك ، ، ، وما من الله تبارك وتعالى به على : كراهتي لقبول شيء من هدايا الولاة والعمال إلى أو لإخواني ، ، ، وما من الله تبارك وتعالى به على حمايتي من الأكل من صدقات الناس وزكواتهم مادمت أجد عندي ما يسد الرمي ، إلا أن تكون الصدقات عامة كالأوقاف مثلا فلي الأكل منها إذا كنت بصفة المستحقين لذلك الوقف ، ، ، وما من الله تبارك وتعالى به على : صحة توجهي إلى الله تبارك وتعالى في دفع الدنيا عني كما إذا بلغني مثلا أن شخصا أوصى لي بمال ، فأتوجه إلى الله تبارك وتعالى في دفعه عني فيدفعه عني ويلهم صاحب الوصية أن يحوإسمي ويكتب اسمي غيري أو تشح الورثة على بتلك الوصية وينكرونها بعد أن أكون قد أسقطت حق فيها ، ، ، وما أنعم الله تبارك وتعالى به علي : عدم إعلامي المعارف بما أريد أن أصنعه من وليمة عرس أو ختان أو سلامة من مرض ونحو ذلك خوفا أن أحدا منهم يتكلف ويساعدني في ذلك الطعام من غير نية صالحة ، ، ، وما أنعم الله تبارك وتعالى به علي : تقديم زاوية غيري على زاويتي إذا شاورني أحد في وقف شيء على الفقراء ، لأن كل إنسان مأمور بالنصح للأمة ، فليس له أن يقدم نفسه بصدقة إلا إن كان أحوج إليها ، ومن قدم نفسه من غير أن يكون أحوج فقد غش وخرج عن الشريعة ، ، ، وما من الله تبارك وتعالى به علي : نفرتي من كثرة اعتقاد أحد من الأمراء والولاة وغيرهم في أوإن وقع أن أحدا مدخني عند أمير أو وال حتى رفعتي فوق جميع أقراني ، توجهت إلى الله تبارك وتعالى أن يحرك لي أحدا من الأعداء فينقصني عنده وسألت الله تبارك وتعالى أن يحول باطنه عن الاعتقاد في حتى لا يصير يلتفت إلى بوجه من الوجوه ، وذلك فتحا لباب الراحة لنفسي ، ، ، وما من الله تبارك وتعالى به علي : عدم قبول هدية — أو ثناء — علي دعاء دعوت به للمريض فشفاه الله تعالى بعد ذلك

ولو كان من عادته أن يهdy إلى قبل ذلك تركت قبولها بعد ذلك ، لأنى لست على يقين من قبول دعائى حتى آخذ عليه أجرة ، وإن وقع الشفاء فليس هو بدعائى حتما وإنما ذلك لانتهاؤ مدة المرض ، ثم بتقدير أن الحق تعالى أجاب دعائى فلا آخذ على ذلك أجرا فى الدنيا ، ، ووما من الله تبارك وتعالى به على : نفرقتى بالطبع ممن يقبل يدى لاسيما فى المحافل أو يمشى معى إلى الباب إلا لغرض شرعى ، ، ووما من الله تبارك وتعالى به على : فرحى بكل شيخ أو واعظ برز فى حارتى وصار يلتقط أصحابى الذين كانوا حولى واحدا بعد واحد حتى لم يبق لى منهم حولى واحد ، وهذا الخلق أكمل أخلاق الرجال ولا يصح ذلك إلا لمن فئت رعونات نفسه أو لمن حصلت له جذبات إلهية أدخلته حضرة العبودية الخالصة فشهد أن الحق تبارك وتعالى هو الذى أبرز هذا الشيخ^(١) .

(٧) هذا ولا يستطيع الباحث ولا يستطيع المصلح أن يشكر لرؤساء الصوفية ظاهرتين خطرتين : الظاهرة الأولى أن الكثير منهم جاهل كل الجهل بأحكام الدين ومع ذلك يعمد إلى تفسير القرآن برأيه وإلى الفتاوى الضالة المضلة حتى عمد الكثير منهم إلى اتباع أمور خارجة كل الخروج على الدين بل ذهب بعيداً إلى حد الكفر الصريح ، وإن فى تحديد بعضهم الصلة بين الشيخ والمريد وبين المريد وإخوانه ، للتحديد المخزى الآثم ! يعمد بعضهم إلى ما يسمونه ذكرا فيخلطون فيه بين الرجال والنساء والغلمان وفى غرف مظلمة وما معهم من طبول ومزامير للشيطان منكورة ، وما فى حناجرهم من أصوات وعبارات للوجد والحب يحملها كل من الجالسين محمله ! فيتواجدون وما عرفوا الوجد ، ويتعابثون وهم فى دعاوى الشطح مع الجلافة وتغلب الشهوات تصدر منهم آهات مستهجنة ويتراقصون ويتمايلون ويزعمون أن هذا لله وما هو الله ولا بالذكر الشرعى !

ففى هذه الظاهرة الخطرة خلط بين عمل صالح وعمل سيئ وفيه مافيه من إدخال الشهوات فى العبادة ، وهذا لا يجوز ، لأن العبادة ذل وخضوع ومحبة لله ،

وهنا لا مظهر للذل ولا للخضوع له ، وعملهم ليس بحجة لله إلا في الظاهر ، وخطر هذه الظاهرة التلييس على الناس وخداع فئة كبيرة بسيطة ساذجة في دينها وإيذاء لها في عقيدتها وقدح للعقيدة في نفسها إذ تدفع الغير مسلمين إلى الظن بأن هذا هو الإسلام وهذا هو ذكره ومظهره الروحاني !

ولا تقل انظاهرة الثانية عن الظاهرة الأولى بل فيها معاني الشرك الظاهر والحقى وهى أن المشايخ يسيطرون على مريديهم ويفهمونهم بأنفسهم وبدعائياتهم أنهم يستطيعون بالحال أن يجدوا لهم عملاً إذا تعطلوا أو يشفواهم إذا مرضوا ، وهم بهذا يوهمونهم أن القرب من الشيخ قرب من الله والبعد عنه بعد من الله ، ونتيجة هذا استغلاهم ماديًا حتى أن بعضهم يقدم (المعلوم) لشيخه وأولاده يتضاوون جوعاً وحتى افتقر الكثير من أتباعهم فظنوا أن الصلاح مهواة ومفقرة ، وما هكذا الدين وما هكذا العقيدة السليمة والعبادة الخالصة لوجه الله !

هذا على أن الكثير من هؤلاء المشايخ يعطى المثل الأدنى في الصغر الخلق ، على ادعاء الولاية والتبجح بهذا الادعاء حتى أنه ليطلب منك أن تقبل يده طلباً صريحاً أو ضمناً بمد يده إلى شفئك ، ولو درى المسكين أنه بهذا يصغر نفسه ويكشف جهله وادعاءه ما فعله ، ولو عرف مريدوه حقيقة نفسه ما تبعوه ، ولكن الغرور خيم عليه ، والجهل أسدل عليهم سدوله ، فظن وظنوا أنهم مخلصون في العبادة لله ، وشاب وشابوا عبادتهم الرباء وحب الجاه والمال من شيخهم ، ومنهم من ظن أن شيخهم يقربهم إلى الله زلفى !

روى كعب بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما ذئبان جائعان أرسلا في زريبة غنم بأفسد لها من حرص المرء على الشرف لدينه ، وبذا بين النبي الكريم أن الحرص على المال والشرف في فساد الدين لا ينقص عن فساد الدئبين الجائعين لزريبة الغنم ، فالدين السليم لا يكون فيه هذا الحرص ، فأمثال هذا الشيخ ضعيف الدين ، وطاعة مثل هذا الشيخ ومحبة والاعتقاد فيه إضعاف للدين ، وإنما المحبة لله والعبودية لله والطاعة لله وحده

لا شريك له ، ولا محبة لشيء . أو لإنسان جائزة ، إلا إن كانت لله وفي سبيل الله ولوجهه الكريم ^(١) .

هذا وقد كان الإمام على الخواص رحمه الله تعالى يقول : لا تفرحوا بما تعطونه من الأحوال والكرامات والعلوم والمعارف حتى ينكشف لكم الغطاء عن هذه الأمور ، هل هي بطريق الاستحقاق لكم أو بطريق الوعد وحسن الظن فقط ^(٢) ، مع أن الشعراني تحدث عن أن الله سبحانه وتعالى من عليه بالطواف في كل ليلة في جميع أقطار الأرض بأن يشير بأصبعه إلى أزقة جميع المدائن والقرى والبراري والبحار وهو يقول الله .. الله .. ثم يقول : « سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين » ، وقال : « وما أرجع إلى داري بمصر إلا وأنا ألهث من شدة التعب كأنما كنت حاملاً حملاً عظيماً » وقال : « وكان ابتداء حصول هذا المقام لي أن رأيت نفسي في محفة طائرة فطارت بي سائر أقطار الأرض » ^(٣) ، إلا أنه كان يقول : « من يعلم صحة شرعه ، فكرامته الاستقامة على الشريعة » ^(٤) وكان يعد ركون العبد إلى غير الله تبارك وتعالى من مقام أو حال إشراكاً ^(٥) ويقول : « الأكابر من الأنبياء والأولياء وكمل المؤمنين لا يرجعون في أمورهم إلا الله وحده » ^(٦) ، « وما من الله تبارك وتعالى به على : تعولى في الشدائد كلها على الله تبارك وتعالى فإن يده تبارك وتعالى ملكوت كل شيء » ويرى أن القريب من حضرة الله تبارك وتعالى لا يحتاج إلى أحد من الخلق ، وأن الذي يلجأ في قضاء حاجته إلى بعض الأحياء والأموات وبطرق تواريت المشايخ إنما هو الذي يحس بنفسه أنه بعيد من الله تبارك وتعالى ^(٧) وكان يقول : « ما أنعم الله تبارك وتعالى به

(١) راجع ص ١٤٤ — ١٤٨ من وحى الأحاديث المحمدية الجزء الثاني لمحمود على قراءة .

(٢) راجع ص ٣٤٣ من المتن الكبير للشعراني .

(٣) راجع ص ١٤٤ من المتن الكبير للشعراني .

(٤) راجع ص ٩٠ من المتن الكبير للشعراني .

(٥) راجع ص ٩٣ من المتن الكبير للشعراني .

(٦) راجع ص ١٨١ من المتن الكبير للشعراني .

(٧) راجع ص ١٨٥ من المتن الكبير للشعراني .

على عدم طلبى أحدا يساعدنى على من آذانى من أرباب الأحوال بل أصبر وأحتسب ولا أقابل من آذانى بسوء ، وكان ينصح بالتوجه إلى الله تعالى فى كل أمر يصيبه وعدم اللجوء لأحد غيره ،^(١) وكان يقول: «مما من الله تبارك وتعالى به على : قضائى الحوائج عند الحكام من غير وقوع نقص فى دينى بسبب ذلك ، وذلك إذا كان لى حاجة عند الباشا فمن دونه ، أتوجه إلى الله عز وجل وأسأله أن يسخر لى ذلك الأمير فى قضاء تلك الحاجة ، فيصبح متهيئاً لذلك فأول ما يقرأ القصة أو يسمع كلام القاصد يقضى الحاجة لوقتها ،^(٢) ، ويقول نقل عن الجنيد رضى الله تعالى عنه قوله : العارفون لا يموتون وإنما ينقلون من دار إلى دار ، ومراد الجنيد أن العارفين لما جاهدوا نفوسهم فى حال سلوكهم حتى ماتت عن جميع تصرفاتها وشهدت التصريف لله وحده ، فكأنها ماتت فى حال حياتها لا يحكمها إذ ذاك حكم الأموات فى عدم إضافتها الفعل إلى نفسها ،^(٣) .

هذا ويعمد رجال الصوفية الآن إلى أن يعلم الشيخ مريديه شيئاً من خواص أسماء الله الحسنى ويأمره بأن يتلو الاسم الكريم كذا مرة ليحصل له الكشف ولتخدمه الروحانية وليحصل على كذا وكذا من خيرات الدنيا أو ليدفع عن نفسه كذا وكذا من شرورها ، ونرى أن الأغراض التى يرغبون تحقيقها من تلاوتهم ، إما أن تكون مادية أو معنوية أو خليطاً منهما ، والمعنوية منها إما أن تكون دنيوية كالرغبة فى الرفعة بين الناس أو دينية كطلب الغفران أو علو الدرجة فى الآخرة ، وهى فى كل هذه الصور لا تخرج عن أن تكون دعاء وللدعاء آدابه ومن آدابه عدم الخروج عن الأخذ بالأسباب التى أمر الله سبحانه وتعالى بها ، فالأمراض مثلاً قد بين الله سبحانه وتعالى طريق مداواتها إذا شاء باللجوء إلى الأدوية من الأعشاب وغيرها التى جعل الله تبارك وتعالى فيها خاصية الشفاء والتى ألهم سبحانه الأطباء منذ العصور الأولى إلى هذه الخاصة ، والتى كلما مرت

(١) راجع ص ٣٥٧ من المتن الكبير للشمرانى .

(٢) راجع ص ١٥٣ من المتن الكبير للشمرانى .

(٣) راجع ص ١٦٤ من المتن الكبير للشمرانى .

الأيام زادهم علما بها وبنسبها وبالمفاضلة بين مختلف خواصها بمختلف التجارب ، وكذلك قدر الله أنه لا نصر على الأعداء ما لم تستعد لهم ولا نجاح في امتحان ما لم تذاكر ولا سعة في الرزق ما لم تعمل وتكد وتكدح ولا وصول إلى الله ما لم نأتمر بأوامره ونجتنب نواهيه ١

ولذا أرى أنه يتنافى مع الأدب مع خالق الأسباب والمسببات ، أن نخرج على القوانين التي وضعها الله لخلقه ، وإلى أن نتلو من أسمائه الكريمة بعدد حدده الشيخ من عنده لم يأت به كتاب ولا سنة ولا رأى لصوفي كبير كالغزالي مثلا لغرض غير التلاوة مجردة عن أى غرض آخر ، لأن تلاوة أسماء الله الحسنى يجب أن تكون لقصد العبادة واللذة والمناجاة ، لا لغرض آخر قد يتحقق وقد لا يريد الله له الوقوع ، إما لعدم إحسان التوجه أو لعدم الأخذ بالأسباب التي أمر الله سبحانه بها^(١) .

(٨) بقي أمر فهم الناس فهما معكوسا وهو ما يسميه بعض الصوفية حمل بلايا الناس وأن من يصل لدرجة معينة من الصلاح يؤث قوة التصريف في الكون مع منافاة هذا الفهم للتوحيد الصحيح ، ومع ما يحمله كلامهم من نقض لهذه العقيدة الغريبة عقيدة أن للإنسان تصرفا في الكون ، من ذلك قول الشعراني : « لا يؤخذ الفقير من أصحاب النوبة ويسلب العالم إلا عند رؤية أحدهما نفسه على إخوانه أو غفلته عن الله تعالى^(٢) » ، وقوله : « قد أعطاهم الله تبارك وتعالى معرفة الخواطر التي تمر على قلوب أهل إدراكهم فضلا عن معرفة أعمالهم ومعاصيهم في قعر بيوتهم ، ولهم التأديب على كل زلة وقعت في إدراكهم لأن قوسهم وتور على الفساق وعلى الفقراء الغافلين عن الأدب مع الله تبارك وتعالى^(٣) » ، وقوله : « وقد أخبرني سيدى على الخواص رضى الله تعالى عنه أن شخصا تبع فقيرا من بلاد الشام إلى مصر يريد أن يقتله بالحال ،

(١) راجع ص ٤٥ — ٥٨ من الثقافة الروحية في كتاب إحياء علوم الدين للغزالي بقلم محمود على قراءة .

(٢) راجع ص ١٤٨ من المتن الكبير للشعراني .

(٣) راجع ص ١٤٦ من المتن الكبير للشعراني .

فلم يحده غافلا عن الله تبارك وتعالى في وقت ، فاجتمع هو وإياه مع الفقراء في جامع عمرو آخر جمعة من رمضان فوجده غافلا فطعنه فمات ، وقوله « وحكى لي سيدي محمد الشناري رضي الله تعالى عنه عن سيدي محمد بن هرون أنه مر على صبي قراد وهو ماد رجله فقال الشيخ في نفسه إن هذا الصبي قليل الأدب يمر عليه مثلي ولم يضم رجله ، فسلب لوقته حتى صار لا يعرف الفاتحة ، وإن كان يكنى الغرابة في قوله ما ذكره بعد إذ قال : « إياك يا أخى ورؤية نفسك على أحد من المسلمين إلا بطريق شرعى خال من الكبر ، فإن كل من رأى نفسه على أحد فقد تعرض للسلب » (١) !

والأغرب من ذلك قول الشعراني : « مما من الله تبارك وتعالى به على أن أعانني على الاحتماء من الذنوب وتناول الشهوات أيام تحملي البلاء عن الإخوان ، ثم قوله « وللتحمل والاحتماء شروط :

(أولها) أن يتحمل بوصف الذل والانكسار والفاقة فلا يرى له شغوف نفس على أحد من المسلمين ولا يكون معتمدا على أحد غير الله تبارك وتعالى حتى أنه لا يدبر قط حيلة في قضاء تلك الحاجة !

(ثانيها) كثرة الملازمة والوقوف في المواكب الإلهية ليلا ونهارا ، وذلك بين الأذان والإقامة وحين يدخل نصف الليل الثاني !

(ثالثها) صدق التجاء صاحب الحاجة إلى الفقير !

(رابعها) أن يأمر المتحمل صاحب تلك المصيبة مثلا بكثرة الاستغفار حتى تخف العقوبة !

(خامسها) أن يرى ذلك المعزول مثلا أن الله تبارك وتعالى قد جعل بيد ذلك الفقير الولاية والعزل ، ليتوجه قلبه إلى ذلك الفقير جزما من غير تردد ! (سادسها) أن لا يقبل الفقير الحامل من المحمول عنه هدية ولا يأكل له طعاما ليكون قلبه متوجها إلى الله تبارك وتعالى في حقه خالصا ، ومتى قبل منه شيئا بطل توجهه وخرب باطنه وتوقف قضاء حاجته !

(١) راجع ص ١٤٨ من المنى الكبرى للشعراني .

(سابعها) كف جوارحه الظاهرة والباطنة عن كل محرم ومكروه خلاف الأولى أو خطور ذلك على باله !

(ثامنها) عدم تناول شيء من شهوات النفس المباحة فضلا عن المكروهة فضلا عن المحرمة ، لأن تناول هذه الشهوات يعمى البصيرة ويمنع من دخول حضرة الله تبارك وتعالى !

(تاسعها) أن لا يفطر أيام التحمل ، بل يكون صائما ليستنير قلبه !

(عاشرها) أن لا يكون الفقير الذى يتحمل قد خرق بصره إلى الدار الآخرة فإن من خرق يبصره كذلك تصيره همته فاترة ، فإذا اطلع على ما فى ذلك البلاء من الأجر والثواب فتصير كل شعرة منه تطلب دوام ذلك البلاء على ذلك السائل ، وأن يعمل الفقير على الوصول إلى مقام التخلق بالرحمة^(١) ، وقوله : « كان سيدى على الخواص رضى الله تبارك وتعالى عنه يقول كم من كامل لا تصريف له وكم من ناقص بالنسبة إليه يتصرف فى الوجود ليلا ونهارا » ، وقوله : « كان الشيخ محي الدين بن العربى رضى الله تبارك وتعالى عنه يقول إن الشيخ أبا السعود بن الشبل أعلى مقاما من شيخه الشيخ عبد القادر الجيلانى رضى الله تعالى عنهم لأنه عرض عليه مقام التصرف فأبى وقال قد تركنا الحق تبارك وتعالى يتصرف لنا ، والشيخ عبد القادر عرض عليه مقام التصريف فتصرف وكان الأولى له أن يتركه حتى يؤمر بالتصريف فهناك يتصرف بأمر » ، وقوله : « سمعت سيدى عليا الخواص رضى الله تعالى عنه يقول إياكم أن تسألوا فى حوائجكم الأولياء الذين ماتوا فإن غالبهم لا تصريف له فى القبر » ، وأما غير الغالب كالإمام الشافعى والإمام اللبثى وسيدى أحمد البدوى رضى الله تعالى عنهم فربما جعل الله تبارك وتعالى لهم التصريف فى قبورهم بحسب صدق من توجه إليهم » ، وقوله : « قد استدارت أبواب جميع الأولياء رضى الله تعالى عنهم إلى الغلق وما بقى مفتوحا إلا باب سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم وزاده فضلا وشرفا لديه » ، فمن كان له حاجة فليصل على

النبي صلى الله عليه وسلم ألف مرة بتوجه تام ثم يسأله في قضاء حاجته ، فإنها تقضى إن شاء الله تعالى ! وقوله : « وما أنعم الله تبارك وتعالى به على : إلهامى لأن آتى إلى قضاء الحوائج من أبوابها التى جعل الله تبارك وتعالى لها ، فإذا قضيت من الأدنى لا أسأل الأعلى أدباً معه ، وذلك لأنى أسأل فيها أصحاب النوبة ، أصحاب النوبة أولاً فإن لم تقض على يدهم ، توجهت إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فإن لم تقض توجهت إلى الله عز وجل ! فإن لم تقض أكثر من الاستغفار وعلمت أن المحل ما هو قابل أو أن من سألنى لا يستحق قضاء الحاجة ، ، وقوله : « اعلم يا أخى أن أصحاب النوبة الآن فى مصر وذلك سنة ستين وتسعمائة — سبعون رجلاً وهم معروفون فى بيوت الحكام ، فلا يوجد حاكم إلا وعنده واحد منهم أو أكثر ، فإذا دخلت يا أخى إلى حاكم فى حاجة فتوجه بقلبك إلى صاحب النوبة فى داره واسأله أن يعطف قلب ذلك الحاكم عليك فإنه يفعل إن شاء الله تعالى ، ومن لم يتوجه إليه فربما عارضه فى حاجته عند ذلك الحاكم وقسى قلبه عليه لسوء أدبه ^(١) !

وأقول إن هذا كله لا يجوز ، والذي أفهمه كسلم أن يتوجه العبد لقضاء حاجته لربه وأن يفرغ قلبه من الشهوات الدنيا ليكون مقبولا عنده ثم يدعو بما يشاء ويختتم دعاءه بالصلاة والسلام على رسوله الكريم كأى دعاء آخر ، أما القول بأن فلاناً فى حياته أو بعد موته يتصرف فأشراك لا يقبله عقل المسلم الحق ولا قلبه ، وكذلك القول بأن للتصرف نوبات وأهلاً إذ لا يتصرف فى الكون إلا الله !

(٩) سوء فهم أغراض الدين أو فهم معانى الأحاديث ، فقد كان نبينا الكريم يأمر الناس أن يأخذوا بما يأمر به فى دينهم لأنه موحى له به من ربه ، أما ما يشير عليهم به كراى من آرائه فلهم أن يأخذوا به كراى بشر ، فعن رافع بن خديج رضى الله عنه ، قال : قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وهم يأبرون النخل ^(٢) ، فقال ما تصنعون ؟ قالوا شيئاً كنا نصنعه ! فقال لعلمكم

(١) راجع ص ١٥٢ من المتن الكبير للشعرانى .

(٢) تأبير النخل : تلقيحه وإصلاحه .

لو لم تصنعوه لكان خيرا ، فتركوه فنفضت^(١) فذكر له ذلك ، فقال إنما أنا بشر إذا أمرتكم بشيء من أمر دينكم فخذوا به ، وإذا أمرتكم بشيء من رأيي فإنما أنا بشر ، فمن ذلك ما وصفه عليه الصلاة والسلام من الأدوية لأدواء الأجسام وهو أمر دنيوى له أطباؤه ، فإنه صلى الله عليه وسلم وقد بعث لطلب الأرواح ولمداواة النفوس إنما تعرض له من ناحيته الدينية وليبين للناس أن لكل داء دواء ، فعن أبي الدرداء رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله تعالى أنزل الداء والدواء وجعل لكل داء دواء فتداووا ولا تتداوا بحرام ، على أن نبينا الكريم إنما تحدث عن الأمور الطبية بصفة عامة كأمره بعدم إكراه المرضى على الشرب والأكل والتلطف في ذلك معهم ، لما في إكراههم عليه من مشقة نفسية عليهم قد تزيد في مرضهم ، وكأمره باتباع المبادئ الصحية العامة كاتباع المريض والناقه الحية وكحديثه عما يراه في بعض الأدوية كالحبة السوداء والعجوة والعسل الأسود وعسل النحل في التقوية العامة والحناء في القرحة والتبريد بالماء في الحمى وكتسهيل البطن بالشبرم والسنا وكالحجامة في بعض الأمراض ، وهى أمور عامة من حمية وإشارة ببعض وصفات عامة جربها النبي الكريم تخفف وطأة المرض أو تحول دون استفحاله ، وهى لا تعدو أن تكون رأيا فى أمور دنيوية لا إثم على المسلم إذا لم يتداو بها — كأن تداوى فى القرحات بالمراهم لا بالحناء — فله أن يأخذ بها أو لا يأخذ لأن الأخذ بها أو عدم الأخذ بها ليس من أموره الدينية ! على أنه لا يمكن الأخذ بها إطلاقا ، لأن المعروف أن كل وصفة خاصة بالدواء ، إنما تخص الداء الخاص مرتبطة بحالة المريض العامة وحالة نزول المرض من شدة أو ضعف ، مع مراعاة تطور مضاعفات المرض أو ما يعترى المريض من تغيرات مختلفة فى سرعة النبض أو بطئه وشدة التنفس ودرجة هذه الشدة وما يعترى القلب من هبوط أو ضعف ، وهذه أمور تختلف باختلاف الحالات وتتغير الوصفات فيها بتغير العوارض ، وهذه تعوزها المشاهدة والملاحظة وتقدير كل حالة على حدها ،

(١) نفخت الشجرة حملها إذا ألقته من آفة بها .

ولذلك أرى أن رجال الحديث الشريف عندما أوردوا أحاديث وصفات الأدوية التي وصفها نبينا الكريم ، إنما ذكروها كرواية لحالات خاصة وصف النبي لها دواءها ، ويجب أن يراعى فيها أنها كوصفات ناجحة ، قاصرة على حالات المرض الخاصة التي أوصفها لها النبي الكريم ، فمن ذلك حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه إذ قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال إن أخي استطلق بطنه ! فقال اسقه عسلا ! فسقاه ثم جاءه فقال : إني سقيته عسلا فلم يزد إلا استطلاقا ! ثلاث مرات ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : صدق الله وكذب بطن أخيك ، فسقاه فبرأ ، فأنا أعتقد أن النبي الكريم إن كان يشير لعسل النحل فإنما يشير إلى الآية الكريمة « ثم كلى من كل الثمرات ، فاسلكي سبل ربك ذللا ، يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه ، فيه شفاء للناس » ، وإن كان يشير إلى عسل القصب ، فقوائد عسل القصب لا تخصي ، ولكننا نتوقف إذ لم يذكر رجال الحديث نوع الاستطلاق ولا حالة المريض من شدة أو خفة ولا الكمية التي أشار النبي الكريم إليها ولا الحالة التي يشفي العسل بها هل بحالته الكثيفة أم مخفقا بالماء ! كذلك الحديث المروي عن ابن عمر رضي الله عنهما حيث قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « علني جبريل دواء يشفي من كل داء وقال نسخته من اللوح المحفوظ ! تأخذ من ماء المطر الذي لم يجر على سقف في إناء نظيف فتقرأ عليه فاتحة الكتاب سبعين مرة وآية الكرسي مثله وسورة الإخلاص مثله وقل أعوذ برب الفلق مثله وقل أعوذ برب الناس مثله ولا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير ، ثم تصوم سبعة أيام وتفطر كل يوم بذلك الماء » فإن هذا الحديث يفيد اللجوء إلى المداواة الروحية ، وهذه المداواة لا تتوفر إلا لمن توفرت فيه المعاني الروحية من اللجوء الصادق لله والاستقامة والخروج عن النزوات الدنيوية ، وأخشى أن يلجأ جاهل ممتلئ قلبه بماديات الحياة وهو خلو من الروحانية ، إلى مثل هذه المداواة ، فيخفق فيها ، لخفوقة في معرفة توفر شروطها ، فيؤدي ذلك إلى فتنه في دينه أو إلى فتنه أمثاله ! . . . وكذلك يقال في حديث الحمي في رواية للترمذي

عن ثوبان رضى الله عنه ، إذا أصاب أحدكم الحمى ، فإن الحمى قطعة من النار ، فليطفئها عنه بالماء ، فليستنقع في ماء جار وليستقبل جريته فيقول بسم الله ، اللهم اشف عبدك وصدق رسولك ، وذلك بعد صلاة الصبح قبل طلوع الشمس وليغمس فيه ثلاث غمسات ثلاثة أيام ، فإن لم يبرأ في ثلاث فخمس فسبع فتسع ، فإنها لا تجاوز ذلك بإذن الله تعالى ، فإنه لى يتداوى من الحمى بهذا الشكل يجب معرفة نوع الحمى الذى يتداوى به ومقدار الماء الذى يغمس فيه وقدر الوقت الذى يحصل فيه الانقراض ، وكل هذا لم يبينه راوى الحديث ، على وجوب توفر صدق التوجه إلى الله لأن فى الدواء دعاء وصدق التوجه لا يتوفر لكل مريض ، فلذلك أرى أن يحمل هو والحديث الثانى على أنه كان خاصا بالذى قيل له ، ثقة الرسول باستقامته وقدر روحانيته .

والمعروف أن النبى الكريم كان ينهى عن الرقى والتمايم ، فعن ابن مسعود رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إن فى الرقى والتمايم والتولة^(١) شركا ، وعن عيسى بن حمزة قال : دخلت على عبد الله بن عكيم رضى الله عنه ، وبه حمرة فقلت : ألا تعلق تيممة فقال : نعوذ بالله من ذلك ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من تعلق شيئا وكل إليه ! ولكن ما القول فيما ورد عن إجازة النبى الكريم لبعض الرقى ؟ نجد أن النبى الكريم إنما سمح بالرقى التى ليس فيها إشراك باعتبار أنها دعاء ، ثم أذن بريقة اللدغة لاسيما وفيها يمض الرقى موضع اللدغة لإخراج السم منها بفيه ويربط الجزء القريب منها ، وفى هذا حصر للسم وإخراج له واتباع للبادى العامة المتبعة فى اللدغة ، وكذلك سمح بالرقى من عين الإنسان لإخراج السم الروحى الذى سلطته العين الحاسدة على المحسود بالتعوذ منها ، وكذلك التعوذ من الجان ومن إضرارهم ، وفى هذا كله يتعوذ الرقى بها من شرور الحشرات والجنة .

لكن ما القول فيما ورد عن لجوء النبى الكريم من للرقى فى الأمراض الحقيقية المادية التى تصيب الجسم ؟ من ذلك أن أبا الدرداء رضى الله تعالى عنه

(١) التولة بكسر التاء وفتح الواو : ما يغيب المرأة الى زوجها من أنواع السحر .

قال : إنه اشتكى إليه رجل احتباس البول فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من اشتكى منكم شيئا فليقل : ربنا الله الذى فى السماء تقدس اسمك ! أمرك فى السماء والأرض . . كما رحمتك فى السماء فاجعل رحمتك فى الأرض ! واغفر لنا حوبنا وخطايانا أنت رب الطيبين ، فانزل شفاء من شفائك ورحمة من رحمتك على هذا الوجع فبرأ ، وأمره أن يرقه به فرقا فبرأ ، !

تجد من ذلك أن الرقى الواردة إنما لخاصية فى نفس الراقى وعلى هذا تحمل إما على أنها خاصة بالرسول أو خاصة بالمقولة له ، وهى على كل حال ليست غير دعاء الله سبحانه وتعالى أن يشفى المريض وأن يذهب عنه ما ألم به ، والله عز وجل يجيب الداعى إذا شاء فيشفى المريض ، كما أنه يشفيه إذا أخذ بأسباب الدواء المسمى إن قدر له الشفاء ، ولكن لما كان الله سبحانه وتعالى قد أودع فى الدواء النبأى أو الحيوانى خاصية الشفاء وأظهر لنا هذه الخاصية بتجارب الناس وبايقاف الأطباء عليها ، ولم يودع فى كل النفوس خاصية القبول وأخفى عنا معرفة من وهبه هذه الخاصية من الخلق العاديين ، فلا علينا إذا أخذنا بالأسباب التى أظهرها الله سبحانه وتعالى لنا ، بل ان ذلك أسلم لديننا ومبعدا لنا عن الفتنة فيما إذا دعونا بدعوات الشفاء ، ولم يرد الله الشفاء لنا^(١) .

(١٠) غلط من انبسط فى دعوى المحبة : يقول ابن تيمية إن المحبة لله تحقيق عبوديته ، وإنما يغلط من يغلط فى هذه من حيث يتوهمون العبودية مجرد ذل وخضوع فقط لا محبة ، أو أن المحبة انبساط فى الأهواء أو إبدلال لا تحتمله الربوبية ، كما غلط من انبسط فى دعوى المحبة حتى أخرجه ذلك إلى نوع من الرعونة التى تنافى العبودية وتدخل العبد فى نوع من الربوبية التى لا تصلح إلا لله ، وهو شبهه بقول اليهود والنصارى « نحن أبناء الله وأحباؤه » قال الله تعالى : « فلم يعذبكم بذنوبكم ، بل أتم بشر من خلق ، يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء » فإن تعذيبه لهم بذنوبهم ، يقتضى أنهم غير محبوبين ولا منسويين إليه نسبة النبوة ، بل يقتضى أنهم مربوبون مخلوقون ، فمن كان الله يحبه استعمله فيما يحبه ، ومحبوه لا يفعل

(١) راجع ص ٩٦ — ١١٣ من وحى الأحاديث المحمدية الجزء الثانى لمحمود على قراءة .

ما يبغضه الحق ويسخطه من الكفر والفسوق والعصيان ، ومن فعل الكبائر وأصر عليها ولم يتب منها ، فإن الله يبغض منه ذلك كما يحب منه ما يفعله من الخير . إذ حبه للعبد بحسب إيمانه وتقواه ، ومن ظن أن الذنوب لا تضره لكون الله يحبه مع إصراره عليها ، كان بمنزلة من زعم أن تناول السم لا يضره مع مداومته عليه وعدم تناوئه منه بصحة مزاجه ، ولو تدبر الأحق ما قص الله في كتابه من قصص أنبيائه وما جرى لهم من التوبة والاستغفار وما أصيبوا به من أنواع البلاء الذى فيه تمحيص لهم وتطهير بحسب أحوالهم ، علم بعض ضرر الذنوب بأصحابها ولو كان أرفع الناس مقاما ، فإن الحب للخلق إذا لم يكن عارفا بمصلحته ولا مريدا لها بل يعمل بمقتضى الحب وإن كان جهلا وظلما ، كان ذلك سببا لبغض المحبوب له ونفوره عنه ، بل لعقوبته ، ولهذا أنزل الله المحبة محبة يمتحن بها المحب فقال : « قل إن كنتم تحبون الله ، فاتبعوني يحببكم الله ، فلا يكون محبا إلا من يتبع رسوله ، وطاعة الرسول ومتابعته تحقيق العبودية ، وجعل الله محبته تعالى ومحبة رسوله الجهاد فى سبيله ، والجهاد يتضمن كمال محبة ما أمر الله به وكمال بغض ما نهى الله عنه ، ولهذا قال فى صفة من يحبهم ويحبونه : « أذلة على المؤمنين ، أعزة على الكافرين ، يجاهدون فى سبيل الله ، ، ولهذا كانت محبة هذه الأمة أكمل من محبة من قبلها وعبوديتهم أكمل من عبودية من قبلهم !

ولقد ذكر ابن تيمية رضى الله عنه أن كثيرا من السالكين سلكوا فى حب الله أنواعا من أمور الجهل بالدين إما من تعدى حدود الله وإما من تضييع حقوق الله وإما من ادعاء الدعاوى الباطلة ، كقول بعضهم : أى مرید لی ترک فی النار أحداً فأنا منه برىء ، فقال الآخر : أى مرید لی ترک أحدا من المؤمنين يدخل النار فأنا منه برىء ، فقال ثالث : إذا كان يوم القيامة نصبت خيمتى على جهنم حتى لا يدخلها أحد ، وهى أقوال إما كذب عليهم وإما غلط منهم ، ومثل هذا يصدر فى حال سكر ، ولهذا كان بين هؤلاء من إذا صحا استغفر من ذلك الكلام^(١)

ويقول بعض المشايخ : المحبة نار تحرق في القلب ما سوى مراد المحبوب ، وأرادوا أن الكون كله قد أراد الله وجوده فظنوا أن كمال المحبة أن يحب العبد كل شيء حتى الكفر والفسوق والعصيان ، فرد عليهم ابن تيمية بأنه لا يمكن أحدا أن يحب كل موجود ، بل يحب ما يلائمه وينفعه ويغض ما ينافيه ويضره ، وأصل ضلالهم أن هذا القائل الذي قال إن المحبة نار تحرق ما سوى المحبوب ، قصد بمراد الله تعالى الإرادة الشرعية الدينية التي هي بمعنى محبته ورضاه ، فكأنه قال : تحرق من القلب ما سوى المحبوب لله وهذا معنى صحيح ، فإن من تمام الحب أن لا يحب إلا ما يحبه الله ، فإذا أحببت ما لا يحب ، كانت المحبة ناقصة ، وأما قضاؤه وقدره فهو يغضه ويكرهه ويسخطه وينهى عنه ، فإن لم أوافق في بغضه وكرهه وسخطه ، لم أكن محبا له بل محبا لما يغضه ، فدين الحق هو تحقيق العبودية لله بكل وجه وهو تحقيق محبة الله بكل درجة ، وبقدر تكميل العبودية تكمل محبة العبد لربه ، وبقدر نقص هذا يكون نقص هذا ، وكلما كان في القلب حب لغير الله ، كانت فيه عبودية لغير الله بحسب ذلك ، وكلما كان فيه عبودية لغير الله ، كان فيه حب لغير الله بحسب ذلك .

ويقول ابن تيمية إن هؤلاء استفادوا بهذا الضلال اتباع أهوائهم ، فهم يحبون ما يهوونه كالصور والرئاسة وفضول المال والبدع المضلة زاعمين أن هذا محبة لله ، وأن الكثير من الخطئين الذين اتبعوا أشياء في الزهد والعبادة ، وقعوا في بعض ما وقع فيه النصارى من دعوى المحبة لله مع مخالفة شريعته ، فيجعلون متبوعهم شارعين لهم دينا كما جعل النصارى قسيسهم ورهبانهم شارعين لهم دينا ، ثم انهم ينقصون العبودية ويدعون أن الخاصة يتعدونها كما يدعى النصارى في المسيح ، ويثبتون للخاصة من المشاركة في الله من جنس ما تثبته النصارى في المسيح وأمه ، مع أن القرآن الكريم ينص على أن عقيدة المسيح هي التوحيد الكامل « وإذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله ، قال سبحانك ما يكون لي أن

(١) راجع ص ٣٢٣ من فتاوى ابن تيمية المجلد الثاني .

(٢) راجع ص ٣٢٤ من فتاوى ابن تيمية المجلد الثاني .

أقول ما ليس لي بحق : إن كنت قلته فقد علمته ، تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك ، إنك أنت علام الغيوب ، ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم ، وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم ، فلما توفيتني ^(١) كنت أنت الرقيب عليهم ، وأنت على كل شيء شهيد . .

ولقد نزل على السيد المسيح عليه السلام كتاب هو الإنجيل مصدق للتوراة ومحى لشريعتها شريعة العبودية لله وحده ومبشر برسول من بعده اسمه أحمد الذي نزل عليه القرآن كتاب التوحيد الكامل أيضا ، قال الله تعالى : « وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون » ولقد ذكر القرآن الكريم مريم أم عيسى عليهما السلام ، فقص خبر الحمل بها وولادتها وتربيتها في سورة آل عمران ، فيقول الله تعالى : « إذ قالت امرأة عمران رب إني نذرت لك ما في بطني محررا فتقبل مني إنك أنت السميع العليم ، فلما وضعتها قالت رب إني وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت ، وليس الذكر كالأنثى ، وإني سميتها مريم ، وإني أعيذها وذريتها من الشيطان الرجيم ، فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبأها نباتا حسنا ، وكفلها زكريا ، كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا ، قال يا مريم أنى لك هذا ، قالت هو من عند الله ، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب . .

وخاطبتها الملائكة وهي الأرواح الطاهرة باجتماع الله لها ، إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين ، يا مريم اقتني لربك واسجدي واركعي مع الراكعين ، ، ولقد كان ذلك الاصطفاء هو اختيار الله لها لأن تكون أما لمن يولد من غير نطفة آدمية ، فأرسل الله لها ملكا تمثل لها بشرا سويا ، قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا ، قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا ، قالت أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا ، قال كذلك قال ربك هو على هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا ، فحملته فانتبذت به مكانا قصيا ، فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة ، قالت ياليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا . .

(١) والمسيح عليه السلام لم يصلب ولكن شبه على القوم لقوله تعالى : « وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم » ، وقوله تعالى : « ما تملوه يقينا ، بل رفعه الله إليه » .

ولما ولدته وخرجت به على القوم ، كانت المفاجأة داعية الإتهام ، وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً ، فأشارت إليه ، قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبياً ، قال إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً وجعلني مباركاً أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً ، وبرأ بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقياً ، والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً .

فكان إيجاده بروح من الله كما قال تعالى « والتي أحصنت فرجها ، فنفخنا فيه من روحنا ، وجعلناها وابناً آية للعالمين » ، وقد أكرم الله المسيح عليه السلام بمعجزات ذكرها القرآن الكريم تتلخص في خمسة أمور ، جاء ذكر أربعة منها في سورة المائدة في قوله تعالى : « إذ قال الله ياعيسى بن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك ، إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس في المهد وكهلاً ، وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذني ، وتبرئ الأكمه والأبرص بإذني ، وإذ تخرج الموتى بإذني » ، إلى قوله تعالى : « إذ قال الحواريون ياعيسى بن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء ، قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين ، قالوا نريد أن نأكل منها ونطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين ، قال عيسى بن مريم : اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين ، قال الله إني منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإني أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين » . والمعجزة الخامسة ذكرت في سورة آل عمران وقد ذكرها الله تعالى حاكياً عنه « وأنبئكم بما تَأْكُلُونَ وما تدخرون في بيوتكم ، إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين » .

« ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذي فيه يمترون ، ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه ، إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون » .

وبذا ترى أن العبودية لله كاملة ولا يتعدها الخاصة إذ قال تعالى « يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ، ألا نعبد إلا الله ولا نشرك

به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله،^(١) ولذا كان الإنحناء الشديد من بعضنا لبعض في التحية لا يجوز^(٢)، وقد روى عن القاضي الباقلاني السفير بين المسلمين والروم الشرقيين (٥٤٠٣) ، لما عرف الامبراطور خبره وحمله من العلم وموضعه واعتقد أن القاضي لن يكفر له كما جرى رسم الرعية أن تقبل الأرض بين يديه ، احتالوا لذلك بأن جعلوا الاستقبال في حجرة لها باب لطيف لا يمكن أحد أن يدخل فيه إلا راكعا ، وجعلوا السرير وراء هذا الباب ليدخل القاضي راكعا فيكون ذلك عوضا عن تكفيره ، فلما ذهب القاضي — وكان سياسيا سريع الخاطر لبقا — سار حتى وصل إلى المكان فلما رآه فطن إلى القصة فأدار ظهره وحنى رأسه راكعا ودخل من الباب وهو يمشي إلى الخلف وقد استقبل الملك بظهره حتى صار بين يديه فرفع رأسه ونصب ظهره وأدار وجهه ، ولذا كان سريع الخاطر دينيا وعمليا^(٣) .

هذا وكل محبة لا تكون لله فهي باطلة ، وكل عمل لا يراد به وجه الله فهو باطل ، فالدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ما كان لله ، ولا يكون لله إلا ما أحبه الله ورسوله وهو المشروع ، فكل عمل أريد به غير الله لم يكن لله ، وكل عمل

(١) راجع ص ١ — ٢٢ من محاضرات في النصيرية للأخ الأستاذ الشيخ محمد أبي زهرة .
(٢) في الحديث « رأس العقل بعد الدين التودد إلى الناس واصطناع المعروف عند كل بر وفاجر » ولكن يجب معرفة أن الانحناء عند السلام منهي عنه لقول أنس رضي الله عنه ، قلنا يارسول الله أينحنى بعضنا لبعض ؟ قال لا ، قال فيقبل بعضنا بعضا ؟ قال لا ، قال فيصافح بعضنا بعضا ؟ قال نعم !

(٣) ابن عساكر يبين كذب المفترى ٢١٨ — ٢١٩ طبعة دمشق وراجع هامش ٢٥ صلة الاسلام باصلاح المسيحية لأستاذنا الشيخ أمين الخولي . وقد ذكر في الهامش المذكور أن أبا بكر محمد بن الطبيب الباقلاني دخل قصر ملك الروم يوما فرأى عند الامبراطور بعض مظارفته ورهبانه فقال له مستهزئا به كيف أنت وكيف الأهل والأولاد ؟ فتعجب منه الامبراطور وقال له : ذكر من أرسلاك في كتاب الرسالة أنك لسان الأمة ومتقدم على علماء الأمة : أما علمت أننا ننزه هؤلاء عن الأهل والأولاد ؟ ! فقال القاضي أبو بكر أنتم لا تنزهون الله سبحانه وتعالى عن الأهل والأولاد وتنزهونهم ، فكان هؤلاء عندكم أقدس وأجل وأعلى من الله سبحانه وتعالى ! وقصد الامبراطور يوما توبيخه فقال له أخبرني عن قصة عائشة زوج نبيكم وما قيل فيها ؟ فقال له القاضي أبو بكر : هما اثنتان قيل فيهما ما قيل زوج نبينا ومريم بنت عمران فأما زوج نبينا فلم تلد وأما مريم فجاءت بولد تحمله على كتفها ، وكل برأها الله مما رميت به .

لا يوافق شرع الله لم يكن لله ، بل لا يكون لله إلا ما جمع الوصفين أن يكون لله وأن يكون موافقا لمحبة الله ورسوله وهو الواجب والمستحب ، كما قال : « فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا ، فلا بد من العمل الصالح وهو الواجب والمستحب ولا بد أن يكون خالصا لوجه الله تعالى كما قال تعالى « بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن ، فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

ويقول ابن تيمية : كثيرا ما يخالط النفوس من الشهوات الخفية ما يفسد عليها تحقيق محبتها لله وعبوديتها له وإخلاص دينها — كالرياء وحرص المرء على المال والشرف في فساد الدين — والقلب إذا ذاق حلاوة عبوديته لله ومحبته له ، لم يكن شيء أحب إليه من ذلك حتى يقدم عليه ، وبذلك يصرف عن أهل الإخلاص لله السوء والفحشاء كما قال تعالى : « كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين » ، فإن المخلص لله ذاق من حلاوة عبوديته ما يمنعه من عبوديته لغيره ، ومن حلاوة محبته لله ما يمنعه من محبة غيره ، إذ ليس عند القلب لا أحلى ولا ألد ولا أطيب ولا ألين ولا أنعم من حلاوة الإيمان المتضمن عبوديته لله ومحبته له وإخلاصه الدين ، وذلك يقتضى انجذاب القلب إلى الله فيصير القلب منيبا إلى الله خائفاً منه راغبا راهبا كما قال تعالى « من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب ، إذ المحب يخاف من زوال مطلوبه وحصول مرغوبه ، فلا يكون عبد الله ومحبه إلا بين خوف ورجاء ، قال تعالى « أولئك الذين يدعون ، يتبعون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذورا ، وإذا كان العبد مخلصا له ، اجتباه ربه فيحبي قلبه واجتذبه إليه فيصرف عنه ما يضاد ذلك من السوء والفحشاء ويخاف من حصول ضد ذلك ، بخلاف القلب الذى لم يخلص لله فإنه في طلب وإرادة وحب مطلق فيهوى ما يسحق له ويتشبث بما يهواه ، كالغصن أى نسيم مر بعطفه أماله فتارة تجتذبه الصور المحرمة وغير المحرمة فيبقى أسيرا عبدا لمن لو اتخذه هو عبد الله لكان ذلك عيباً ونقصا وذما ، وتارة يجتذبه الشرف

والرئاسة فترضيه الكلمة وتغضبه الكلمة ويستعبده من يثنى عليه ولو بالباطل ويعادى من يذمه ولو بالحق ، أو تارة يستعبد الدرهم والدينار وأمثال ذلك من الأمور التي تستعبد القلوب والقلوب تهواها فيتخذ إلهه هواه ويتبع هواه بغير هدى من الله ، ومن لم يكن خالصا لله عبدا له قد صار قلبه معبداً لربه وحده لا شريك له بحيث يكون الله أحب إليه من كل ما سواه ويكون ذليلاً له خاضعاً ، وإلا استعبده الكائنات واستولت على قلبه الشياطين وكان من الغاوين إخوان الشياطين وصار فيه من السوء والفحشاء ما لا يعلمه إلا الله ، وهذا أمر ضرورى لا حيلة فيه ، فالقلب إن لم يكن حنيفاً مقبلاً على الله معرضاً عن سواه وإلا كان مشركاً ، وقد جعل الله سبحانه إبراهيم وآل إبراهيم أئمة لهؤلاء الخنفاء المخلصين أهل محبة الله وعبادته وإخلاص الدين له ، كما جعل فرعون وآل فرعون أئمة المشركين المتبعين أهواءهم ، قال تعالى فى إبراهيم : « ووهبنا له إسحق ويعقوب نافلة وكلاً جعلنا صالحين وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين » وقال فى فرعون وقومه : « وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون ، وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين » وقد خرج ابن تيمية من هذا إلى القول بأن العبد كلما ازداد تحقيقاً ، ازدادت محبته لله وطاعته له وإعراضه عن عبادة غيره ومحبة غيره وطاعة غيره^(١)

(١١) والتلبس هو إظهار الباطل فى صورة الحق أما الغرور فنوع جهل يوجب اعتقاد الفاسد صحيحاً والردى جيداً ، فمن المتشبهين بالصوفية من يقولون بالحلول زاعمين — ضلالاً منهم وكفراً — أن الحق تعالى اصطفى أجساماً حل فيها بمعانى الربوبية ، ومنهم من قال هو حال فى المستحسنات ، ومنهم قوم يتشبهون بالصوفية فى ملابسهم ويقصدون الفسق ، وقد حدثنى أكثر من واحد عن وجود بعض فئات تدعى أنها صوفية فى بعض بلاد الدنيا وأسيوط ، يبيع

(١) راجع ص ٣٣٠ — ٣٣٧ من فتاوى ابن تيمية المجلد الثانى وراجع ص ١٣٧ — ١٤٤ من وحي الأحاديث الحمديّة الجزء الثانى لمحمود على قراءة .

الشيخ فيها لمريديه الفسق ، وأنه على المريد الجديد تقديم نفسه لشيخه وإخوانه إن شاءوا ، إذا رغب في الاندماج في سلكهم^(١) .

هذا وقد أفاض الإمام جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي البغدادى فى كتابه تليس إبليس فى الحديث عن نقد مسالك رجال الصوفية والمتصوفين فى صحتهم الأحداث نلخصها فيما يلى : إن أكثر الصوفية المتصوفة قد سدوا على أنفسهم باب النظر إلى النساء الأجانب لبعدهم عن مصاحبتهم وامتناعهم عن مخالطتهم واشتغلوا بالتعبد عن النكاح ، واتفقت صحة الأحداث لهم على وجه الإرادة وقصد الزهادة ، فأما لهم إبليس إليه ، فمنهم قوم صحبوا المردان ومنعوا أنفسهم من الفواحش يعتقدون ذلك مجاهدة ، وما يعلمون أن نفس صحتهم والنظر إليهم بشهوة معصية ، وهؤلاء قوم رآهم إبليس لا ينجذبون معه إلى الفواحش فحسن إليهم بدايتها فتعجلوا لذة النظر والصحبة والمحادثة وعزموا على مقاومة النفس فى صدها عن الفاحشة ، فإن صدقوا وتم لهم ذلك فقد اشتغل القلب الذى ينبغى أن يكون شغله بالله تعالى لا بغيره ، وصرف الزمان الذى ينبغى أن يخلو فيه القلب بما ينفع به فى الآخرة بمجاهدة الطبع فى كفه عن الفاحشة ، وهذا كله جهل وخروج عن آداب الشرع ، فإن الله عز وجل أمر بغض البصر لأنه طريق إلى القلب ليسلم القلب إلى الله تعالى من شائب نخاف منه ، ومماثل هؤلاء إلا كمثل من أقبل إلى سباع فى غيضة متشاغلة عنه لا تراه فأثارها وحاربها وقاومها ، فيا بعد سلامته من جراحه إن لم يهلك !

وفى هؤلاء من قويت مجاهدته مدة ثم ضعفت فدعته نفسه إلى الفاحشة فامتنع حينئذ من صحبة المرد ، ومنهم من تاب وأطال البكاء عن إطلاق نظره ، ومنهم من تلاعب به المرض من شدة المحبة ، ومنهم من همت نفسه إلى الفاحشة فقتل نفسه وهو يتلو قوله تعالى : « فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم » ، فأتى بكبيرة عظيمة ، لأن بنى إسرائيل أمروا بذلك بقوله تعالى : « فاقتلوا أنفسكم » ،

(١) راجع ص ٣٨١ من وحى الأحاديث المحمدية الجزء الثانى لمحمود على قراءة .

ونحن مهينا عنه بقوله تعالى : « لا تقتلوا أنفسكم » ، وفيهم من فرق بينه وبين حبيبه فقتل حبيبه فأتى بكبيرة عظيمة ، وفيهم من علموا أن صحبة المردان والنظر إليهم لا يجوز . غير أنهم لم يصبروا عن ذلك !

ومنهم قوم لم يقصدوا صحبة المردان وإنما يتوب الصبي ويتزهد ويصحبهم على طريق الإرادة ، فيلبس إبليس عليهم ويقول لا تمنعوه من الخير ثم يتكرر نظرهم إليه لا عن قصد فيشير في القاب الفتنة إلى أن ينال الشيطان منهم بقدر ما يمكنه ، وربما وثقوا بدينهم فاستفزهم الشيطان فرماهم إلى أفصى المعاصي ، وغلطهم من جهة تعرضهم بالفتنة وصحبة من لا يؤمن الفتنة في صحبته ! ومنهم قوم يستيحيون النظر إلى المستحسن ، والفقهاء يقولون من ثارت شهوته بالنظر إلى الأمر حرم عليه ، ومتى ادعى الإنسان أنه لا تثور شهوته عند النظر إلى الأمر والمستحسن فهو كاذب ، وإنما أبيع على الإطلاق لئلا يقع الحرج في كثرة المخالطة بالمنع ، فإذا وقع الإلحاح في النظر دل على العمل بمقتضى فوران الهوى ! ومنهم قوم يقولون نحن لا ننظر نظر شهوة وإنما ننظر نظر اعتبار فلا يضرنا النظر ، وهذا محال منهم ، فإن الطباع تتساوى ، فمن ادعى تنزه نفسه عن أبناء جنسه في الطبع ادعى المحال ، فإن تعلل فقال إنما أنظر إلى هذه المستحسنات معتبرا فأتعجب من حسن الصنعة في دعبج العينين ورقة الأنف ونقاء البياض ! قلنا له : في أنواع المباحات ما يكفي في العبرة ، وههنا ميل طبعك يشغلك عن الفكرة ولا يدع لبلوغ شهوتك وجود فكرة ، فإن ميل الطبع شاغل عن ذلك ، وهذه — كما قال أبو الطيب الطبري — النهاية في متابعة الهوى ومخادعة العقل ومخالفة العلم !

قال الله تعالى : « وفي أنفسكم أفلا تبصرون » ، وقال : « أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض » ، فعدلوا عما أمرهم الله به من الاعتبار إلى ما نهاهم عنه ، ولهذا قال ابن عقيل : « قول من قال : لا أخاف من رؤية الصور المستحسنة ليس بشيء » ، فإن الشريعة جاءت عامة الخطاب لا تميز الأشخاص ، وآيات القرآن تنكر هذه الدعاوى ، قال تعالى : « قل للؤمنين يغضوا من أبصارهم

ويحفظوا فروجهم ، وقال : أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ، وإلى السماء كيف رفعت ، وإلى الجبال كيف نصبت ، فلم يحل النظر إلا على صور لا ميل للنفس إليها ولا حظ فيها بل عبرة لا يمازجها شهوة ولا تعترها لذة ، فأما صور الشهوات فإنها تعبر عن العبرة بالشهوات ، وكل صورة ليست بعبرة لا ينبغي أن ينظر إليها لأنها قد تكون سببا للفتنة ، ولذلك ما بعث الله تعالى امرأة بالرسالة ولا جعلها قاضيا ولا إماما ولا مؤذنا ، كل ذلك لأنها محل فتنة وشهوة وربما قطعت عما قصدته الشريعة بالنظر^(١) ، ١

ويرى أستاذنا الفيلسوف الدكتور منصور فهمي الصدق في رسم الصور النفسية ، فتراه يحدثنا صادقا عن تلك الفتاة التي رقت سلم الترام مع أمها في طريق الرمل وعما كان بينه وبينها من غزل برىء فيقول : . . . اتجهت حيث يقع بصرى على هذا الخلق الفتان ، لم اختلس النظرات اختلاسا وإنما رأيت أن أشبعها حسنا غير مكترث بما قد يأخذني به الناس من تلك النظرات ، لأنى كنت حينئذ طاهر النية أمام الله فلا يخجلنى أن أتمتع متاعا طاهرا بجمال فتاة لا تكاد تبلغ الرابعة عشرة ، ويصف نظره تلك بأنها عبادة الذى كان يعجب بالمصور الأكبر فى صورة بديعة صورها هى صورة تلك الفتاة^(٢) ، بل هو يذهب إلى أبعد من ذلك فيحدثنا عن ذلك الملهى الذى ذهب إليه وفيه عزف العازفون وتضاءلت الأنوار وامتلا المكان نغما وتشبع الجو أريجاً ثم انحسرت الستار عنهن وكن نسوة كثيرات ومعهن رجال ، ويقول : . . . طالما أحيت أن أكرم نفسى بمجالس السكال وكنت أقول أغشى مطارح الأهواء والمجون ؟ أو طالما ألقت أن أعرض نفسى للجد والعمل ، على أنى علمت بعدئذ أن فى الله ما قد يدفع للجد ، وأن فى مجالس المجون ما قد يستفز للسكال ، وأن فى المسارح ما قد يرفع الإنسان من عالم الأشباح إلى عالم الأرواح ، وكذلك ما رأيت من رقص ، أنا بافلوفا ، وكذلك ما سمعت من نغم . . . قاله

(١) راجع ص ٣٧ و ٢٢٧ و ٢٦٤ - ٢٨٧ من تلبس ابليس لابن الجوزى

(٢) راجع ص ٢٨ و ٢٩ من خضرات نفس لأستاذنا الدكتور منصور فهمي .

ما ألم بنفسى فخش عندما تمايلت المتمايلات واهتزت القدود وتوردت الحدود..
وتالله مامر بنفسى فخش ، فإن فى جمال الفن ما يسمو بالنفس عن وساوس
السوء... (١).

وقد أكون مع أستاذى فى رأيه وقد أرى أنه لا يضيرنى إذا نظرت لجمال
حتى نظرة بريئة أو إذا ارتدت مسرحا أو سينما للترويح عن النفس وللمتعة
البريئة ، إذ لا ريب فى أن نظرتك إذا كانت بريئة ، فإنها تسمو بك ، وأن
الفن إذا كان فنا صادقا فإنه يسمو بروحك وبنفسك ، ولكن الذى يضير هو
أن ننظر بشهوة ، والذى يضير هو أن يكون الفن زيفا أو تهريجا لا طعم له
ولا لون غير النزول بالإنسانية إلى البهيمية وبالسمو إلى الضعة ، وظاهر أن
غض البصر أسلم لقوله تعالى : « إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه
مسئولا » ، ولذا قال ابن القيم فى كتاب الداء والدواء « العشق قسمان : عشق
الرجل امرأته وجاريته وهو نافع فإنه أدعى إلى المقاصد التى شرع الله لها
النكاح وأكف للبصر والقلب عن التطلع إلى غير أهله ، وعشق هو مقت من
الله وبعد من رحمته وهو أضر على العبد فى دينه وهو عشق غير امرأته وهو
من أعظم الحجب القاطعة عن الله » ، فهل النظرة العابرة لجمال برىء تعد عشقا
أم تعد لهوا ؟ ثم هل ينظر الناس جميعا للجمال نظرة بريئة عابرة أم ينظرون
نظرة بهيمية تعد مقنا ؟ لا ريب فى أن النادر هو من يسلم من سوء النظرة
وإن سلم فأسلم له أن يبتعد عن العبث بالنار لئلا تحرقه وتجرفه « ومن حام
حول الحمى ، أو شك أن يقع فيه » !

ويقول ابن تيمية إن النظر إلى وجه الأمرد لشهوة حرام كالنظر إلى وجه
ذات المحارم والمرأة الأجنبية بالشهوة سواء كانت الشهوة شهوة الوطء أو شهوة
التلذذ بالنظر باتفاق الأئمة ، ويرد على قول بعض مخالفى الشريعة من الصوفيين
أن النظر إلى وجه الصبي الأمرد الحسن عبادة ، بأن جعل هذا النظر الحرام
عبادة ، كان بمنزلة من جعل الفواحش عبادة ، وقد يكون فى صور النساء

(١) راجع ص ٤٤ - ٤٦ من خطرات نفس لأستاذنا الدكتور منصور فهمى .

الأجنيات وذوات المحارم من الاعتبار والدلالة على الخالق من جنس ما في صور المرد ، فهل يقول مسلم إن للإنسان أن ينظر بهذا الوجه إلى صور نساء العالم وصور محارمه ويقول إن ذلك عبادة ؟ بل من جعل مثل هذا النظر عبادة فإنه كافر مرتد يجب أن يستتاب وإلا قتل ، وهو بمنزلة من جعل إعانة طالب الفواحش عبادة ، والخالق سبحانه يسبح عند رؤية مخلوقاته كلها ، وليس خلق الأمرد بأعجب في قدرته من خلق ذى اللحية ، ولا خلق النساء بأعجب في قدرته من خلق الرجال ، بل تخصيص الإنسان بالتسبيح — كقوله سبحانه الذى خلقه — بحال نظره إلى الأمرد دون غيره كتخصيصه التسبيح بنظره إلى المرأة دون الرجال ، وما ذلك لأنه قد دل على عظمة الخالق عنده ، ولكن لأن الجمال يغير قلبه وعقله ، وقد يذهله ما رآه فيكون تسبيحه بما يحصل في نفسه من الهوى ، لأن بغض البصر ثلاث فوائد : حلاوة الإيمان ولذته وأنه يورث نور القلب والفراسة وقوته وثباته وشجاعته وعزته ^(١) !

أما معاشرة المرد كما يفعل بعض الصوفية ، فقد سئل شيخ الإسلام ابن تيمية عن حكم الله تعالى في أقوام يعاشرون المردان وقد يقع من أحدهم قبلة ومضاجعة للصبي ويدعون أنهم يصحبون الله ولا يعدون ذلك ذنباً ولا عاراً ويقولون « نحن نصحبهم بغير خنا » ويعلم أبو الصبي بذلك وعمه وأخوه فلا ينكرون ، فأجاب بما خلاصته : الصبي الأمرد المايح بمنزلة المرأة الأجنبية في كثير من الأمور ولا يجوز النظر إليه على هذا الوجه باتفاق الناس ، بل يحرم عند جمهورهم النظر إليه عند خوف ذلك ، وإنما ينظر إليه الحاجة ، بلا ريبة مثل معاملته والشهادة عليه ونحو ذلك ، كما ينظر إلى المرأة للحاجة ، وأما مضاجعته فهذا أخش من أن يسأل عنه ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال : مروغم بالصلاة لسبع واضربوهم لعشر وفرقوا بينهم في المضاجع إذا بلغوا عشر سنين ولم يحتلوا بعد ، فكيف بما هو فوق ذلك ؟ وأما قول القائل إنه يعمل ذلك لله فهذا أكثره كذب ، وقد يكون لله مع هوى النفس كمن يدعى

مثل ذلك في صحبة النساء الأجانب ، فيبقى كما قال الله تعالى في الخمر والميسر « فيهما إثم كبير ومنافع للناس وأثمهما أكبر من نفعهما »^(١) .

ولقد ذكر ابن الجوزي أن من تلبس إبليس للصوفية من قارب الفتنة فوقع فيها ولم تنفعه دعوى الصبر والمجاهدة ، فعن إدريس بن إدريس قال : حضرت بمصر قوما من الصوفية ولهم غلام أمرد يغنيهم ، فغلب على رجل منهم أمره فلم يدر ما يصنع فقال : يا هذا قل « لا إله إلا الله » فقال الغلام « لا إله إلا الله » فقال « أقبل الفم الذي قال لا إله إلا الله »^(٢) !

هذا ولقد ذهب بعض معتنقي هذا المذهب إلى حد المجادلة فيما هل يكون في الجنة إتيان الذكور أم لا ؟ فقد ذكر ابن عابدين في الجزء الثالث من حاشية الدر المختار ص ٢١٥ أن السيوطي قال : قال ابن عقيل الحنبلي جرت مسألة بين أبي علي بن الوليد المعتزلي وبين أبي يوسف القزويني في ذلك ، فقال ابن الوليد إنه لا يمنع أن يجعل ذلك من جملة اللذات في الجنة لزوال المفسدة لأنه إنما منع في الدنيا لما فيه من قطع النسل وكونه محلا للأذى وليس في الجنة ذلك ، ولهذا أبيع شرب الخمر لما ليس فيه من السكر وغاية العريضة وزوال العقل ، فلذلك لم يمنع من الالتذاذ بها ، فقال أبو يوسف الميل إلى الذكور عاهة وهو قبيح في نفسه ، ولهذا لم يبيع في شريعة بخلاف الخمر ، وهو مخرج الحدث ، والجنة نزهة عن العاهات ، فقال ابن الوليد : العاهة هي التلويث بالأذى فإذا لم يبق إلا مجرد الالتذاذ ، والظاهر أن المراد بالحرمة هنا القبح إطلاقا لاسم المسبب على السبب أي قبحها عقلي بمعنى أن يدرك بالعقل وإن لم يرد به الشرع كالظلم والكفر ، لأن مذهبنا أن لا يحرم بالعقل شيء (أي لا يكون العقل حاكما بحرمة) ، وإنما ذلك لله تعالى ، بل العقل مدرك لحسن بعض المأمورات وقبح بعض المنهيات ، فيأتي الشرع حاكما يوفق ذلك ، فيأمر بالحسن وينهى عن القبيح ، وعند المعتزلة يجب ما حسن عقلا ويحرم ما قبح ، وإن لم يرد

(١) راجع ٢١١ و ٢١٢ من فتاوى ابن تيمية المجلد الثاني .

(٢) راجع ص ٢٧٣ من تلبس إبليس لابن الجوزي . وراجع ص ٢٨١ — ٢٨٩ من وحي الأحاديث المحمدية الجزء الثاني لمحمود علي قراءة .

الشرع بوجوبه أو حرمة ، فالعقل عندهم هو المثلث ، وعندنا المثلث هو الشرع ، والعقل آلة لإدراك الحسن والقيح قبل الشرع ، وعند الأشاعرة لاحظ للعقل قبل الشرع ، بل العقل تابع للشرع فما أمر به يعلم بالعقل أنه حسن ، وما نهى عنه يعلم أنه قبيح ، فلا تكون في الجنة على الصحيح لأنه تعالى استقبحها وسماها خبيثة والجنة منزهة عنها ، وفي الأشباه : حرمتها عقلية فلا وجود لها في الجنة ، وقيل سمعية فتوجد ، وقيل : « يخلق الله تعالى طائفة نصفهم الأعلى كالذكور والأسفل كالإناث » !

فانظر كيف ذهب بهم فهمهم الحسى ، إذ لو أخذنا برأيهم الحسى لقلنا إن المراد بالولدان أن يفهم ذكرهم هذا الفهم السقيم ! وحاشا لله أن يكون كذلك الفهم ! والأقرب إلى العقل والفهم السليم أن يكون ذكر الولدان الذين يخدمون في الجنة : هو التمتع بالفكرة الروحية التي يبعثها الجمال الحسى ، وإنه إن جاز أن نأخذ في ذكر الحور العين باللذة الحسية ، فإنه لا يجوز أن يفهم هذا عند ذكر الولدان^(١) .

(١٢) الإسلام لا يكره الغنى : كان نبينا الكريم فقيرا في المادة قبل البعثة ، زاهدا فيما آتاه الله من غنى بعدها ، ولكن روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه تعود بالله من الفقر وقال : « أسألك غناى وغنى مولاي » ثم روى عنه أنه قال « اللهم أحبنى مسكينا وأمتنى مسكينا واحشرنى فى زمرة المساكين » وأنه قال « الفقر بالمؤمن أحسن من العذار الحسن على خد الفرس » ، واعترض قوم بوجود تناقض واختلاف فى هذا ، فرد عليهم ابن قتيبة بما خلاصته أنه ليس

(١) راجع مجلة الرسالة العدد ٣١٥ ص ٧ و ١٤٢٥ و ١٤٢٦ لمحمود على قراءة وس ١٣٣ - ١٣٥ من نعيم الجنة الطبعة الثانية لمحمود على قراءة . ومن الفهم الخاطى ما ذكرته مجلة المختار عدد يناير سنة ١٩٥٦ ص ٩٤ من أن الأستاذ الشيخ مصطفى عبد الرازق شيخ الجمع الأزهر السابق تحدث عن ياديس فقال : « باريس عاصمة الدنيا » ولو أن الآخرة عاصمة المساكين باريس « وهل غير باريس للحور والولدان والجنات والنيان والصراط والميزان وانفجار والصالحين والملائكة والسياطين » ونحن لمعرفتنا الوثيقة بأستاذنا وبله تنكر نسبة هذه الكلمة له ، ونقرر أنه لو صح كتابته لها ، فإما أن تكون قد كتبت فى زمان طيش الشباب أو دست عليه ! غفر الله لكانها وسامع الله ناشرا !

ههنا اختلاف بحمد الله تعالى ، لأن المسكنة في قوله احشرنى مسكينا : التواضع والاختبات ، كأنه سأل الله تعالى أن لا يجعله من الجبارين والمتكبرين ولا يحشره في زمرةهم ، والمسكنة مأخوذة من السكون ، يقال تمسكن الرجل إذا لان وتواضع وخشع وخضع ، ومن قول النبي صلى الله عليه وسلم للصلى تبأس^(١) وتمسكن وتقنع رأسك ، يريد تخشع وتواضع لله عز وجل ، ومن الدليل على ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لو كان سأل الله عز وجل المسكنة التى هى الفقر ، لكان الله تعالى قد منعه ما سألها لأنه قبضه غنيا موسرا بما أفاء الله عز وجل عليه - وإن كان لم يضع درهما على درهم ، وأما قوله إن الفقر بالمؤمن أحسن من العذار الحسن على خد الفرس ، فإن الفقر مصيبة من مصائب الدنيا عظيمة ، فمن صبر على المصيبة لله تعالى ورضى بقسمه^(٢) زانه الله تعالى بذلك فى الدنيا وأعظم الثواب فى الآخرة ، وإنما مثل الفقر والغنى كمثل السقم والعافية ممن ابتلاه الله تعالى بالسقم فصبر كان كمن ابتلى بالفقر فصبر ، وليس ما جعل الله تعالى فى ذلك بما نعنا من أن نسأل الله العافية ونرغب إليه فى السلامة ، وغلط قوم ذهبوا إلى أنه كان يتعوذ بالله تعالى من فقر النفس (محتجين بقول الناس فلان فقير النفس وإن كان حسن الحال وغنيا وإن كان سيء الحال) لأن الله عز وجل استعبد عباده بأن يقولوا اللهم ارزقنا اللهم عافنا ! وبأن يقولوا اللهم لا تبلىنا إلا بالتي هى أحسن ! يريدون لا تخبرنا إلا بالخير ولا تخبرنا بالشر ، لأن الله تعالى يختبر عباده بهما ليعلم كيف شكرهم وصبرهم وقال : ونبلوكم بالشر والخير فتنة ، أى اختبارا !

وعلى هذا فلا ضير فى أن يرغب كل منا فى المال وفى أن يسأل الله عز وجل الغنى ويعوذ به من الفقر ، على أن تكون وجهته إنفاق المال فى ضرورياته من غذاء حسن وسكن صحى وملبس نظيف لائق ، وفى سبيل الخير من تعليم أولاده وتكميلهم وثقيفهم ، وفى البر بذوى الحاجة فى ادخار جزء ليقية وأولاده شر الحاجة ، إذ هذا هو الإنفاق الشرعى الوسط بين التبذير والتقتير ،

(١) من البؤس وهو الخضوع والفقر . (٢) بسكون السين وفى نسخة بقسمته .

وهذا هو الغنى الذى لا يؤذى صاحبه والذى به يقدم الإنسان حياته ، يقدم حياته فى العمل له لا لمظاهره الكاذبة ، بل ليكون به قويا يستطيع أن يخدم ربه ودينه ويحسن الإنفاق على نفسه وأهله وولده والمحتاج من عشيرته^(١) !

وكذا يجب تأويل الحديث المروى عن صفوان بن سليم إذ قال قلنا يا رسول الله أياكون المؤمن جبانا ؟ قال نعم ! قلنا أياكون بخيلا ؟ قال نعم ! قلنا أياكون كذابا ؟ قال : لا ! إذ المراد الجبن والبخل الظاهران اللذان هما فى الحقيقة شجاعة وكرما ، إذ المعروف أن الشجاعة هى أن تقدم حينما ترى الإقدام عزا وتحجم حينما ترى الإحجام حزما ، والكرم أن تضع الأمور فى مواضعها بأن تكون وسطا بين التقدير والتبذير وأن تنفق حيث يستحب الإنفاق وتمسك حيث يكره ، وإلا فإن المؤمن لا يكون جبانا ولا بخيلا لأن الإيمان يوثق فى نفسه المعرفة ، والمعرفة تحول بينه وبين المعانى الدافعة للجبن ، على تكبيره دوما فى صلواته واستحضاره فى كل سويعات حياته معانى الله أكبر ، وقول الله أكبر يدعو المسلم الحق المؤمن إلى أن يرفع الرأس عالية ويعمل للمجد ولا يرى غير الله إذ تذوى كل عظمة أمام جبروته وتصغر كل عزة أمام عزته ، وقول الله أكبر يدعو به إلى أن يخشى الله ولا يخشى الناس ، فهو بعزة الحق يجاهد ولا يبالي وهو بعزة الحق كبير مهما صغر وهو بعزة الحق عظيم مهما ضؤل ، وهو بعزة الحق يجاهد فى سبيل الحق غير وان ولا وكل ، والمؤمن كذلك كريم لكنه حازم فى كرمه يضع كل أمر فى نصابه ، ثم إنه إذا كان فى أول مراتب إيمانه جبانا بخيلا ، فإنه سيرقى ولا ريب فى أن يكون شجاعا كريما ، لأن النور يمحو الظلام ولأن الحق يدفع الباطل ولأن القوة تجرف أمامها الضعف^(٢) !

(١) راجع ص ٣٥ و ١٠٢ و ٤٩٢ - ٤٩٦ من وحي الأحاديث الحمديدية الجزء الأول لمحمود على قراءة و ٢٠٨ - ٢١١ من تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة .

(٢) راجع ص ٧٣ و ٧٤ من وحي الأحاديث الحمديدية الجزء الثانى لمحمود على قراءة .

الفصل الثالث

الإسلام والمعاني الجنسية

« من أطاع الله فقد ذكر الله تعالى ، وإن قلت
صلاته وصيامه وتلاوته القرآن ، ومن عصى الله
فقد نسي الله وإن كثرت صلاته وصيامه وتلاوته
القرآن » .
حديث شريف

(١) كان النبي عليه الصلاة والسلام قوى الحب للنظافة وللطهارة الجسمية
واتباعها بالقوة الروحية ، فكان يكره القيام بالبول قائما ويكره استقبال القبلة
عند قضاء الحاجة أو استدبارها وسن البعد عن الأنظار عند القيام بها والتنظيف
بالماء والأحجار بعدها ، على استعادة من الخبث وحمد لله على إبعاد الأذى
وإجلال لأن يذكر اسم الله في هذه الحالة أو في تلك الأمكنة مع حرص على
ذكره فكان يذكر بعدها كلمة غفرانك^(١) وكلها معان نذلة تتصل بالنظافة
المادية البالغة والحرص الشديد على الطهارة الجسمية والمتابعة للطهارة الروحية ،
ومن ذلك ما روى عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه
وسلم قال : من أتى حائضا في فرجها أو امرأة في دبرها أو كائنا ، فقد برىء مما
أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم^(٢) إذ أنزل الله تعالى عليه « ويسألونك عن
المحيض ، قل هو أذى ، فاعتزلوا النساء في المحيض ، » وقد فسر رسول الله
صلى الله عليه وسلم هذا الاعتزال بقوله « اصنعوا كل شيء إلا النكاح »^(٣) .
ومن سنن الإسلام الاستنجاء باستعمال الأحجار أو الماء^(٤) . ومن آدابه
ما ذكره ابن عابدين في قوله : « إذا أراد أن يدخل الخلاء ينبغي أن يقوم قبل

(١) راجع ص ١١٣ من وحى الأحاديث الحميدة الجزء الأول لمحمود على قراءة و ١٥٦
و ١٨٤ و ١٩٥ الجزء الثانى .

(٢) أخرجه الترمذى . (٣) من حديث عن أنس أخرجه الخمسة إلا البخارى .

(٤) أو ورق التوالى والماء ، كما هو الحاصل الآن !

أن يغلبه الخارج ولا يصحبه شيء عليه إسم معظم ولا حاسر الرأس ولا مع القلنسوة بلا شيء عليها ، فإذا وصل إلى الباب يبدأ بالتسمية قبل الدعاء فيقول بسم الله اللهم إني أعوذ بك من الخبث والخبائث ، ثم يدخل باليسرى ولا يكشف قبل أن يدنو إلى القعود ، ثم يوسع بين رجله ويميل على رجله اليسرى ولا يفكر في أمر الآخرة كالفقه والعلم ولا يرد سلاما ولا يجيب مؤذنا ، فإن عطس حمد الله بقلبه ، ولا ينظر إلى عورته ولا إلى ما يخرج منه ولا يبرز في البول ولا يطيل القعود فإنه يولد الباسور ولا يتنحج ولا يكثر الالتفات ولا يعث بيده ولا يرفع بصره إلى السماء وينكسر رأسه حياء عما ابتلى به ويحتد في الاستفراغ من الخارج^(١) ثم يقعد للاستنجاء بالماء ويبدأ بغسل يديه ثلاثا ثم يفيض الماء باليمنى على فرجه ويعلى الإناء ويغسل فرجه باليسرى ويبدأ بالقبل ثم بالدبر ، ثم يرخي مقعدته ثلاثا ويدلك كل مرة فينشف بخرقة قبل أن يجمعه ، وينشف فرجه بخرقة نظيفة فإن لم تكن معه يمسح بيده مرارا ، ويطهر يده بالماء ثلاثا حتى تذهب العين والرائحة^(٢) .

(٢) ومن سنن الإسلام الاختتان ويقول ابن تيمية إن المقصود بختان الرجل تطهيره من النجاسة المحتقنة في القلفة ، والمقصود من ختان المرأة تعديل شهوتها بأن تقطع أعلى الجلدة التي كعرف الديك ، فإنها إذا كانت قلقاء كانت مغتلبة شديدة الشهوة ، وإذا حصل المبالغة في الختان ضعفت الشهوة ، فإذا قطع من غير مبالغة حصل المقصود باعتدال^(٣) .

(٣) ومن سنن الإسلام الغسل عند الجماع أو الاحتلام في المنام أو الانزال بضم أو نظر أو قلة أو تفخيز أو تبطين ، وحكمها من وجهة الحرمة والحل أنها حلال إن كانت للزوجة وحرام إن كانت لغير ذلك ، أما إتيان

(١) الخارج ما يخرج من براز وغيره ، ويريد بالاستفراغ منه إزالته بالدفن بالتراب مثلا أو (السيفون) ، كما هو الحاصل الآن .

(٢) راجع ص ٣١٩ و ٣٢٠ من حاشية ابن عابدين وص ٢٤٢ إلى ٢٤٤ من وحي الأحاديث الحمديّة الجزء الثاني لمحمود علي قراءة .

(٣) راجع ٤٣ و ٤٤ من فتاوى ابن تيمية المجلد الأول .

الهيئة والميتة والاسمتاء باليد واللواط والسحاق^(١) وإتيان الرجل امرأته في دبرها أو إتيانها وهي حائض، فحرام، ولكن يغتسل منها للتطهير الحسى وإن كانت حرمتها لا تطهرها إلا التوبة^(٢).

(٤) وللفقهاء في نقض الوضوء بلبس النساء ثلاثة أقوال طرفان ووسط نلخدها عن تقي الدين بن تيمية فيما يلى : (أضعفها) أن ينقض اللبس وإن لم يكن لشهوة إذا كان الملبوس مظنة للشهوة، وهو قول الشافعى تمسكا بقوله تعالى « أو لامستم النساء » وفى القراءة الأخرى أو لمستم (القول الثانى) إن اللبس لا ينقض بحال وإن كان لشهوة كقول أبى حنيفة وغيره، وكلا القولين يذكر رواية عن أحمد لكن مذهبه كمذهب مالك والفقهاء السبعة إن اللبس إن كان لشهوة نقض وإلا فلا . ويرى ابن تيمية أن تعليق النقض بمجرد اللبس خلاف الأصول وخلاف إجماع الصحابة وخلاف الآثار وليس مع قائله نص ولا قياس، فمن زعم أن قوله تعالى « أو لامستم النساء » يتناول اللبس (كاللمس باليد والقبلة) وإن لم يكن لشهوة، فقد خرج عن اللغة التى جاء بها القرآن بل وعن لغة الناس فى عرفهم، فإذا ذكر المس الذى يقرب فيه بين الرجل والمرأة، علم أنه مس الشهوة، كما إذا ذكر الوطء المقرون بين الرجل والمرأة علم أنه الوطء بالفرج لا بالقدم، وأيضا فإنه لا يقول إن الحكم معلق بلبس النساء مطلقا بل لصنف من النساء وهو ما كان مظنة الشهوة وأما مس من لا يكون مظنة (كذوات المحارم والصغيرة) فلا ينقض بها، فقد ترك ما ادعاه بين الظاهر واشترط شرطا لا أصل له بنص ولا قياس، فإن الأصول المنصوصة تفرق بين اللبس لشهوة واللمس لغير شهوة ولا تفرق بين أن يكون الملبوس مظنة الشهوة أو لا يكون، وأما من علق النقض بالشهوة فالظاهر المعروف فى مثل ذلك دليل له وقياس أصول الشريعة دليل، ومن

(١) ارتكاب الفاحشة بين اثنين مباشرة فرج بفرج .

(٢) راجع ص ٦٢ من فتاوى ابن تيمية ج ١، ووحى الأحاديث المحمدية الجزء الأول

لمحمود على فراءة ص ٢٤٠ — ٣٤٧ .

لم يجعل اللبس ناقضاً بحال فإنه يجعل اللبس إنما أريد به الجماع كما في قوله تعالى « وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن » .

أما مس الأمرد ففيه قولان في مذهب أحمد وغيره (أحدهما) أنه كس النساء لشهوة ينقض الوضوء وهو المشهور من مذهب مالك ذكره القاضى أبو يعلى في شرح المذهب (والثانى) أنه لا ينقض الوضوء وهو المشهور من مذهب الشافعى ، والقول الأول أظهر ، فلو مس الأمرد لشهوة وجب أن يكون كما لو مس المرأة لشهوة في نقض الوضوء ، والذي لم ينقض الوضوء بمسه يقول إنه لم يخلق محلاً لذلك ، فيقال له لا ريب أنه لم يخلق لذلك وأن الفاحشة اللوطية من أعظم المحرمات ، لكن هذا القدر لم يعتبر في باب الوطء فإن وطئ في الدبر تعلق به ما ذكر من الأحكام وإن كان الدبر لم يخلق محلاً للوطء مع أن أن نفرة الطباع عن الوطء في الدبر أعظم من نفرتها عن الملامسة . ونقض الوضوء بالمس يراعى فيه حقيقة الحكمة وهو أن يكون المس لشهوة عند الأكثرين كالك وأحمد وغيرهما ، وعلى هذا القول فيث وجد اللبس لشهوة تعلق به الحكم حتى لو مس أمه وأخته وبنته لشهوة انتقض وضوءه فكذلك الأمرد ، وأما الشافعى وأحمد في رواية فتعتبر المظنة وهو أن النساء مظنة الشهوة فينقض الوضوء سواء لشهوة أو لغير شهوة ، ولهذا لا ينقض لمس المحارم لكن لو مس ذوات محارمه لشهوة فقد وجدت حقيقة الحكمة وكذلك إذا مس الأمرد لشهوة ، والتلذذ بمس الأمرد كمصافحته ونحو ذلك حرام بإجماع المسلمين كما يحرم التلذذ بمس ذوات محارمه والمرأة الأجنبية ، بل الذى عليه أكثر العلماء أن ذلك أعظم إثماً من التلذذ بالمرأة الأجنبية ، على أن عقوبة اللوطى أعظم من عقوبة الزنا بالأجنبية ، فيجب قتل الفاعل والمفعول به (١) .

هذا وقد ذكر ابن تيمية في (الاختبارات العلية) أنه يستحب الوضوء عقيب الذنب ومن مس الذكر إذا تحركت الشهوة بمسه ، وتردد فيما إذا لم

(١) راجع ص ٤٨ — ٥٦ و ١١٠ من فتاوى ابن تيمية ج ١ و ٣٥٧ و ٣٥٨ ج ٢ .

تتحرك^(١)، وأما مس فرج الحيوان غير الإنسان فلا ينقض الوضوء حيا ولا ميتا باتفاق الأئمة^(٢)، ونرى أن مس الطبيب لفرج المرأة بحكم مهنته يوجب الوضوء لأنه وإن كان مسا اضطراريا المفروض فيه تجرده من الشهوة إلا أنه مس قدر يوجب الطهارة الصغرى وهى الوضوء^(٣).

(هـ) ولقد استنكر الإسلام كشف العورات ، ويقول ابن عابدين الركبة عورة لرواية الدارقطنى « ماتحت السرة إلى الركبة عورة » والركبة كما فى (الهداية) هى ملتقى عظمى الساق والفخذ ، وفى (البرجندى) ماتحت السرة هو ماتحت الخط الذى يمر بالسرة ويدور على محيط بدنه بحيث يكون بعده عن موقعه فى جميع جوانب جسمه على السواء ، وفى (الهداية) السرة ليست بعورة (خلافا لأبى عصمة والشافعى) والركبة عورة (خلافا للشافعى) والفخذ عورة (خلافا لأصحاب الظواهر) وما دون السرة إلى منبت الشعر عورة (خلافا لابن الفضل معتمدا فيه العادة لأنه لا يعتبر بالعادة مع النص بخلافها) ، وحكم العورة فى الركبة أخف منه فى الفخذ وفى الفخذ أخف منه فى السرة ، حتى أن كشف الركبة ينكر عليه برفق وكشف السواة يؤدب عليه إن لج ، ونقل عن الزاهدى إنه لو نظر لعورة غيره بإذنه لم يأثم ، قال ابن عابدين وفيه نظر ظاهر بل لفظ الزاهدى « نظر لعورة غيره وهى بادية لم يأثم » ، وقد قال الإيتقانى عن أبى يوسف إنه يباح النظر إلى ساعدها ومرفقها للحاجة إلى إبدائها إذا أجرت نفسها للطبخ والخبز وغسل الثياب ، وعن أبى يوسف أنه يباح النظر إلى ذراعها أيضا لأنه يبدو عادة^(٤) ، ولكن فى هذا القول

(١) لقوله عليه الصلاة والسلام من هو إلا مضغة (أوقال) بضعة منه !

(٢) وذكر بعض المتأخرين من أصحاب الشافعى فيه وجهين. راجع ص ٤٨ من فتاوى ابن تيمية

(٣) راجع ص ٣٠٠ — ٣٠٦ من وحى الأحاديث المحمدية ج ٢ للمحمود على قراءة .

(٤) راجع ص ٣٢٠ — ٣٢٤ من ابن عابدين ج ٥ . والعورة صنفان : أحدهما فرج الرجل والمرأة والآخر منهما وهذا هو عين العورة والذى يجب عليهما أن يستتراها فى كل موضع وعلى كل حال والعورة الأخرى ما داناها من الفخذ ومن صفاق البطن (مارق منه) وسمى ذلك عورة لاحاطته بالعورة ودونه منها ، وهذه لا يحسن به أن يظهرها بين الناس . راجع ص ٤١٥ — ٤١٨ من تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة .

نظر لأن الذى يتولى الإشراف على الخادمة هى زوجته ، وهو لا يجوز له الاختلاء بها ، ولا يجوز التوسع فى الإباحة لغير ضرورة لها .

هذا ولقد ذكر حجة الإسلام الغزالى فى الإحياء أن من منكرات الحام كشف العورات والنظر إليها ، ومن جملتها كشف الدلاك عن الفخذ وما تحت السرة لنحية الوسخ ، بل من جملتها إدخال اليد تحت الإزار ، فإن مس عورة الغير حرام كالنظر إليها ، ومنها الإنبطاح على الوجه بين يدى الدلاك لتغميز الأنف والأعجاز ، فهذا مكروه إن كان مع حائل ، ولكن لا يكون محظورا إذا لم يخش من حركة الشهوة ، وكذلك كشف العورة للحجام الذى من الفواحش ، فإن المرأة لا يجوز لها أن تكشف بدنها للذمية فى الحمام ، فكيف يجوز لها كشف العورات للرجال^(١) . والذمية كالرجل الأجنبي فى الأصح فلا تنظر إلى بدن المسلمة ، ولا ينبغي للمرأة الصالحة أن تنظر إليها المرأة الفاجرة ، لأنها تصفها عند الرجال ، وتنظر المرأة المسلمة من المرأة كالرجل من الرجل وقيل كالرجل محرمة ، والأول أصح . وكذا تنظر المرأة من الرجل كنظر الرجل للرجل إن أمنت شهوتها ، فلو لم تأمن أو خافت أو شكت ، حرم استحسانا كالرجل ، والخصى والمحجوب والمخنت فى النظر إلى الأجنبية كالفحل ، وانص الفقهاء على أن عبدها كالأجنبي معها . لأن خوف الفتنة منه كالأجنبي بل أكثر لكثرة الاجتماع به ، والنصوص المحرمة مطلقة ، والمراد من قوله تعالى « أو ماملكت أيمانن » الإماء دون العبيد . قاله الحسن ابن جبير^(٢) . وهذا أبلغ رد على الذين لا يرون بأسا من اجتماع نسائهم بالخدم ومن إليهم والتساهل فى هذا الاجتماع . كأن الخدم قد عدموا الشهوة أو كأنهم قد خلصوا من البشرية وضعفها ، فتكون النتيجة ما ترى وما نسمع من مأس فاضحة بينهم وبين سيداتهن وبنات سيداتهن ، وعند الزمالك والأحياء الراقية الخير اليقين^(٣) !

(١) راجع ص ٢٣٥ من إحياء علوم الدين للغزالى ج ٢ .

(٢) راجع ص ٣٢٦ و ٣٢٧ من ابن عابدين ج ٥ .

(٣) راجع ص ٣٦٨ و ٣٦٩ من وحي الأحاديث الحمدي ٢ لمحمود على قراءة . ولقد حدثتني مرة ليدى برايد قائلة إن الاختلاط عند الانجليز أصبح من عاداتهم وجزءاً من تقاليدهم .

(٦) ما حكم الشرع في النظر إلى الوجه وإلى الجسم ؟

ذكر ابن عابدين في حاشيته « رد المختار على الدر المختار ما خلاصته :
في (الذخيرة) وغيرها ، وإن كان على المرأة ثياب فلا بأس أن يتأمل جسدها ؛
وهذا إذا لم تكن ثيابها ملتزقة بها بحيث تصف ما تحتها ولم يكن رقيقا بحيث
يصف ما تحته ؛ فإن كانت بخلاف ذلك ، فينبغي له أن يفيض بصره ، وفي
(التبيين) قالوا : ولا بأس بالتأمل في جسدها وعليها ثياب ما لم يكن ثوب
يبين حجمها فلا ينظر إليه حينئذ لقوله عليه الصلاة والسلام « من تأمل خلف
امرأة ورأى ثيابها حتى تبين له حجم عظامها ، لم يرح رائحة الجنة ، ولأنه متى
لم يصف ثيابها ما تحتها من جسدها ، يكون الناظر إلى ثيابها وقامت دون
أعضائها ، فصار كما إذا نظر إلى خيمة هي فيها ، ومتى كان يصف يكون ناظراً
إلى أعضائها ، ويقول ابن عابدين إن مفاده أن رؤية الثوب بحيث يصف حجم
العضو ، ممنوعة ولو كشفها لا ترى البشرة منه ، وعلى هذا لا يحل النظر إلى
عورة غيره فوق ثوب ملتزق بها يصف حجمها ، فيحمل ما مر على إذا لم
يصف حجمها ؛

فهو يجوز للرجل النظر إلى فرج امرأته وبالعكس ؛ قال في (الهداية)
الأولى أن لا ينظر كل واحد منهما إلى عورة صاحبه لقوله عليه الصلاة والسلام
« إذا أتى أحدكم أهله فليستتر ما استطاع ولا يتجردان تجرد العير ، ولأن ذلك
يورث النسيان ويضعف البصر لورود الأثر ، وكان ابن عمر رضي الله تعالى
عنهما يقول : الأولى أن ينظر ليعلم أبلغ في تحصيل معنى اللذة ، ويقول
ابن عابدين : لكن في شرحها للعيني أن هذا لم يثبت عن ابن عمر لا بسند صحيح
ولا بسند ضعيف ، وفي (الذخيرة) عن أبي يوسف : سألت أبا حنيفة عن

ولذلك لا ينتج الآثار السيئة التي ينتجها عند كثير من الأمم الشرفية ، لأنه يبدأ عندهم من
الصغر ، ولكن مدام بنوا عقب على ذلك بقولها لي عند زيارتها لي في صيف سنة ١٩٣٧ إنه كثير
الأضرار في أوربا حتى أن الكثير من الأسر المحترمة تعمد إلى قصره على أسر بعض الأصدقاء
الموثوق في أخلاقهم ، على أن ذلك لا يخلو من أضرار لأن الكثيرين لا يحققون الثقة فيهم . راجع
٢٩ - ٦٥ من الحياة الزوجية لمحمود على قراءة .

الرجل يمس فرج امرأته وهي تمس فرجه ليتحرك عليها ، هل ترى بذلك بأسا ؟ قال : لا ! وأرجو أن يعظم الأجر !

قالوا ويجوز أن ينظر من محرمه (وهي من لا يحل له نكاحها أبدا بنسب أو سبب ولو بزنا) إلى الرأس والوجه والصدر والساق والعضد إن أمن شهوته وشهوتها أيضا ، وما حل نظره من ذكر أو أنثى ، حل لمسه إذا أمن الشهوة على نفسه وعليها لأنه عليه الصلاة والسلام كان يقبل رأس فاطمة ، وقال عليه الصلاة والسلام : من قبل رجل أمه فكأنما قبل عتبة الجنة ، وإن لم يأمن ذلك أوشك ، فلا يحل له النظر والمس ، وأما الأجنبية فلا يحل مس وجهها وكفها وإن أمن الشهوة لأنه أغلظ ولذا تثبت به حرمة المصاهرة ، وهذا في الشابة ، أما العجوز التي لا تشتهي فلا بأس بمصاغتها ومس يدها إذا أمن ، ومتى جاز المس جاز سفره بها ويخلو إذا أمن عليها وعليه . وإلا لا ، والخلوة بالمحرم مباحة إلا لأخت رضاعا والصهرة الشابة ، قال في القنية : ماتت عن زوج وأم ، فلهما أن يسكنا في دار واحدة إذا لم يخافا الفتنة ، وإذا كانت الصهرة شابة فللجيران أن يمنعوها إذا خافوا عليها الفتنة ، ويقول ابن عابدين إن إصهار الرجل كل ذي رحم محرم من زوجته على اختيار محمد ، والمسئلة مفروضة هنا في أمها ، والعلة تفيد أن الحكم كذلك في بنتها ونحوها .

فهل يجوز الكلام مع الأجنبية ؟ إلا تكن عجوزا بل شابة لا يشمتها ولا يرد السلام بلسانه ، قال في (الخانية) وكذا الرجل إذا سلم على امرأة أجنبية ، فالجواب على العكس ، وفي (الذخيرة) إذا عطس فشمته المرأة ، فإن عجوزا رد عليها وإلا رد في نفسه ، وكذا لو عطست هي كما في (الخلاصة) ، وفي (المجتبى) أنه لا بأس بأن يتكلم مع النساء بما لا يحتاج إليه ، وليس هذا من الخوض فيما لا يعنيه ، إنما ذلك في كلام فيه إثم ، وصوت المرأة عورة على الراجح .

وفي شرح الكرخي : النظر إلى وجه الأجنبية الحرة ليس بحرام ولكنه يكره لغير حاجة وإلا فحرام ، ويقول ابن عابدين إن ظاهره الكراهة

ولو بلا شهوة وإن كان عن شهوة حرم ، وأما في زماننا فيمنع من الشابة ، ويجب على الشاهد والقاضى أن يقصد الشهادة أو الحكم لا قضاء الشهوة تحرزا عن القبيح ، ولو أراد أن يتزوج فلا بأس أن ينظر إليها وإن خاف أن يشتهيها لقوله عليه الصلاة والسلام للغيرة بن شعبة حين خطب امرأة « انظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما » ، رواه الترمذى والنسائى وغيرهما ، لأن المقصود إقامة السنة لا قضاء الشهوة ، وفي « درر البحار وشرحه » لا يحل المس للقاضى والشاهد والخاطب وإن أمنوا الشهوة لعدم الحاجة ، فلو كان للمرأة ابن أمرد وبلغ للخاطب استواؤهما في الحسن ، فظاهر تخصيص النظر إليها أنه لا يحل للخاطب النظر إلى ابنها إذا خاف الشهوة ومثله بقتها ، وتقييد الاستثناء بما كان حاجة أنه لو اكتفى بالنظر إليها بمرة ، حرم الزائد لأنه أبيع لضرورة فيتقيد بها ، وظاهر ما فى (غرر الأفكار) جواز النظر إلى الكفين أيضا ، ويقول ابن عابدين إنه يظهر من كلامهم أنه إذا لم يمكنه النظر ، يجوز إرسال نحو امرأة تصف له حلاها بالطريق الأولى ولو غير الوجه والكفين ، فهل يحل لها أن تنظر للخاطب مع خوف الشهوة ! الظاهر نعم للاشتراك فى العلة المذكورة فى الحديث السابق بل هى أولى منه فى ذلك لأنه يمكنه مفارقة من لا يرضاها بخلافها .

وينظر الطبيب إلى موضع مرضها بقدر الضرورة إذ الضرورات تقدر بقدرها ، وكذا نظر قابلة وختان ، ويجوز أن ينظر إلى موضع الاحتقان لأنه مداواة ، ويجوز الاحتقان للمرض وكذا للهرال الفاحش ، وقال فى (الجوهرة) إذا كان المرض فى سائر بدنها غير الفرج ، يجوز النظر إليه عند الدواء لأنه موضع ضرورة ، وإن كان فى موضع الفرج فينبغى أن يعلم امرأة مداوئها ، لأن نظر الجنس إلى الجنس أخف ، فإن لم توجد وخافوا عليها أن تهلك أو يصبها وجع لا تحتمله ، يستروا منها كل شئ إلا موضع العلة ثم يداوئها الرجل ويغض بصره ما استطاع إلا عن موضع الجرح !

(٧) وذكر بعض الشافعية أنه كما يحرم النظر لما لا يحل ، يحرم التفكير فيه لقوله تعالى « ولا تمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض » ، فمنع من التمنى

كما منع من النظر ، وذكر العلامة ابن حجر في (التحفة) أنه ليس منه ما لو وطئ ، حللته متفكراً في محاسن أجنبية حتى خيل إليه أنه يطؤها ، ونقل عن جماعة منهم الجلال السيوطي والتقي السبكي أنه يحل لحديث « إن الله تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها » ولا يلزم من تخيله ذلك عزمه على الزنا بها ، وقيل ينبغي كراهة ذلك ، ورد بأن الكراهة لا بد لها من دليل ، وقال ابن الحاج المالكي إنه يحرم لأنه نوع من الزنا كما قال علماؤنا فيمن أخذ كوزاً يشرب منه فنصور بين عينيه أنه خمر فشربه ، أن ذلك الماء يصير حراماً عليه ، ورد بأنه في غاية البعد ولا دليل عليه ، ويقول ابن عابدين إن الأقرب لقواعد مذهبنا عدم الحل لأن تصور تلك الأجنبية بين يديه يطؤها فيه تصوير مباشرة المعصية على هيئتها فهو نظير مسألة الشراب ، فإن قلت لو تفكر الصائم في أجنبية حتى أنزل لم يفطر ، فإنه يفيد إباحته ، ولا يسلم بهذا فإنه لو نظر إلى فرج الأجنبية حتى أنزل لا يفطر أيضاً مع أنه حرام اتفاقاً^(١) .

(٨) فما حكم النظر إلى الصبي الأمرد ؟ ذكرنا أن ابن عابدين ذكر أنه تمنع المرأة الشابة من كشف الوجه بين رجال لا لأنه عورة بل لحوف الفتنة ، قال في (الناظر خاتمة) وفي (شرح الكرخي) « النظر إلى وجه الأجنبية ليس بحرام ، ولكنه يكره لغير حاجة ، وعن سيدي عبد الغني بيان الشهوة التي هي مناط الحرمة أن يتحرك قلب الإنسان ويميل بطبعه إلى اللذة وربما انتشرت آله إن كثر ذلك الميلان ، وقال عامة العلماء أن ميل بالقلب ويشتهي أن يعانقها ويقصد موافقتها ، وقال « الفهستاني » أن تميل النفس إلى القرب منها ومنه أو المس لها أوله مع النظر ، وعدم الشهوة أن لا يتحرك قلبه إلى شيء من ذلك بمنزلة من نظر إلى ابنه الصبيح الوجه وابنته الحسناء ، فيحرم النظر إلى وجهها ووجه الأمرد إذا شك في الشهوة ، أما بدونها فيباح ولو جميلاً ، اعتمده الكمال ، والأمرد كما في القاموس هو الشاب الذي طر شاربه ولم تنبت لحيته ، وجاء في (الملتقط) و (الهندية) : الغلام إذا بلغ مبلغ الرجال ولم يكن

(١) راجع ص ٣٢٠ — ٣٢٩ من ابن عابدين ج ٥ . وراجع ص ٣٧٠ — ٣٧٦ من وحى الأحاديث الحمديّة لمحمود علي قراعة ج ٢ .

صبيحا فحكمه حكم الرجال ، وإن كان صبيحا فحكمه حكم النساء ، وهو عورة من قرقه إلى قدمه ! قال السيد الإمام أبو القاسم : يعنى لا يحل النظر إليه عن شهوة ، وأما الخلوة والنظر إليه لا عن شهوة فلا بأس به ، ولهذا لم يؤمر بالنقاب ، ويقول ابن عابدين : وهذا شامل لمن نبت عذاره بل بعض الفسقة يفضل على الأمر خالي العذار ، والظاهر أن طرور الشارب وبلوغه مبلغ الرجال غير قيد بل هو بيان لغايته وأن ابتداءه من حين بلوغه سنا تشتهيه النساء .

والمراد من كونه صبيحا أن يكون جميلا بحسب طبع الناظر إليه ولو كان أسود لأن الحسن يختلف باختلاف الطبائع ، قال ابن القطان : أجمعوا على أنه يحرم النظر إلى غير الملتحي بقصد التلذذ بالنظر وتمتع البصر بمحاسنه ، وأجمعوا على جوازہ بغير قصد اللذة والناظر مع ذلك آمن الفتنة ، وقال فحل : النظر منوط بعدم خشية الشهوة مع عدم العورة ، وفي (السراج) لا عورة للصغير جدا ما لم يشتهه ، فقبل ودبر ثم تغلظ إلى عشر سنين ، ثم كبالغ ، وفي (الأشباه) يدخل على النساء إلى خمسة عشر سنة ، ويمنع من كشف ربع عضو من عورة غليظة أو خفيفة ، والغليظة قبل ودبر ونحوهما ، والخفيفة ما عدا ذلك .

ويقول ابن عابدين إن الحاصل أن مجرد النظر واستحسانه لذلك الوجه الجميل وتفضيله على الوجه القبيح كاستحسان المتاع الجزيل ، لا بأس به ، فإنه لا يخلو عنه الطبع الإنساني ، بل يوجد في الصغار ، فالصغير المميز يألف صاحب الصورة الحسنة أكثر من صاحب الصورة القبيحة ويرغب فيه ويحبه أكثر ، بل قد يوجد ذلك في البهائم ، فليس هذا نظر شهوة ، وإنما الشهوة ميّله بعد هذا ميل لذة إلى القرب منه أو المس له زائدا على ميّله إلى المتاع الجزيل أو الملتحي ، لأن ميّله إليه مجرد استحسان ليس معه لذة ، وتحرك قلبه إليه كما في ميّله إلى ابنه أو أخيه القبيح ، وفوق ذلك الميل الميل إلى التقبيل أو المعانقة أو المباشرة أو المضاجعة ولو بلا تحرك آلة ، وأما اشتراطه في حرمة المصاهرة فلعله للاحتياط ، إذ حد الشهوة في المس والنظر الموجبة لحرمة المصاهرة تحرك آله أو زيادته ، به يفتى ، في نحو شيخ تحرك قلبه أو زيادته ، وصرح

بعضهم في حرمة المصاهرة بأنها لا تثبت برؤية فرج من مرآة أوماء ، لأن المرتضى مثلاً مثاله لا عينه ، بخلاف ما لو نظر من زجاج أوماء هي فيه لأن البصر ينفذ في الزجاج والماء فيرى ما فيه ، ولا يخفى أن الأحوط عدم النظر مطلقاً ، قال في (التارخانية) : وكان محمد ابن الحسن صبيحاً وكان أبو حنيفة يجلسه في درسه خلف ظهره أو خلف سارية مخافة خيانة العين مع كمال تقواه^(١) .

(٩) ولقد ذكرت في كتابي الحياة الزوجية أن أول أسباب أزمة الزواج انحلال المعاني الأخلاقية ، ففي الشارع ترى الفتيات كالظباء النافرات يرتدين من الأزياء ما يبدين به زينتهن بل ما يشف عما تحته فيكن شبه عاريات ، وفي عربات الترام يزاحن الرجال في أماكنهم ويبدن من الحركات والإشارات ورقائق الحديث ومغري الضحكات ما يلفتن به الأنظار ، وفي السينما يجتمعن بالفتيان ويحاولن أن يمثلن مع من يجاورهن عين ما يبدو على الخياله ، وفي المراقص يراقصنهم فيخاصروهن !

وفي (الباتيناج) يتمايلن عليهم ، وعلى شاطئ البحر يلبسن (المايوهات) فيبدن ما أخفين طول العام ويظهرن فيها عاريات إلا من غطاء رقيق للعورات الكبرى ، ويختلطن بالفتيان وهم بنفس اللباس العاري ، وينزلن معهم في البحر سباحات مع سباحين وسباحين مع سباحات ، وبذا ترى هذا الانحلال الأخلاقي قد دعا للتلاق والتعارف السهل الرخيص بين الفتيات والفتيان وأدى التعارف للاجتماع فالخلوة ، ولا أريد أن أتحدث عما يجره هذا الاجتماع وما تدعو إليه هذه الخلوة من غير أن أذكر أن كثيراً من الأمهات الجاهلات يشجعن بناتهن على هذا ظناً منهن أنه داعية للزواج ! وأعرف أسراً كثيرة محترمة تتودد

(١) راجع ص ٣٧٩ — ٣٨٠ من ابن عايد بن ج ١ و ٣٢٠ — ٣٢٧ ج ٥ و ٣٧٦ — ٣٨٠ من وحى الأحاديث الحمديّة لمحمود علي قراءة ج ٢ . واختلف العلماء في مسألة اللاتط فقال مالك والشافعي وأبو حنيفة وأصحابهم ، لا يحرم النكاح بالواط ، ونال النووي إذا لم بالصبي حرمت عليه أمه وهو قول أحمد بن حنبل ، قال : إذا تلوط بابتن امرأته أو أبيها أو أخيها حرمت عليه امرأته ! وقال الأوزاعي ؛ وإذا لاط بغلام وولد المفجور به بنت ، لم يجوز للفاجر أن يتزوجها ، لأنها بنت من قد دخل به ، وهو قول أحمد بن حنبل . راجع ص ١١٦ من تفسير القرطبي الجزء الخامس .

للفتيان وتشجع اجتماعهم بفتياتهن عسى أن يجد أحدهم رغبته في الزواج من إحداهن ، حتى يدعو ترك الحبل على الغارب إلى فضيحة يرفض بعدها أذل نذل من فتياننا الزواج من الفتاة المسكينة البائسة التي خدعها بحجة أنه لم يخدعها وحده وأنها لم تصادقه وحده، وأنه وإن كان ماجناً مستهتراً إلا أن كرامته تأتي عليه أن يكون زوجاً لمن عرضت نفسها رخيصة عليه وعلى غيره ، لأنه يخشى أن تفرط في عرضها بعد أن يربطهما رباط الزوجية المقدس كما فرطت فيه قبل أن يربطها بهذا الرباط !

فالفتيان بهذا الانحلال الأخلاقي يتمتعون برؤية جمال الوجوه والأجسام واللبس والمداعبة من غير قيد ، فقد يرون فيه لذة تغنيهم عن قيود الزواج ، ولا رادع لهم ولا حجة لما ضدهم إلا بتقوية الوازع الديني في نفوسهم ومنع أسباب الفساد عنهم ، فأنه في شرعه الشريف جعل عورة المرأة كل جسمها عدا وجهها وكفيها وقدميها ، فلا معنى لأن نجعلها تبدى للرجل كل جسمها عارياً أو شبه عارثم نقول له اغضض من طرفك ، لأن الدين حقيقة بأمره بغض طرفه ولكنه في نفس الوقت يأمر المرأة بالاحتشام وألا تقدم للرجل بخلاعتها أسباب الفساد ، والدين جعل عورة الرجل إلى الركبتين ، فلا معنى لأن يلبس الفتى لباساً يحد جسمه ويرى الفخذين أو ما فوقهما ثم نقول للمرأة غضي من طرفك لأن للطبيعة الإنسانية ميوها وتفاعلاتها^(١) !

(١٠) ما حكم سماع الغناء ؟ يقول الغزالي إنه لا يدل على تحريم السماع نص ولا قياس ، بل قد ورد النص والقياس جميعاً على إباحته ، أما القياس فهو أن الغناء سماع صوت طيب موزون مفهوم المعنى محرك للقلب ، ولكن يحرم السماع بخمسة عوارض : أن يكون المسمع امرأة لا يحل النظر إليها وتخشى الفتنة من سماعها (وفي معناها الصبي الأرمـد الذي تخشى فتنته) وأن تكون الآلة من شعار أهل الشرب ، أو المخنثين (وهي المزامير والأوتار وطبل الكوبة) ، وأن يكون في نظم الصوت وهو الشعر شيء من الخنا والفحش وهجو غير

(١) راجع ص ٣٢ — ٣٤ من الحياة الزوجية من الوجهتين التشريعية والاجتماعية لمحمود على فراءة.

الكفار وأهل البدع والكذب على الله ورسوله ، وكذلك ما فيه وصف امرأة بعينها (وأما النسب وهو التشبيب بوصف الحدود والأصداغ وحسن القد والقامة وسائر أوصاف النساء ، فلا يحرم نظمه وإنشاده بلحن وغير لحن ، وعلى المستمع أن لا ينزله على امرأة معينة ، فإن أنزله فلينزله على من يحل له من زوجته ، فإن أنزله على أجنبية فهو العاصي بإجالة الفكر فيه) وأن تكون الشهوة غالبة على المستمع وكان في غرة الشباب ، وأن يتخذ دينه وهجيره ويقصر عليه أوقاته (إذ ترد شهادته لسفاهته ، لأن السماع ولو أنه لذة مباحة إلا أنه لهو ، والمواظبة على اللهو جناية دينية ^(١) .

والمدرک الآن أن إذاعة الغناء — لـ « ولد الهدى ، و « نهج البردة ، والدعاء و « يارب سبوح بحمدك كل شيء حى ، وما إليها ، والأذان بالصوت الطيب — تفعل في النفوس ما لا تفعله المواعظ ، إذ تصل إلى القلوب وتضرب على أوتارها الحساسة ا

(١) راجع ص ١١١ من الثقافة الروحية في كتاب أحياء علوم الدين للغزالي للمحمود على قراءة .

الفضيلة الرابع

المعاشرة والألفة والصحبة في الإسلام

علم ابن سوار ابن أخته سهل بن عبد الله التستري
كيف يذكر خالقه ، إذ قال له اذكره بقلبك
عند قلبك في ثيابك ثلاث مرات من غير أن
تحرك به لسانك « الله معي ، الله ناظر إلي ،
الله شاهدي » ، ثم زاد إلى سبع مرات ثم إلى
أحدى عشرة مرة ، فوقعت في قلبه حللته ،
فاتهز خاله شعوره بهذه اللذة ، وقال له « من
كان الله معه وناظر إليه وشاهده أيعصيه ؟ ! .
إياك والمعصية ! » . الغزالي في الإحياء

إن من المقاصد الدينية والدينية ما يستفاد بالغير ، ولا يحصل ذلك
إلا بالمخالطة ، وذكر الغزالي لذلك سبع فوائد نجملها فيما يلي : التعليم والتعلم
والانتفاع والتجارب والممارسة والتأديب والتأدب ونيل الثواب وإيمانه
والتواضع والاستئناس والإيناس ، ولكنه مع ذلك يرى للعزلة ست فوائد
خلاصتها : التفرغ للعبادة إذ قال الله تعالى : « وما خلقت الجن والإنس
إلا ليعبدون » ، والتخلص بالعزلة عن المعاصي التي يتعرض الإنسان لها غالبا ،
والخلاص من شر الناس ، وأن ينقطع طمعهم عنك وينقطع طمعك عنهم ،
والخلاص من مشاهدة الثقلاء والحقى وأخلاقهم ! ولكنه يرى مع هذا أن
الحكم على العزلة مطلقا بالتفضيل نفيا وإثباتا خطأ ، بل ينبغي أن ينظر إلى
الشخص وحاله وإلى الخليط وحاله وإلى الباعث على مخالطته وإلى الفئات بسبب
مخالطته ، ويقاس الفئات بالحاصل ، فعند ذلك يتبين الحق ويتضح الأفضل ،
ولذلك يجب الاعتدال في المخالطة والعزلة !

وأكثر ما يسمى المعاشرة ما يسميه الغزالي آفات اللسان ، وهي فيما بين الناس :

١ — المراء والجدال : وحد المراد هو كل طعن في كلام الغير بإظهار خلل فيه إما في اللفظ أو في المعنى أو في قصد المتكلم ، والجدال عبارة عن أمر يتعلق بإظهار المذاهب وتقريرها ، والخصومة لجاج مذموم في الكلام ، وتركه يكون بالتصديق بكل كلام سمعته إن كان حقا والسكوت عنه إن كان كذبا ولم يكن متعلقا بأمور الدين ، ولا يحرم على المظلوم أن ينصر حجته بطريق الشرع من غير لدد وإسراف ومن غير قصد عناد وإيذاء ، والأولى تركه !

٢ — الفحش والسب وبذاءة اللسان واللعن : وهو منهي عنه !

٣ — المزاح : والمنهي عنه الإفراط فيه ، لأنه يورث كثرة الضحك التي تميمت القلب وتورث الضغينة في بعض الأحوال وتسقط المهابة والوقار ، أما الاستهزاء وهي الاستهانة والتحقير والتنبيه على العيوب والنقائص على وجه يضحك منه بالمحاكاة في الفعل والقول أو بالإشارة والإيماء ، فحرام مهما كانت مؤذية !

٤ — إفشاء السر : وهو حرام إذا كان فيه إضرار ، ولوم إن لم يكن فيه إضرار !

٥ — الوعد الكاذب : ومن وعد وهو على الخلف أو ترك الوفاء من غير عذر ، فهو منافق !

٦ — الكذب في القول واليمين : وبه يعتقد المخبر الشيء على خلاف ما هو عليه فيكون جاهلا ، وقد يتعلق به ضرر غيره ، ويرى الغزالي أن الكلام وسيلة للبقايد ، فكل مقصود محمود يمكن التوصل إليه بالصدق والكذب جميعا ، فالكذب فيه حرام ، وإن أمكن التوصل إليه بالكذب دون الصدق ، فالكذب فيه مباح إن كان تحصيل ذلك القصد مباحا ، وواجب إن كان المقصود واجبا ، ولكن الحد فيه أن الكذب محذور ، فإذا علم أن المحذور الذي يحصل بالصدق أشد وقعا في الشرع من الكذب فله الكذب ، وإن كان ذلك المقصود

أهون من مقصود الصدق فيجب الصدق ، « ويتقابل الأمران بحيث يتردد فيهما ، وعند ذلك الميل إلى الصدق أولى لأن الكذب يباح لضرورة ، فإن شك كون الحاجة مهمة فالأفضل التحريم فيرجع إليه ، !

٧ — الغيبة : وهي أن تذكر أخاك بما يكرهه سواء ذكرته بنقص في بدنه أو نسبه أو خلقه أو فعله أو قوله أو دينه أو دنياه ، وهي حرام لأن فيها تفهيم الغير نقصان شخص معين — حتى أو ميت — فالتعريض به كالتصريح والفعل فيه كالقول والإشارة والإيحاء والغمز والكتابة والحركة ! وكذلك يحرم سوء الظن (أى عقد القلب وحكمه على الغير بالسوء ، أما الخواطر والشك وحديث النفس فيعني عنها) لأن أسرار القلوب لا يعلمها إلا الله ، فليس لك أن تعتقد في غيرك سوءاً إلا إذا انكشف لك ببيان (تشاهده بعينك أو تسمعه بأذنك) لا يقبل التأويل ، ومن ثمرات سوء الظن التجسس ! والمرخص في ذكر مساوئ الغير أغراض صحيحة في الشرع لا يمكن التوصل إليها إلا به ، وهي ستة أمور : التظلم والاستعانة على تغيير المنكر ورد المعاصي إلى منهج الإصلاح والاستفتاء وتحذير المسلم من الشر وأن يكون الإنسان معروفاً بلقب يعرب عن عيبه (كالأعرج) وأن يكون مجاهراً بالفسق . ويجب على المغتاب أن يتوب ويندم على ما فعله ليخرج به من حق الله ، ثم يستحل المغتاب (وهو حزين في باطنه متأسف على فعله) ليحله فيخرج من مظلمته ، وسبيله أن يبالغ في الثناء عليه والتودد إليه ويلازم ذلك حتى يطيب قلبه ، وإلا كان اعتذاره حسنة محسوبة له !

٨ — النيمة : وهي إفشاء ستر الغير عما يكره كشفه سواء كان الكشف بالقول أو بالكتابة أو بالرمز أو بالإيحاء ، وسواء كان المنقول من الأعمال أو من الأقوال ، وسواء كان ذلك عيباً ونقصاً في المنقول عنه أو لم يكن ، وسواء كرهه المنقول عنه أو المنقول إليه أو كرهه ثالث . واسم النيمة إنما يطلق على الأكثر على من ينم قول الغير إلى المنقول فيه ، فإن كان إلى من يخاف جانبه ، فهي سعاية ! ومذموم كلام ذي اللسانين الذي يتردد (نفاقاً) بين

المتعادين ويكلم كل واحد منهما بكلام يوافق (أى يجرى مع كل ربح فهو على قول ابن مسعود إمعة) فينقل كلام كل منهما إلى الآخر أو يحسن لكل منهما ما هو عليه من المعادة لصاحبه أو يعد كلا منهما أن ينصره أو يثنى على كل منهما فى معاداته وإذا خرج من عنده يذمه) ١

٩ — المدح : وهو منهى عنه فى بعض المواضع ، فالمادح قد يفرط فينتهى به إلى الكذب ، وقد يكون منافقا لأنه بالمدح مظهر للحب وقد لا يكون مضمرا له ولا معتقدا لجميع ما يقوله ، وقد يقول ما لا يتحققه ولا سبيل له إلى الاطلاع عليه ، وقد يفرح الممدوح وهو ظالم أو فاسق وذلك غير جائز ، وقد يرضى عن نفسه فلا يعمل ، فإن سلم المدح من هذه الآفات لم يكن به بأس ، بل ربما كان مندوبا إليه ١

وكذلك يسىء المعاشرة مع الناس الكبر والغضب والحقد والحسد ١ وفى قوة الغضب يقسم الغزالي الناس على درجات ثلاث ، يذم منها التفريط بفقد هذه القوة أو ضعفها ، إذ ثمرة هذه الحمية الضعيفة قلة الأنفة مما يؤثف منه من التعرض للحرم والزوجة واحتمال الأذى من الأخساء وصغر النفس والقهاة والخور فى السكوت عن مشاهدة المنكرات والعجز عن رياضة النفس عند الميل إلى الشهوات الخسيسة ! وكذلك يذم الإفراط فى الغضب وهو أن يغلب حتى يخرج عن طاعة العقل والدين ولا يبقى للبر بصيرة ونظر وفكرة الاختيار ، وأما الغضب المحمود فهو الذى ينتظر إشارة العقل والدين فينبعث حيث تجب الحمية وينطفىء حيث يحسن الحلم ، وهو الوسط الحق بين الطرفين ، والعنف والحدة نتيجة الغضب والفظاظة ، يضاده الرفق واللين ثمرة حسن الخلق ، والكامل من يميز مواقع الرفق عن مواقع الضعف فيعطى كل أمر حقه ، فإن كان قاصر البصيرة أو أشكل عليه حكم واقعة من الوقائع ، فليكن ميله إلى الرفق فإن النجاح معه أكثر ١

ويقول الغزالي إن أسباب الكبر الظاهر أربعة : العجب والحقد والحسد والرياء ، ويقول إن الغضب إذا لزم كظمه لعجز عن التشفى فى الحال ، رجع

إلى الباطن واحتقن فيه فصار حقدا ، ومعنى الحقْد أن يلزم قلبه استثقاله
والبغضة له والنفار عنه ، وأن يدوم ذلك ويبقى^(١) .

٢ — هذا وللجار على الجار حقوق كثيرة نص عليها في كثير من الأحاديث
النبوية الشريفة ومن أهمها عدم الإضرار به في نفسه أو ماله أو عرضه ، فوجب
مراعاة هذه الحقوق وعدم الإخلال بها وذلك بالعمل على منع ما يضر بالجار
قبل حدوثه وإزالته بعد حدوثه ، وحق الجار في السكن على جاره ألا يضر به
جاره ضررا فاحشا ، وكل ما يمنع الحوائج الأصلية للسكنى يعد ضررا فاحشا
يجب رفعه وما لا.. فلا ، ومن الحوائج الأصلية للسكاكن أن يكون هواؤه الذي
يستنشقه هو وأسرته خاليا مما يفسده فسادا فظيعا وخصوصا إذا كان مستمرا
وذلك كتراب البيدر ودخان الحمام ، كما أن مما يلزمه أيضا ألا يحلب هواؤه عليه
رائحة كريهة لا يطبق المقام معها كالرائحة الآتية من ديدان الإبريسم بعد موتها
ومن مدبغة الجلود ومن معصرة الزيوت ، فإذا حصل من الجار شيء مما ذكر
كان للجار المتضرر أن يطلب رفعه ، ولا يجوز للجار أن يعمل عملا يضر ببناء
جاره ويتلفه فلو فعل شيئا من ذلك أمر برفعه ، والضرر بعمل ما يوهن البناء
يجب رفعه كالضرر بعمل ما يتلف البناء ، كما أنه يجب منع الضرر عن نفس
الجار وعن بنائه ، يجب منع الضرر عن ماله ، فإذا عمل الجار عملا يضر بمال
جاره ضررا ينقص قيمته ، كلف برفع هذا الضرر ، ومثال ذلك لو أحدث رجل
دكان طبابخ في سوق البزازين وكان الدخان يضر بأمّعة الجار ضررا فاحشا
فإنه يكلف برفعه ، وكذلك الجار يتضرر أكبر الضرر بعمل ما يمكن الغير من
الإطلاع على نسائه والنظر إليهن وخصوصا في منزل سكناه وفي الأماكن التي
لا يمكن فيها للنساء عادة أن تتجنب كشف شيء من عورتها فيها ، لأنها في منزل
سكناها إما أن تكون منفردة أو مع بنات جنسها أو مع زوجها أو محارمها من
الرجال وهي مع هؤلاء لا يلزمها أن تحتاط وتحافظ على ألا ينكشف شيء من

(١) راجع ص ١٤٨ — ١٦٨ من الثقافة الروحية في كتاب احياء علوم الدين للقرآلى بقلم
محمود على قراءة .

جسمها ، فإذا عمل شخص على أن يتمكن من الإطلاع عليهن وهن في مساكنهن وقد يكن في حالة بعيدة عن الإحتشام ، كان في ذلك أكبر الضرر وللتضرر أن يطلب إزالته ، ومقر النساء هو المحل الذي لا يمكن الاستغناء عنه غالباً كصحن الدار والبئر والمطبخ وفيما عدا ذلك ينظر إن كان جلوسهن فيه غالباً فهو كصحن الدار وإلا . . لا ، وعلى هذا فإن الجنية لاتعد مقراً للنساء ولو كانت النساء تخرج إليها في بعض الأوقات ، فإذا كان لرجل دار لا يرى منها مقر نساء جاره ولكن ترى جنيته ، فليس له أن يكلفه منع نظارته من تلك الجنية بمجرد خروج نسائه إليها في بعض الأوقات وترددهن إليها ، وعلى هذا فالضرر الذي يلزم برفعه يشترط فيه شروط ثلاثة وهي أن يكون فاحشاً وأن يكون متيقناً لامتوهما وألا يكون للضرر دخل فيه ، فإذا انعدم شيء من هذه الشروط الثلاثة لم يكن للضرر الحق في طلب رفع الضرر^(١) .

٣ - ويقول الغزالي إن للنكاح فوائد وأفات على العبد أن يوازن بينهما ويرجح الأصلح له منهما ، فأفاته ثلاث : العجز عن طلب الحلال لأن المتزوج في الأكثر يتبع هوى زوجته ويبيع آخرته بديناره ، والقصور عن القيام بحق الزوجة ، وأن يكون الأهل والولد شاغلاً له عن الله تعالى وجاذباً له إلى طلب الدنيا وحسن تدبير المعيشة للأولاد بكثرة جمع المال وإدخاره وطلب التفاخر والتكاثر بهم .

وأما فوائده فخمسة : الولد (وهو الأصل وله وضع النكاح ، وإنما الشهوة خلقت باعثة مستحثة) ، والتحصن عن الشيطان وكسر التوقان وغض البصر وحفظ الفرج وترويح النفس وإيناسها بالمجالسة والنظر والملاعبة وإراحة القلب وتقوية له على العبادة وتفريغه عن تدبير المنزل والتكفل بشغل الطبخ والكنس والفرش وتنظيف الأواني وتهئية أسباب المعيشة ومجاهدة النفس ورياضتها بالرعاية والولاية والقيام بحقوق الأهل والصبر على أخلاقهن

(١) راجع ص ١٦ - ٢٥ من دروس المعاملات الشرعية لوالدنا فضيلة الشيخ على قراءة .

واحتمال الأذى منهن والسعى في إصلاحهن وإرشادهن إلى طريق الدين والاجتهاد في كسب الحلال لأجلهن والقيام بتربيته لأولاده !

ويقول الغزالي إن الصبي أمانة عند والديه ، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة خالية من كل نقش وصورة ، ومائل إلى كل ما يميل إليه به ، فإن عود الخير وعلمه نشأ عليه وسعد في الدنيا والآخرة وشاركه في ثوابه أبواه ، ومهما كان الأب يصونه عن نار الدنيا ، فبأن يصونه من نار الآخرة أولى ، وصيافته بأن يؤدبه ويهذبه ويعلمه محاسن الأخلاق ويحفظه من القرناء السوء ولا يعود به التنعم ولا يحبب إليه الزينة وأسباب الرفاهية فيضيع عمره في طلبها إذا كبر فهلك هلاك الأبدي ، بل ينبغي أن يراقبه من أول الأمر .
أى أن الغزالي يرى أن الصبي بجوهره خلق قابلاً للخير والشر جميعاً ، وإنما أبواه يميلان به إلى أحد الجانبين فمراقبة الله فيه الميل به للخير .

٤ — وصلة المعاملات المادية مع الناس لا يخرج إنسان عنها إذ لا بد له من نوع معاملة في سعيه لكسب عيشه ، ولما كان الله تعالى قد قال في كتابه العزيز : «كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً» ، احتجنا لمعرفة الحلال والحرام . ويرى الغزالي وجوب أن لا يقتصر الإنسان على اجتناب الحرام بل يتقى مواقع الشبهات ومظان الريب ولا ينظر إلى الفتاوى بل يستفتى قلبه فإذا وجد فيه حزاظة اجتنبه ، وإذا حملت إليه سلعة رابه أمرها فليسأل عنها حتى يعرف وإلا كان آكل شبهة (فإن كان المتعامل تاجراً ، وجب أن ينظر إلى من يعامله ، فكل منسوب إلى ظلم أو سرقة أو ربا فلا يعامله) .

ويقول الغزالي إن «كل من يحب في الله ، لا بد أن يبغض في الله ، فإنك إن أحببت إنساناً لأنه مطيع لله ومحبوب عند الله ، فإن عصاه فلا بد أن تبغضه ، فإذا اجتمع في شخص واحد خصال يحب بعضها ويكره بعضها ، فإنك تحبه من وجه وتبغضه من وجه ، وإظهار البغض إما بالقول فكيف اللسان عن مكالمته ومحدثه مرة ، وبالاستخفاف والتغليظ أخرى ، وإما بالفعل فبقطع السعى عن إعانته مرة وبالسعى في إساءته وإفساد مآربه أخرى ، وبعض هذا

أشد من بعض ، وهو بحسب درجات الفسق والمعصية الصادرة منه ، أما ما يجرى بجرى الهفوة التي يعلم أنه يتندم عليها ولا يصبر عليها ، فالأولى فيه الستر والاعراض ، ! وتطبيقاً على هذا المبدأ نرى الغزالي يقول إن الأولى الإعراض عن بعض بفعل يتأذى به غيره بل الاستحباب في إهاتهم (وذلك كالظلم في الدماء والأموال والأعراض — وبعضها أشد من بعض — وكن يدعو غيره للفساد كصاحب الماخور الذي يجمع بين النساء والرجال ويهيء أسباب الفساد) ، وكذلك يرى الاستحباب في إظهار بغض المبتدع الذي يدعو إلى بدعته ، ومعاداته ، والانقطاع عنه وتحقيره والتشنيع عليه ببدعته وتنفير الناس عنه أشد (كترك الجواب عن سلامه في ملأ ، أما إن سلم في خلوة فلا بأس برد جوابه) ، وأما الكافر فيقتل ويرق إن كان محارباً ، وأما الذمي فيرى أنه لا يجوز إيذاؤه إلا بالإعراض عنه والتحقير له بالاضطرار إلى أضييق الطرق وبترك المفاتيح بالسلام ، فإذا قال السلام عليك قلت وعليك ، ويرى أن الأولى الكف عن مخالطته ومعاملته ومواكلته ، وأن الانبساط معه والاسترسال إليه كما يسترسل إلى الأصدقاء مكروه كراهة شديدة يكاد ينتهي إلى حد التحريم ! وأما الذي يفسق في نفسه بمقارفة محذور يخصه كالذي يشرب ويزني ، فيرى أنه في وقت مباشرته إن صودف يجب منعه بما يمتنع به ولو بالضرب والاستخفاف^(١) وإذا فرغ منه وعلم أن ذلك من عاداته وهو مصر عليه فيجب نصحه إن تحقق أن نصحه يمنع من العود إليه ، وإن لم يتحقق ولكنه كان يرجو فالأفضل النصح والزجر بالتلطف أو بالتغليظ إن كان هو الأنفع (والمستفتى فيه هو القلب في الإعراض عن جواب سلامه والكف عن مخالطته حيث يعلم أنه يصبر وأن النصح ليس ينفعه) .

وغير المسلمين ينقسمون إلى مشرك نجس (ويدخل فيهم الوثنيون والمجوس والطبيعون) وإلى كتابيين (وأظهرهم الآن المسيحيون واليهود) ، والفريق الأول لكثرة عدده في العالم أرى أن نخوتنا الدينية توجب على خاصتنا

(١) ونرى وجوب ترك عقوبة الفعل لأولياء الأمور ، منعاً من الفوضى وإساءة استعمال هذا الحق ، فيؤدى إلى الجرائم !

الاتصال به لكي ننشر الدعوة الإسلامية بين ظهرائهم ، وهذا لا يكون بالابتعاد والعنف بل يكون بالتودد واللطف ، وأما الفريق الثاني فأرى أنه ما دامت المعاملات المادية تقتضى الاتصال ، ويدعو هذا الاتصال إلى الحسنى فى المعاملة والإخلاص فيها ، وما دامت الإنسانية تقرر اجتماعنا جميعا فى الشعور باللذة والألم ، وإن اختلف هذا الشعور واختلفت درجته من حيث السمو الروحى ، وما دام الناس جميعا عباداً لله ، فيجب أن نحب فيهم محاسنهم الخلقية والمعنوية لهذا المعنى ، وما دام القلب لا يمكن قراءته والخاتمة لا يستطيع معرفتها ، فقد يكون مؤمناً سرا بقلبه وقد يموت مسلماً ، وما دام هذا كذلك فالرأى وجوب أن نفهم أن اختلاف الأديان أمر أرادته الله إذ قال فى كتابه الكريم « إنك لا تهدى من أحبيت ، ولكن الله يهدى من يشاء » وقال « قل الحق من ربكم ، فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر » وقال « لا إكراه فى الدين ، قد تبين الرشد من الغى » ، فيجب أن نعامل غير المسلمين نفس المعاملة الآمنة التى نعامل بها المسلم ، وفى تعميم حديث « خاب عبد خسر ، لم يجعل الله فى قلبه رحمة للبشر » خير دليل على ذلك ١

وقد وضع لنا النبي الكريم وأصحابه أسوة حسنة إذ كانوا يحضرون ولائم غير المسلمين ويغشون مجالسهم ويشيعون جنازهم ويعزونهم فى مصائبهم ، وأمرنا الإسلام بمساواتهم أمام القانون وأن نوفيهم حقوقهم كاملة ولا نبخسهم منها شيئاً ، بل لقد أمرنا الله فى كتابه العزيز أن نعامل غير المسلمين كما نعامل المسلمين بمكارم الأخلاق عن صفاء نية لا مواربة ومداهنة خوفاً منهم أو طمعاً فيهم فقال « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم . أن تبروهم وتقسطوا إليهم ، إن الله يحب المقسطين » ، فيجب أن نعامل مجموعهم معاملة صافية وصاديقهم معاملة مخلصه آمنة ، وأن نحب فيهم ما يحب من جمال حسى وخلقى ومعنوى ، وأن نكره فيهم ما يكره من قبح وأقبح القبح سوء العقيدة وفسادها ، ولكن إذا كرهنا سوء العقيدة فليس معنى هذا البغض لمعتنقيها ، لأنه يجب أن نحب لعباد الله جميعاً ما نحب لأنفسنا فيجب أن نحب

لفاسد العقيدة أن يقلع عنها ويرجع لربه ، فإذا رجع فرحنا برجوعه ، وإذا لم يرجع فقد يرجع يوماً ما وقد يكون راجعاً بالفعل ولكنه لا اعتبارات كثيرة يراها قد رجع سرا ، وإذا لم يرجع فأمره الله ويجب أن نحزن على عدم رجوعه لا أن نبغضه عليه لأننا لا ندري بماذا ختم له ، فقد يكون في ظاهره غير راجع وفي الحقيقة قد رجع ، والمعاملة الآمنة المخلصة على هذا الاعتبار حب في الله لأنك قد راقبت الله في معاملة عبد من عباده ، ولكن إذا ظهر من هذا الغير مسلم ما يدل على الإصرار على عقيدته بمحاربة الإسلام أو الطعن فيه أو إيذاء المسلمين لأنهم مسلمون أو العمل على إخراج مسلم عن دينه بالإغراء أو التفرير فهنا يجب بغضه (لعمله ولذاته) ويجب تحقيره والإزدراء به وقطع كل معاملة معه ، بل معاداته ، وهنا فقط يكون بغضه في سبيل الله ^(١) .

وفي هذا يقول فضيلة والدنا الشيخ على قراعة : العدو لا يمتنع عن مقاتلتك وإلحاق الضرر بك وإذلالك والسيطرة على نفسك وأهلك ومالك إلا إذا خاف منك ، ولا يخاف منك إلا حيث تكون قوتك أكثر من قوته ، وعدتك أشد من عدته ، وإذن تكون مصلحتنا في أن نكون أقوىاء ، ويكون أعداؤنا ضعفاء حتى نأمن . على أنفسنا الكرة علينا ، وحتى إذا اضطررنا لمحاربته نكون قد حاربنا ومعنا سلاحنا وما يرهب عدونا وما جعل عادة أداة للنصر والغلبة ، لهذا أمر الله سبحانه وتعالى المؤمنين بأن يعدوا لقتال أعدائهم ما استطاعوا من قوة بقوله تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ، ترهبون به عدو الله وعدوكم ، وآخرين من دونهم لا تعلمونهم ، الله يعلمهم ، والخطاب موجه لكافة المؤمنين ، لما أن المأمور به من وظائف الكل ، أي أعدوا لقتال الكفار ما استطعتم من قوة أي من كل ما يتقوى به في الحرب كائنا ما كان ، وما جاء في الحديث من أنه عليه الصلاة والسلام قال وهو على المنبر : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ، ألا إن القوة الرمي ، ألا إن القوة الرمي ، ألا إن القوة الرمي ، ليس فيه نفي أن يكون غيره من القوة ، بل عموم اللفظ شامل لجميع أنواع السلاح وآلات الحرب ، وهذا يقتضى أنا مأمورون

(١) راجع ص ١٠٧ — ١١٠ من الثقافة الروحية في كتاب أحياء علوم الدين للغزالي لمحمود على قراعة .

بأن نعد في البحر أدوات الحرب في البحر من غواصات وأساطيل وما إلى ذلك مما يعد في البحر ، ونعد في البر أدوات الحرب في البر من دبابات وغيرها مما يعد في البر ، ونعد في الجو أدوات الحرب في الجو من طائرات بأنواعها مما يعد في الجو ، ونعد الجيوش ومعها أسلحتها المختلفة مما يعد معها ، كما نعد الخيول والسيارات بجميع أنواعها اللازمة لتحرك الجيوش وأسلحتها ، وعلى الجملة نعد كل شيء يعد سلاحاً وأداة للقتال ، وهذا يختلف باختلاف الزمان والمكان ، وقد جعل الله سبحانه وتعالى وجوب إعداد القوة لإرهاب العدو فوجب أن يراعى في القوة أن تكون مرهبة للعدو ، والعدو لا يرهبه إلا سلاح أقوى من سلاحه وعدة أشد من عدته ، فوجب أن نعمل على أن يكون سلاحنا أقوى من سلاحه وجيشنا أقوى من جيشه ، ولنعلم أن عدونا لا يرهبه إلا قوتنا فمتى علم أننا أقوى ، يخشى بأسنا ويعمل على إرضائنا ويتجنب غضبنا ويخطب ودنا ، وإذا رأى ضعفنا استباح حرماننا وعمل على إخضاعنا واستغلال مواردها والاستمتاع بمنافعنا ، فلنعمل بما أوصانا به الله سبحانه وتعالى والله الهادي إلى سواء السبيل^(١) .

(١) راجع ص ١٦٥ - ١٦٨ من كتاب العلاقة الدولية في الحروب الإسلامية لوالدنا فضيلة الشيخ على قراءة .

الفصل الخامس

الإسلام وفعل الخير

« أشد الأعمال ثلاثة : إنصاف الرجل من نفسه
ومواساة الأخ في المال ، وذكر الله عز وجل »
حديث شريف

القرآن الكريم مملوء بما يفيد أن الجنة جزاء من عمل صالحا وجزاء من
اتقى ، وقد نعمتهم تارة بالمفلحين وتارة بالمحسنين ، ووعد بأنه لا خوف عليهم
ولا هم يحزنون ، وأنهم سينعمون برضى الله وجزائه وأن لهم البشرى بالآجر
العظيم والنعيم المقيم .

ويقول ابن القيم إن النار خلقت تخويفا للمؤمنين وتطهيراً للخاطئين
والمجرمين ، فهي طهرة من الخبث الذى اكتسبته النفس فى هذا العالم ، فإن
تطهرت ههنا بالتوبة النصوح والحسنات المباحية والمصائب المكفرة ، لم تحتاج
إلى تطهيرها هناك ، وقيل لها مع جملة الطيبين « سلام عليكم ، فادخلوها
(أى ادخلوا الجنة) خالدين ، وإن لم تتطهر فى هذه الدار ووافى الدار
الأخرى بدرنها ونجسها وخبثها ، أدخلت النار طهرة لها ، ويكون مكثها فى النار
بحسب زوال ذلك الدرن والخبث والنجاسة التى لا يغسلها الماء ، فإذا تطهرت
الطهر التام ، أخرجت من النار ،^(١) .

وقال الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه من خطبة له بعد تلاوة قول
الله تعالى « وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا » : قد أمن العذاب ، وانقطع
العتاب ، وزحزحوا عن النار ، واطمأنت بهم الدار ، ورضوا المشوى والقرار ،
الذين كانت أعمالهم فى الدنيا زاكية ، وأعينهم باكية ، وكان ليلهم فى دنياهم

(١) راجع ص ٤٣ — ١٠٢ من نعيم الجنة لمحمود على قراءة (الطبعة الثانية) وص ١٩٢
من حادى الأرواح لابن القيم (المجلد الثانى) .

نهاراً تخشعاً واستغفاراً ، وكان نهارهم ليلاً توحشاً وانقطاعاً^(١) ، فجعل الله لهم الجنة مآباً والجزاء ثواباً ، وكانوا أحق بها وأهلها ، في ملك دائم ونعيم مقيم^(٢) . .
وروى أن صاحباً لسيدنا علي ابن أبي طالب رضى الله عنه ، يقال له همام ، كان رجلاً عابداً فقال له : يا أمير المؤمنين صف لى المتقين حتى كأنى أنظر إليهم ! فتناقل عن جوابه ، ثم قال : يا همام اتق الله وأحسن . فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ، فلم يقنع همام بهذا القول حتى عزم عليه ، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : أما بعد ، فإن الله سبحانه وتعالى خلق الخلق حين خلقهم غنياً عن طاعتهم ، آمناً من معصيتهم ، لأنه لا تضره معصية من عصاه ، ولا تنفعه طاعة من أطاعه ، فقسم بينهم معيشتهم ووضعهم من الدنيا مواضعهم ، فالمتقون فيها هم أهل الفضائل ، منطلقهم الصواب ، وملبسهم الاقتصاد^(٣) ومشيمهم التواضع ، غضوا أبصارهم عما حرم الله عليهم ووقفوا أسماعهم على العلم النافع لهم ، نزلت أنفسهم منهم في البلاء كالتى نزلت في الرخاء ، ولولا الأجل الذى كتب عليهم لم تستقر أرواحهم فى أجسادهم طرفة عين شوقاً إلى الثواب وخوفاً من العقاب ، عظم الخالق فى أنفسهم فصغر ما دونه فى أعينهم ، فهم والجنة كمن رآها ، فهم فيها منعمون وهم والنار كمن رآها فهم فيها معذبون ، قلوبهم محزونة وشروهم مأمونة وأجسادهم نحيفة^(٤) وحاجاتهم خفيفة وأنفسهم عفيفة ، صبروا أياماً قصيرة ، أعقبتهم راحة طويلة ، تجارة مربحة ، يسرها لهم ربهم ، أرادتهم الدنيا فلم يريدوها ، وأسرتهم فقدوا أنفسهم منها ، أما الليل فصافون أقدامهم تالين

(١) يريد عدم استئناسهم بشؤون الدنيا والركون إليها .

(٢) راجع ص ٣٩ من نهج البلاغة ج ١ . ومن حكم الإمام على : صرارة الدنيا حلاوة الآخرة وحلاوة الدنيا صرارة الآخرة . يقول الإمام محمد عبده فى شرحها : حلاوة الدنيا باستيفاء اللذات ومرارتها بالعقاف عنها ، وفى الأول صرارة العذاب فى الآخرة ، وفى الثانى حلاوة الثواب فيها . راجع ص ١٩٩ من نهج البلاغة ج ٢

(٣) يقول الإمام محمد عبده إن المعنى أنهم لا يأتون من شهواتهم إلا بقدر حاجتهم فى تقويم حياتهم ، فكان الإنفاق كثوب لهم على قدر أبدانهم ، اسكنهم يتوسعون فى الخيرات .

(٤) من الفكر فى صلاح حالهم ودينهم .

لأجزاء القرآن يرتلونه ترتيلاً ، يحزنون به أنفسهم ويستشيرون دواء داءهم ، فإذا مروا بآية فيها تشويق ركضوا إليها طمعا وتطلعت نفوسهم إليها شوقاً وظنوا أنها نصب أعينهم ، وإذا مروا بآية فيها تخويف أصغوا إليها مسامع قلوبهم ، وظنوا أن زفير جهنم وشبهقها في أصول آذانهم ، فهم حائون على أوساطهم مفترشون لجباههم وأكفهم وركبهم وأطراف أقدامهم ، يطلبون إلى الله تعالى فكاك رقابهم ، وأما النهار فخلاء علماء أبرار أتقياء قد براهم الخوف برى القداح ، ينظر إليهم الناظر فيحسبهم مرضى وما بالقوم من مرض ، ويقول قد خولطوا^(١) ولقد خالطهم أمر عظيم^(٢) لا يرضون من أعمالهم القليل ولا يستكثرون الكثير ، فهم لأنفسهم متهمون ، ومن أعمالهم مشفقون^(٣) ، إذا زكى أحدهم^(٤) خاف مما يقال له فيقول أنا أعلم بنفسى من غيرى وربى أعلم بى من نفسى ، اللهم لا تؤاخذنى بما يقولون واجعلنى أفضل مما يظنون ، واغفرلى ما لا يعلمون ! فمن علامة أحدهم أنك ترى له قوة في دين وحزماً في لين وإيماناً في يقين وحرصاً في علم وعلماً في حلم وقصداً^(٥) في غنى وخشوعاً في عبادة وتحرراً^(٦) عن طمع ، يعمل الأعمال الصالحة وهو على وجل ، يمسى وهمه الشكر ، ويصبح وهمه الذكر ، يبيت حذراً ويصبح فرحاً ، حذراً لما حذر من الغفلة وفرحاً بما أصاب من الفضل والرحمة ، إن استصعبت عليه نفسه فيما تكره^(٧) لم يعطها سؤلها فيما تحب ، قرّة عينه فيما لا يزول^(٨) وزهادته فيما لا يبقى^(٩) يمزج الحلم بالعلم ، تراه قريباً أملاً قليلاً زلله ، خاشعاً قلبه ، قانعة نفسه ، منزوراً^(١٠) أكله ، سهلاً أمره ، حريزاً^(١١) دينه ، ميتة شهوته ، مكظوماً غيظه ، الخير منه مأمول والشر منه مأمون ، إن كان في الغافلين^(١٢) كتب في الذاكرين^(١٣) وإن كان

- | | |
|---------------------------------|---------------------------------------|
| (١) أى أصبوا بخلل في عقولهم . | (٢) هو الخوف الشديد من الله تعالى . |
| (٣) حائفون من التفصير فيها . | (٤) مدح . |
| (٥) أى اقتصاداً . | (٦) أى تباعداً . |
| (٧) أى لم تطاوعه . | (٨) أى الآخرة . |
| (٩) أى الدنيا . | (١٠) أى قليلاً . |
| (١١) أى حصيناً . | (١٢) من ذكر الله تعالى . |
| (١٣) بقلبه . | |

في الذاكرين^(١) لم يكتب من الغافلين^(٢) يعفو عن ظلمه ويعطى من حرمه ويصل من قطعه ، بعيدا فحشه^(٣) ، لينا قوله ، غائبا منكروه ، حاضرا معروفه ، مقبلا خيره ، مدبرا شره ، في الزلازل^(٤) وقور ، وفي المكاره صبور ، وفي الرخاء شكور ، لا يحيف على من يبغض ، ولا يأثم فيمن يحب ، يعترف بالحق قبل أن يشهد عليه ، لا يضيع ما استحفظ ، ولا ينسى ما ذكر ، ولا يناز^(٥) بالالقب ولا يضار بالجار ولا يشمت بالمصائب ولا يدخل في الباطل ولا يخرج من الحق ، إن صمت لم يغمه صمته ، وإن ضحك لم يعمل صوته ، وإن بغى عليه صبر حتى يكون الله هو الذي ينتقم له ، نفسه منه في عناء ، والناس منه في راحة ، أتعب نفسه لآخرته ، وأراح الناس من نفسه ، بعده عن تباعد عنه زهد ونزاهة ، ودنوه بمن دنا منه لين ورحمة ، ليس تباعده بكبر وعظمة ولا دنوه بمكر وخدعة^(٦) .

هذا واقد حدثنا نبينا الكريم عن فضل الصدقة والنفقة وما أعده الله للتصدقين من الرضوان الكبير والأجر العظيم ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بينا رجل في فلاة من الأرض إذ سمع صوتا في سحابة : اسق حديقة فلان ، فتنحى ذلك السحاب فأفرغ ماءه في حزة^(٧) فإذا شرجة من تلك الشراج^(٨) ، قد استوعبت ذلك الماء فتبع الماء فإذا رجل قائم في حديقة يحول الماء بمسحاته^(٩) فقال له : يا عبد الله ما اسمك ؟ قال : فلان ! الإسم الذي سمع في السحابة ، فقال له : يا عبد الله لم سألتني عن اسمي ؟ قال سمعت صوتا في السحاب الذي هذا ماؤه يقول : اسق حديقة فلان لاسمك فما تصنع فيها ؟ قال : أما إذا قلت هذا فإني أنظر إلى ما يخرج منها فأصدق بثله

(١) بلسانهم . (٢) بقلوبهم . (٣) الفحش القول القبيح .

(٤) أي الشدائد . (٥) أي لا يدعو غيره باللقب الذي يكره .

(٦) قال : فصعق حمام (غشي عليه) صفة كانت فيها نفسه ! فقال أمير المؤمنين عليه السلام « والله لقد كنت أخاف عليه ! راجع ص ٤١٩ — ٤٢٥ من نهج البلاغة ج ١ .

(٧) الحزة بفتح الحاء الأرض ذات الحجارة السود .

(٨) سائل الماء إلى السهل من الأرض . (٩) المسحاة المجرفة من الحديد .

وَأَكَلَ أَنَا وَعِيَالِي ثَلَاثَةً وَأُورِدَ فِيهَا ثَلَاثَةً ! وَعَنْهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : سَبَقَ دَرَاهِمُ مِائَةِ أَلْفِ دَرَاهِمٍ ، قِيلَ وَكَيْفَ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ : « كَانَ لِرَجُلٍ دَرَاهِمَانِ فَتَصَدَّقَ بِأُجُودِهِمَا ، وَانْطَلَقَ آخِرُ إِلَى عَرَضٍ ^(١) مَالَهُ فَأَخْرَجَ مِنْهُ أَلْفَ دَرَاهِمٍ فَتَصَدَّقَ بِهَا ، وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْأَرْضَ جَعَلَتْ تَمِيدٌ ^(٢) وَتَتَكْفَأُ فَأَرْسَاهَا بِالْجِبَالِ فَاسْتَقَرَّتْ ، فَتَعَجَّبَ الْمَلَائِكَةُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ مِنْ شِدَّةِ الْجِبَالِ ، فَقَالَتْ يَا رَبَّنَا هَلْ خَلَقْتَ خَلْقًا أَشَدَّ مِنَ الْجِبَالِ ؟ قَالَ : نَعَمْ ! الْحَدِيدُ ، قَالُوا فَهَلْ خَلَقْتَ خَلْقًا أَشَدَّ مِنَ الْحَدِيدِ ؟ قَالَ : نَعَمْ ! النَّارُ ، قَالُوا فَهَلْ خَلَقْتَ خَلْقًا أَشَدَّ مِنَ النَّارِ ؟ قَالَ : نَعَمْ ! الْمَاءُ ، قَالُوا فَهَلْ خَلَقْتَ خَلْقًا أَشَدَّ مِنَ الْمَاءِ ؟ قَالَ : نَعَمْ ! الرِّيحُ ، قَالُوا : فَهَلْ خَلَقْتَ خَلْقًا أَشَدَّ مِنَ الرِّيحِ ؟ قَالَ : نَعَمْ ! ابْنُ آدَمَ إِذَا تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ يَمِينُهُ فَأَخْفَاهَا عَنْ شِمَالِهِ ! ، وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « قَالَ رَجُلٌ لَا تَصَدَّقَنَّ اللَّيْلَةَ بِصَدَقَةٍ ! فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ فَوَضَعَهَا فِي يَدِ سَارِقٍ فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ تَصَدَّقَ اللَّيْلَةَ عَلَى سَارِقٍ فَقَالَ اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ ! عَلَى سَارِقٍ ! لَا تَصَدَّقَنَّ بِصَدَقَةٍ ! فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ فَوَضَعَهَا فِي يَدِ زَانِيَةٍ فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ تَصَدَّقَ اللَّيْلَةَ عَلَى زَانِيَةٍ ، فَقَالَ : اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ ! عَلَى سَارِقٍ وَزَانِيَةٍ ! لَا تَصَدَّقَنَّ بِصَدَقَةٍ ! فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ فَوَضَعَهَا فِي يَدِ غَنِيٍّ فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ : تَصَدَّقَ اللَّيْلَةَ عَلَى غَنِيٍّ ! فَقَالَ : اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ عَلَى سَارِقٍ وَزَانِيَةٍ وَغَنِيٍّ ! فَأَتَى فَقِيلَ لَهُ : أَمَا صَدَقْتُكَ فَقَدْ قَبِلْتَ ، أَمَا السَّارِقُ فَلَعَلَّهُ أَنْ يَسْتَغْفِرَ عَنْ سَرِقَتِهِ ، وَأَمَا الزَّانِيَةُ فَلَعَلَّهَا أَنْ تَسْتَغْفِرَ عَنْ زَنَاهَا ، وَأَمَا الْغَنِيُّ فَلَعَلَّهُ أَنْ يَعْتَبِرَ فَيَنْفِقَ مِمَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ تَعَالَى ، !

فَتَرَى أَنَّهُ فِي الْحَدِيثِ الْأَوَّلِ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ تَحَدَّثَ عَنْ فَضْلِ الصَّدَقَةِ عَمُومًا ثُمَّ فِي الْحَدِيثِ الثَّانِي تَحَدَّثَ عَنْ فَضْلِ الَّذِي يَخْرُجُ مِنْ جِيدِ مَالِهِ ، وَفِي الثَّلَاثِ

(١) عَرَضُ الشَّيْءِ : جَانِبُهُ وَنَاحِيَتُهُ ، وَالْمُرَادُ هُنَا أَنَّهُ كَانَ يَعْمَدُ إِلَى أُرْدَا مَالِهِ .

(٢) تَتَحَرَّكُ وَتُضْطَرِبُ .

تحدث عن الذى يتصدق فى السر ، وفى الرابع تحدث عن ثواب نية الصدقة حتى لو لاقت الصدقة غير مستحق لها^(١) .

وحدثنا نبينا الكريم عن حب الله سبحانه وتعالى للسخاء والكرم ، فعن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قال الله عز وجل : « أنفق أنفق عليك » وقال يد الله ملأى لا تغيضها^(٢) نفقة ، سحاء^(٣) الليل والنهار ! أرايتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض فإنه لم يفيض ما فى يده ، وكان عرشه على الماء ويده الميزان يخفض ويرفع ، .

وحدثنا نبينا الكريم عن حب الله عز وجل وإيمانه للصدقة والنفقة ، فعن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما تصدق أحد بصدقة من طيب — ولا يقبل الله إلا الطيب — إلا أخذها الرحمن يمينه ، وإن كان تمرة ، فتربو فى كف الرحمن^(٤) حتى تكون أعظم من الجبل كما يربى أحدكم فلوله أو فصيله !

وحدثنا نبينا الكريم عن حب الله عز وجل للمتحابين لجلاله ، فعن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يقول الله عز وجل يوم القيامة : « أين المتحابون لجلالى ؟ اليوم أظلمهم فى ظلى يوم لا ظل إلا ظلى ، !

وحدثنا نبينا الكريم عن حب الله سبحانه وتعالى للتعاقد والتناصر ، فعن ابن عمر رضى الله عنهما ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، المسلم أخو المسلم لا يظله ولا يسلبه ، ومن كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته !

(١) راجع ص ٢٢٩ — ٢٣٢ من وحي الأحاديث المحمدية الجزء الأول لمحمود على قراءة .

(٢) أى لا تنقصها .

(٣) أى لا يتقطع عطاؤها كح المطر . ويقول ابن قتبية سحاء أى دأعة الصب والعطاء أى نصب عطاء ولا ينقصها ذلك . وفى رواية « بين الله سحاء » واليمين هنا كناية عن محل عطائه وخص اليمين لأنها فى الأكثر مظنة العطاء على طريق المجاز والاتساع . راجع ٢٦٥ من تأويل مختلف الحديث لابن قتبية .

(٤) كف الرحمن ها كما يقول الشيبانى كناية عن محل قبول الصدقة التى توضع فيه ، وإلا فلا كف له ولا جراحة تعالى الله عما يقول الظالمون والجسمون علوا كبيرا . راجع ص ٢٤٧ من تيسير الوصول ج ٢ .

ومن فرج عن مسلم كربة ، فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة ، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة ، وزاد رزين في رواية « ومن مشى مع مظلوم حتى يثبت له حقه ، ثبت الله تعالى قدميه على الصراط يوم تزل الأقدام » ،
وحدثنا نبينا الكريم عن إنعام الله عز وجل للكاظم غيظه مع استطاعة إنفاذه ، فعن سهل بن معاذ بن أنس الجهني عن أبيه رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من كظم غيظاً^(١) وهو يستطيع أن ينفذه ، دعاه الله تعالى يوم القيامة على رؤس الخلائق حتى يخيره في أى الحور شاء » ،
وحدثنا نبينا الكريم عن حسن جزاء الله سبحانه وتعالى لنا على الخير ، فعن أبي ذر رضى الله عنه ، قال « قالوا يا رسول الله ! ذهب أهل الدثور بالأجور يصلون كما نصلى ويصومون كما نصوم ويتصدقون بفضل أموالهم ! قال : أوليس قد جعل الله لكم ما تتصدقون به ؟ ! إن بكل تسبيحة صدقة ! وكل تكبيرة صدقة ! وكل تحميدة صدقة ! وكل تهليلة صدقة ! وأمر بالمعروف صدقة ! ونهى عن منكر صدقة ! وفي بضع أحدكم صدقة ! قالوا يا رسول الله أىأتى أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر ؟ ! قال أرأيتم لو وضعها فى حرام أكان عليه وزر ؟ قالوا نعم ! قال كذلك إذا وضعها فى الحلال كان له أجر » ، وللترمذى فى رواية « تبسمك فى وجه أخيك صدقة ! وإماطتك الحجر والشوك والعظم عن الطريق صدقة ! وفراغك فى دلوك فى دلو أخيك صدقة » ، وعن البراء رضى الله عنه ، قال : من منح منحة لبن أو ورق أو هدى ضالاً طريقاً أو أعمى زقاقاً ، كان له مثل من أعتق رقبة ، وعن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فبأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له صدقة » ، وعن جابر رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثلاث من كن فيه نشر الله عليه كنفه وأدخله الجنة : رفق بالضعيف والشفقة على الوالدين والإحسان إلى المملوك » ،
وحدثنا نبينا الكريم عن عتاب الله تبارك وتعالى يوم القيامة للمبصر عن فعل الخير من زيارة المرضى والإنفاق ، فعن أبي هريرة رضى الله عنه ، قال :

(١) كظم الغيظ: نجرة وترك المفاصلة عليه .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يقول الله عز وجل يوم القيامة : يا ابن آدم مرضت فلم تعدني ! فيقول : يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ قال : أما علمت أن عبدى فلانا مرض فلم تعده ؟ أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده ؟ يا ابن آدم أستطعمتك فلم تطعمني ! قال : يا رب كيف أطعمك وأنت رب العالمين ؟ قال : إن عبدى فلانا استطعمك فلم تطعمه ! أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي ؟ يا ابن آدم استسقيتك فلم تسقني ! قال : كيف أسقيك وأنت رب العالمين ؟ فيقول إن عبدى فلانا استسقاك فلم تسقه ! أما علمت أنك لو سقيته لوجدت ذلك عندي ؟ » .

وجمع نبينا الكريم معاني الخير كلها في حديث جامع ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أمرني ربي بتسع : خشية الله في السر والعلانية ! وكلمة العدل في الغضب والرضا ! والقصد في الفقر والغنى ! وأن أصل من قطعني ! وأعطى من حرمني ! وأعفو عن ظلمي ، وأن يكون صمتي فكرا ونطقي ذكرا ونظري عبرة وأن أمر بالمعروف ، .

وكان نبينا الكريم يأمر بإحسان معاملة الخدم ، فعن المعرور بن سويد قال : رأيت أبا ذر وعليه حلة وعلى غلامه مثلها فسألته عن ذلك فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : هم إخوانكم وخولكم^(١) ، جعلهم الله تعالى تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم من العمل ما يغلبهم فإن كلفتموهم فأعينوهم عليه ، ! وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يقولن أحدكم عبدى وأمتي ولا يقول المملوك ربي وربتي ! ليقل المالك فتاى وفتاى وليقل المملوك سيدى وسيدتى فإنكم المملوكون والرب هو الله عز وجل ، .

وحدثنا نبينا الكريم عن حب الله سبحانه وتعالى للرفق بالحيوان ، فعن خالد بن معدان يرفعه ، قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم « إن الله رفيق يحب

(١) خول الرجل : حشم الرجل وأتباعه .

الرفق ويرضى به ويعين عليه ما لا يعين على العنف ، فإذا ركبتم هذه الدواب العجم فانزلوها منازلها ،^(١) . وعن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الرفق ما كان في شيء إلا زانه ولا نزع من شيء إلا شانه ! وفي رواية قالت : ركبت بعيرا فيه صعوبة ، فجعلت أردده ، فقال صلى الله عليه وسلم : عليك بالرفق^(٢) .

وحدثنا نبينا الكريم عن قدر العمل الصالح ابتغاء وجه الله ، فعن ابن عمر رضى الله عنهما ، قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « انطلق ثلاثة نفر من كان قبلكم حتى أوامهم المبيت إلى غار فدخلوا فيه ، فالتحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار ، فقالوا : إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم ! فقال أحدهم إنه كان لى أبوان شيخان كبيران وكنت أرعى عليهما ولا أغبق^(٣) قبلهما أهلا ولا مالا ، وأنه نأى بنى طلب الشجر يوما فلم أرح عليهما حتى ناما ، فخلبت لهما غبوقهما فوجدتهما قد ناما ، فكرهت أن أغبق قبلهما أهلا ولا مالا وكرهت أن أوقظهما ، والصدية يتضاغون^(٤) عند قدمي ، والقدح على يدي أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر ، اللهم إن كنت تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء لوجهك ، ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة ! فانفرجت شيئا لا يستطيعون الخروج ! وقال الآخر : اللهم إنه كان لى ابنة عم هى أحب الناس إلى ، فأردتها على نفسها^(٥) فامتنعت عني حتى أملت بها سنة من السنين^(٦) فجاءتني فأعطيتها مائة وعشرين دينارا على أن تخلى بيني وبين نفسها ، ففعلت ، حتى إذا قدرت عليها ، قالت : لا يحل لك أن تفض الخاتم^(٧) إلا بحقه فتحررت^(٨) من الوقوع عليها ، فانصرفت عنها وهى أحب الناس إلى وتركت

(١) من حديث طويل . (٢) راجع ص ٢٢٦ - ٢٣٢ و ٣١٦ - ٥١٠ من وحى الأحاديث المحمدية الجزء الثاني لمحمد على قراءة .

(٣) الغبوق : أشرب آخر النهار .

(٤) يضجون ويصبحون من الجوع .

(٥) أى راودتها وطلبت منها أن تتمكن من نفسها .

(٦) أى أصابها الجذب . (٧) كناية عن الجماع .

(٨) الهرب من الخرج والائتم والضيق .

الذهب ! اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه ! فانفرجت الصخرة غير أنهم لا يستطيعون الخروج ! فقال الثالث : اللهم إني كنت استأجرت أجرا فأعطيتهم أجرهم غير رجل واحد ترك أجره وذهب فغمرته له حتى كثرت منه الأموال ، فجاءني بعد حين فقال : يا عبد الله أد لي أجرى ! فقلت كل ما ترى من البقر والغنم والإبل والرقيق أجرك ! اذهب فاستقه ! فقال يا عبد الله لا تستهزئ بي ! فقلت إني لا أستهزئ بك اذهب فاستقه ، فأخذه كله ! اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه ! فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون ،^(١)

والمسلم الحق يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر لقوله تعالى : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون » ، وقوله تعالى : « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » ، وقوله تعالى : « لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، لبئس ما كانوا يفعلون » ، وقوله : « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » ، أى بل يعم شؤمها من تعاطاها ومن رضيها ! وفي صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر » ، وقال : « إذا عمت الخطيئة في الأرض ، من شهدها فكرهها كان كمن غاب عنها ، ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها » ، وقال : « لا ينبغي لامرئ شهد مقاما فيه حق إلا تكلم به ، فإنه لم يقدم أجله ولم يحرمه رزقا هو له » .

والمسلم الحق يرفق في الأمر والنهي ولكن لا يهاب من ينكر عليه لارتفاع منزلته ، لقوله تعالى : « ولينصرن الله من ينصره » ، وقوله : « ومن يعتصم بالله

(١) راجع ص ٢٣٤ - ٢٣٦ من وحى الأحاديث الحميدة لمحمود على قراءة الجزء الأول

فقد هدى إلى صراط مستقيم ، وقوله : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ،
وقوله : « أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ، ولقد فتنا
الذين من قبلهم ، فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين » .

والمسلم الحق يقضى حوائج المسلمين لقوله عليه الصلاة والسلام : « إن لله
عبادا خلقهم لحوائج الناس آلى على نفسه أن لا يعذبهم بالنار ، وإذا كان يوم
القيامة وضعت لهم منابر من نور ، يحدثون الله عز وجل والناس في الحساب » ،
وروى عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رجلا جاء إلى رسول الله صلى الله
عليه وسلم فقال : أى الناس أحب إلى الله ؟ قال : أحب الناس عند الله أنفعهم
للناس وأحب الأعمال إلى الله عز وجل سرور تدخله على مسلم تكشف عنه
كربة أو تقضى عنه ديناً أو تطرد عنه جوعاً ، ولأن أمشى مع أخ في حاجة
أحب إلى من أن اعتكف في هذا المسجد (يعنى مسجد المدينة) شهراً ، ومن كظم
غضبه ولو شاء أن يمضيه أمضاه ، ملأ الله قلبه يوم القيامة رضا ، ومن مشى
مع أخيه في حاجته حتى يقضيها له ، ثبت الله قدمه يوم تزل الأقدام ^(١) . وقوله
صلى الله عليه وسلم : « كل معروف صدقة ، والدال على الخير كفاعله ، والله
يحب إغاثة الملهوف » . وقوله : « ما من صدقة أفضل من صدقة اللسان ، قيل
وكيف ذلك ؟ قال : الشفاعة يحقن بها الدم وتجري بها المنفعة إلى آخر ويدفع بها
المكروه عن آخر » .

والمسلم الحق ينصر المسلمين لقوله عليه الصلاة والسلام : « المؤمن للمؤمن
كالبنان يشد بعضه بعضاً » ^(٢) . وقوله : « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم
وتعاطفهم ، مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو ، تداعى له سائر الجسد بالسهر
والحمى » ^(٣) . وقوله : « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً ، فقال رجل : يا رسول الله
أنصره إذا كان مظلوماً ، أرأيت إن كان ظالماً كيف أنصره ؟ قال : تحجزه
أو تمنعه من الظلم ، فإن ذلك نصره » ^(٤) .

(٢) رواه البخارى ومسلم .

(٤) رواه البخارى .

(١) رواه الآصبهانى .

(٣) رواه البخارى ومسلم .

والمسلم الحق يعدل في الرعية إذا كان حاكما ، إذ السلطان في الحقيقة للأمة ،
وإنما الحاكم بمثابة الوكيل عنها ، وفي هذا يقول المعري :

طلبوا الرعية واستجازوا كيدها وعدوا مصالحها وهم أجراؤها
فإذا عدل فتجب طاعته لقول الله تبارك وتعالى : « يا أيها الذين آمنوا
أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » ، ولقول النبي صلى الله
عليه وسلم : « الدين النصيحة ، الدين النصيحة ، الدين النصيحة » قالوا : لمن
يا رسول الله ؟ ! قال « لله ولرسوله ولأولى الأمر منكم » ، ولقد خطب سعيد
ابن سويد بحمص ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « أيها الناس : إن الإسلام
حائط منيع وباب وثيق ، فحائط الإسلام الحق وبابه العدل ، ولا يزال الإسلام
منيعا ما اشتد السلطان ، وليس شدة السلطان قتلا بالسيف ولا ضربا بالسوط ،
ولكن قضاء بالحق وأخذا بالعدل » ، وكتب عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ،
لما ولي الخلافة إلى الحسن بن أبي الحسن البصرى أن يكتب إليه بصفة الإمام
العاقل — فكتب إليه الحسن رحمه الله : « اعلم يا أمير المؤمنين أن الله
جعل الإمام العادل قوام كل مائل وقصد كل جائر وصلاح كل فاسد وقوة
كل ضعيف ونصف كل مظلوم ومفرج كل ملهوف ، والإمام العدل يا أمير
المؤمنين كالراعى الشفيق على إبله الرفيق الذى يرتاد لها أطيب المرعى ويذودها
عن مراتع المهلكة ويحميها من السباع ويكنفها من أذى الحر والقر ، والإمام
العدل يا أمير المؤمنين كالأب الحانى على ولده يسعى لهم صفارا ويعلمهم كبارا
ويكتسب لهم فى حياته ويدخر لهم بعد مماته ، والإمام العدل يا أمير المؤمنين
كالأم الشفيقة البرة الرفيقة بولدها حملته كرها ووضعته كرها وربته طفلا تسهر
بسهره وتسكن بسكونه ترضعه تارة وتقطمه أخرى ، وتفرح بعافيته وتغتم
بشكايته ، والإمام العدل يا أمير المؤمنين وصى اليتامى وخازن المساكين ،
يربى صغيرهم ويمون كبيرهم ، والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالقلب بين الجوانح
تصلح الجوانح بصلاحه وتفسد بفساده ، والإمام العدل يا أمير المؤمنين هو
القائم بين الله وبين عباده ، يسمع كلام الله ويسمعهم ، وينظر إلى الله ويرىهم
من العافية والصحة ، والسلام عليك يا أمير المؤمنين ، ورحمة الله وبركاته .

والمسلم الحق ينصح الحاكم ولا يغشه ، ومثله قول الحسن حين أرسل إليه ابن هبيرة وأتى الشعبي فقال له : ما ترى أبا سعيد في كتب تأتينا من عند يزيد بن عبد الملك فيها بعض ما فيها ، فإن أنفذتها وافقت سخط الله وإن لم أنفذها خشيت على دمي ، فقال له الحسن هذا عندك الشعبي فقيه الحجاز ! فسأله فرفق له الشعبي وقال له : « قارب وسدد فإنما أنت عبد مأمور » ثم التفت ابن هبيرة إلى الحسن وقال : ما تقول يا أبا سعيد ؟ فقال الحسن يا ابن هبيرة : خف الله في يزيد ولا تخف يزيد في الله ، يا ابن هبيرة إن الله مانعك من يزيد وإن يزيد لا يمنعك من الله ، يا ابن هبيرة لا طاعة لخلق في معصية الخالق ، فانظر ما كتب إليك فيه يزيد فأعرضه على كتاب الله تعالى ، فما وافق كتاب الله تعالى فأنفذه وما خالف كتاب الله فلا تنفذه ، فإن الله أولى بك من يزيد ، وكتاب الله أولى بك من كتابه . فضرب ابن هبيرة يده على كتف الحسن وقال : هذا الشيخ صدقني ورب الكعبة ! وأمر للحسن بأربعة آلاف وللشعبي بألفين ، فقال الشعبي رفقنا فرفق لنا ، فأما الحسن فأرسل إلى المساكين ، فلما اجتمعوا فرقها وأما الشعبي فقبلها وشكر عليها !

والمسلم الحق يعرف حقوقه فيتمسك بها وواجباته فيؤديها ، وفي هذا يقول الرئيس جمال عبد الناصر : « إن ما نزل بالمجتمع المصري من المصائب والشقاء وفساد الحكومات ، إنما يرجع إلى سبب واحد هو جهل كل فرد بحقوقه وتجاهلها ، وتناسي كل فرد لواجباته » ، « يجب أن يعرف كل فرد منا حقوقه الطبيعية المقدسة التي يجب ألا تمتد إليها يد المساومة والعبث » ، « ليشق كل إنسان في نفسه ... لينس كل فرد نفسه وينكر ذاته » ، « إن الله لا يحب إلا الأقوياء ويكره المستضعفين » ، « إن على كل فرد منا أن يقوم نفسه أولا ثم يصلح من يحيط به » ، « يجب أن نحرر أنفسنا أولا ونثق في أنفسنا وفي وطننا ، يجب أن نتحرر من الخوف والفرع ، فإذا تحررنا سرنا في طريقنا وحققنا آمالنا » ، « يجب أن نتحرر من الفردية ، فإذا نظرنا إلى الماضي وجدنا أن النتائج السيئة التي حلت فوق رؤسنا كانت نتيجة للفردية ، وهي الاستبداد السياسي والظلم

الإجتماعى والاحتلال البريطانى ، . « إننا حتى نتمكن من تحقيق غايتنا ، يجب ألا نتمكن المستعمر من أن يجد ثغرة فى صفوفنا ، ويجب أن ندرك أن بقاءه فى أرضنا ، لم يكن مرده إلى قوة المستعمر أو سلاحه ، ولكن مرده إلى التفرق فى صفوفنا ، ، « لقد أورثتنا السنوات الطويلة الماضية عادات سيئة منها الأنانية والأنانية ما زالت متفشية وما زال الحسد والحقد موجودين ، وكل فرد يتفوق يحاول الباقون أن يهدموه بدلا من معاونته وتشجيعه وبدلا من تقليده ولهذا يجب على كل واحد منا أن يثق بالآخرين وأن يساعد زملاءه ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، وأن يبذل كل ما يستطيع ليحمل الآخرين على العمل لنهضة البلاد ورفعتها ، ، « إن الوقت الذى يقول فيه الجندى أولادى أولا ويفكر فيهم ويهرب من الموت سيموت حتما ، وكل منكم يجب أن يفكر فى أولاد أخيه قبل أن يفكر فى أولاده ، فيحمى أخاه قبل أن يحمى نفسه ، ولكل أجل كتاب ، ، « ولو حاولنا أن نتساءل كيف تمكن الاستعمار لو جدنا الحقيقة المؤلمة تبرز أمامنا ، بأننا الذين مكنا لهذا الاستعمار منا ، فكم يكن هذا الاستعمار يعتمد على سلاحه وبطشه ، لأنه يعلم أن السلاح والبطش لا يجديان شيئا أمام إرادة شعب حريص على حريته وعزته ، ولكن كان يعتمد على الخونة والمافقين من أبناء البلاد ، ، « إذا أردنا أن نبني وأن نحقق لأنفسنا وأولادنا حياة عزيزة كريمة ، فلننترك جميعا فى البناء ، وإيكن كل المواطنين أقوياء ، فلا تتدخل الطبقة المتعلمة على حساب العمال والفلاحين ، ، « إننا نهتف دائما بالحرية ونهتف بالعزة ، وليست العزة كلاما أوهتافا ، وليست الحرية أوهاما ينادى بها بلا وعى ، ولكن الحرية هى التحرر من العبودية ومن الخوف ومن الفرع ، ، « إن الحرية التى يجب أن نوطد دعائمها تقوم على مقاومة الطغيان الذى كان يمثل كل شخص أمامه الإستسلام والهزيمة ، ولكى نحقق الحرية يجب أن نتخلص من روح الطغيان والإستبداد ، وبذلك نبني وطننا قويا كريما ، ولن يتحقق لنا ذلك إلا بكفاح شاق مرير وبعد أن يعرف كل منا رسالته فيؤديها حق الأداء ، .

« ليس هناك رجل حكم ، ولن يكون هناك في مصر رجل حكم ، ولكن سيكون هناك شعب قوى عزيز أبى يؤمن بالمبادئ والمثل العليا ويؤيد المبادئ والمثل العليا ولا يؤيد الأشخاص ولكن يؤيد المبادئ وحدها والمثل العليا وحدها ، ، « كنا نفهم ولازلنا نفهم أن الثقة المتبادلة بيننا ، هي ثقة بين المبادئ ، ثقة بين المثل العليا والمثل العليا ، ولذلك فجدير بهذه الثقة أن تحفزنا ولا بد أن تدفعنا لنسير قدما إلى الأمام لتحقيق هذه المبادئ ولنحقق هذه المثل العليا ، ، « وإنا سنسير اليوم في سياستنا الداخلية على أسس مستقلة ، وسنسير في سياستنا الخارجية أيضاً على أسس كاملة مستقلة ، نعمل للشعب كله لالفئة من الفئات سياسة مستقلة لخير الجميع ، ، « إن الحياة لم تخلق للتافهين ولكن للعاملين ، فإذا فكرتم في هذه الحياة ففكروا في الجوهر ولا تفكروا في المظهر ، فكروا في العظيم من الأمور ولا تشغلوا أنفسكم بالتافه منها ، فكل فرد له في المجتمع هدفان ، هدفه الخاص كفرد وهدفه العام هو أن يكون قويا ، لأن قوته من قوة هذا الوطن ، ، « يجب أن يؤمن كل فرد منكم بنفسه وأن يعتقد أن عليه رسالة في هذه الحياة يجب أن يؤديها ، وأن هذه الرسالة لا تتحقق كاملة بالمظاهر الجوفاء ولكن بالتصميم والإيمان . . . وأعتقد أن أكبر سعادة يمكن للإنسان أن يشعر بها هي في أن يحقق السعادة للآخرين ، وهذا لا يكون إلا إذا اتخذنا نهجاً جديداً في حياتنا ،^(١) .

ولا ريب في أن المؤمن يعمل الخير دائماً ويقطع عن الشر دوماً ويأخذ من صحته لمرضه ومن حياته لموته ، فعن ابن عمر رضى الله عنهما ، قال : أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنكبى وقال : كن في الدنيا كأنك غريب عنها أو عابر سبيل وعد نفسك من أهل القبور ! وكان ابن عمر رضى الله عنهما يقول : إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح ، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء ، وخذ

(١) راجع ص ١٣ و ١٥ و ٢٣ و ٣٠ و ٣٦ و ٣٨ و ٣٩ و ٤٠ و ٥٠ و ٨٤ و ٩٥ و ١١٣ و ١٢٢ و ١٤٥ و ١٤٦ و ٤٨٨ و ٥٢٨ و ٥٣٠ و ٥٤١ و ٥٤٣ و ٥٧٠ و ٥٧١ من خطب الرئيس جمال عبد الناصر . ويسرنا أن نذكر أنا أرسلنا إليه بغزة السلم والمصرى والعربى « نحن الشعب نهشكم بدستور الشعب » ، فرد حفظه الله رداً كريماً .

من صحتك لمرضك ومن حياتك لموتك ! وعن ثوبان رضى الله عنه . قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يوشك الأمم أن تتداعى عليكم^(١) كما تتداعى الأكلة^(٢) إلى قصعتها ! فقال قائل : من قلة نحن يومئذ ؟ قال : لا ! بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء^(٣) كغثاء السيل . ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم ، وليقذفن في قلوبكم الوهن . ! قيل : وما الوهن ؟ قال : حب الدنيا وكره الموت ، !

وظاهر كل الظهور أن ما قصر بنا عن فعل الخير ، إغفال ذكر الموت ! وأن ما أخرنا عن غيرنا من الأمم حرصنا على الحياة الدنيا وخوفنا من الموت ! . فلو رجعنا إلى مبادئ الدين الحنيف . . ولو فقهنا حقيقة أخلاق المؤمن الحق التي حدثنا النبي الكريم عنها ، لما قصرنا في خير وحرصنا على فعله خشية هجوم المنية علينا ووقوفها حائلا بيننا وبين أن نقدم حياتنا ، ولو وصلنا إلى هذا الرقي الواجب علينا الوصول إليه لاستحضرنا الموت في ذهننا . . ولو استحضرناه لما خشيناه لأنه مكتوب علينا ولا بد واصل إلينا . . وبذا نأبى إلا الحياة عزيزة فنقدم كل أسباب القوة غير هيايين ولا وجلين ! وإن يكون إذ ذاك الموت حائلا بيننا وبينها ولا قاعداً بنا عن الذود عن الحق ما استطعنا إليه سبيلاً^(٤) والمسلم الحق ينوى للخير ، لأنه ما دام ينوى الخير فهو بخير ، وفي الحديث « نية المؤمن خير من عمله » ، لأنه كما قال أبو الليث السمرقندي : قد يثاب على نية الخير وإن لم يعملها ولا يثاب على عمله بلا نية ، أو لطول نيته وقصر عمله ، لأنه قد ينوى أن يعمل الخير ما بقي ولا يستطيع أن يعمل الخير ما بقي ، أو لأن النية عمل القلب والقلب معدن المعرفة ، فهو أفضل ، أو أن معناه كما يقول الغزالي أن نية المؤمن من جملة طاعته خير من عمله الذي هو من جملة طاعته ! وعن ابن عباس رضى الله عنهما عن رسول الله

(١) التداعى : التتابع ، أى يدعو بعضها بعضاً فتجيب .

(٢) جمع آكل .

(٣) الغثاء : ما يلقيه السيل .

(٤) راجع ص ٦٢ - ٦٥ من وحى الأحاديث الحميدة الجزء الثانى لمحمود على قراءة .

صلى الله عليه وسلم فيما يروى عن ربه تبارك وتعالى ، قال : « إن الله تعالى كتب الحسنات والسيئات ، ثم بين ذلك ، فمن هم بحسنة فلم يعملها ، كتبها الله عنده حسنة ، ومن هم بها وفعلها كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، وإن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة ، وإن هم بها فعملها . كتبها الله عنده سيئة واحدة ، ^(١) .

(١) رواية البخارى ومسلم . وفى حديث أبى هريرة رضى الله عنه « من تزوج امرأة على صداق وهو لا ينوى أدائه فهو زان ، ومن أدان ديناً وهو لا ينوى أدائه — أى قضاءه — فهو سارق » .

وظن بعضهم وجود تعارض بين حديثى النية السابق ذكرهما ، لأنه النية فى الحديث الثانى دون العمل ، وفى الحديث الأول خير من العمل ، فرد عليهم ابن قتيبة بما خلاصته : أنه ليس هاهنا تناقض ولا اختلاف بحمد الله تعالى ، وإلهام بالحسنة إذا لم يعملها خلاف العامل لها ، لأن الهام لم يعمل ، والعامل لم يعمل حتى هم ثم عمل ، وإنما يخلد الله المؤمن فى الجنة بنيتة لا بعمله ، لأنه كان نأوياً أن يطيع الله أبداً : لو أبقاء ، فلما اخترمه (أى أمانته) دون نيتة ، جزاه عليها ، وكذلك الكافر نيتة شر من عمله ، لأنه كان نأوياً أن يقيم على الكفر لو أبقاء أبداً ، فلما اخترمه الله تعالى دون نيتة جزاه عليها . راجع ص ١٨٤ و ١٨٥ من تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة .

الفصل السادس

معرفة الله وتوحيده وحبه ومراقبته في الإسلام

«عليك بورد واحد وهو إسقاط الهوى

ومحبة المولى ، أبت المحبة أن تستعمل محبا

إلا فيما يوافق محبوبه »

الشيخ أبو الحسن

(١) معنى العبادة : سئل شيخ الإسلام ابن تيمية عن قوله عز وجل
« يا أيها الناس اعبدوا ربكم ، وعن العبادة وحقيقة العبودية ، فأجاب بما خلاصته :
هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة ،
فالصلاة والزكاة والصيام والحج وصدق الحديث وأداء الأمانة وبر الوالدين
وصلة الأرحام والوفاء بالعهود والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد
للكفار والمنافقين والإحسان إلى الجار واليتيم والمسكين وابن السبيل والبهائم
والدعاء والذكر والقراءة وأمثال ذلك من العبادة ، وكذلك حب الله ورسوله
وخشية الله والإنابة إليه وإخلاص الدين له والصبر لحكمه والشكر لنعمه
والرضا بقضائه والتوكل عليه والرجاء لرحمته والخوف لعذابه وأمثال ذلك
هي من العبادة لله ، وذلك أن العبادة لله هي الغاية المحبوبة له والمرضية له التي
خلق الخلق لها كما قال تعالى « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ، وبها
أرسل جميع الرسل كما قال تعالى « وما أرسلنا من قبلك من رسول ، إلا نوحى
إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ، وجعل ذلك لازما لرسوله إلى الموت كما
قال « واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ، ، وبذلك وصف ملائكته وأنبياءه فقال
تعالى « إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون ،
وذم المستكبرين عنها بقوله « وقال ربكم ادعوني أستجب لكم ، إن الذين

يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين ، ونعت صفوة خلقه بالعبودية فقال تعالى : « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا ، وقال الله تعالى ردا على إبليس : « إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين ، وقال في وصف الملائكة بذلك « وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون ، لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ، وقال تعالى عن المسيح بن مريم « إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبنى إسرائيل ، ونعت الله النبي صلى الله عليه وسلم بالعبودية في أكمل أحواله فقال في الإسراء « سبحانه الذي أسرى بعبده ليلاً ، وقال في الإيحاء « فأوحى إلى عبده ما أوحى ، وقال في الدعوة « وإنه لما قام عبد الله يدعوه ، كادوا يكونون عليه لبدا ، وقال في التحدى « وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا ، فأتوا بسورة من مثله ، فالدين كله داخل في العبادة .

والدين يتضمن معنى الخضوع والذل ، فيقال يدين الله ويدين لله أى يعبد الله ويطيعه ويخضع له ، فدين الله عبادته وطاعته والخضوع له ، والعبادة أصل معناها الذل أيضاً ، يقال طريق معبد إذا كان مذاللاً ، لكن العبادة للمأمور بها تتضمن معنى الذل ومعنى الحب ، فهي تتضمن غاية الذل بغاية المحبة له فإن آخر مراتب الحب هو التتيم وأوله العلاقة لتعلق القلب بالمحبوب ، ولهذا لا يكفي أحدهما في عبادة الله تعالى ، بل يجب أن يكون الله أحب إلى العبد من كل شيء وأن يكون الله أعظم عنده من كل شيء ، بل لا يستحق المحبة والذل التام إلا الله وكل ما أحب لغير الله فمحبه فاسدة ، وما عظم بغير أمر الله ، كان تعظيمه باطلاً ، قال الله تعالى : « قل إن كان آباؤكم وأبنائكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها ، أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله ، فambتربصوا حتى يأتي الله بأمره ، فجنس المحبة تكون لله ولرسوله كالطاعة والإرضاء ، « والله ورسوله أحق أن يرضوه ، « والإيتاء لله ورسوله ، « ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله ، « وأما العبادة وما يناسبها من التوكل والخوف ونحو ذلك فلا يكون إلا لله وحده

كما قال تعالى : « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ، ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ، ، وأما الحسب وهو الكافي فهو الله وحده ، كما قال تعالى : « يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين » أى حسبك وحسب من اتبعك الله ، ومن ظن أن المعنى حسبك الله والمؤمنون معه فقد غلط غلطا فاحشا ، فالعبد يراد به المعبود الذى عبده الله فذلله ودبره وصرفه ، وبهذا الاعتبار المخلوقون : كلهم عباد الله من الأبرار والفجار والمؤمنين والكفار وأهل الجنة وأهل النار ، إذ هو ربهم كلهم ومليكهم لا يخرجون عن مشيئته وقدرته وملكاته التامات التى لا يجاوزهن بر ولا فاجر ، فما شاء كان وإن لم يشاءوا ، وإن لم يشأه لم يكن ، كما قال تعالى : « أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون » ، فهو سبحانه رب العالمين ، وخالقهم ورازقهم ومحبيهم ومبغضهم ومقلب قلوبهم ومصرف أمورهم لا رب لهم غيره ، ولا مالك لهم سواه ولا خالق إلا هو ، سواء اعترفوا بذلك أو أنكروه وسواء علموا بذلك أو جهلوه ، لكن أهل الإيمان منهم عرفوا ذلك واعترفوا به بخلاف من كان جاهلا بذلك أو جاحدا له مستكبرا على ربه لا يقر ولا يخضع مع علمه بأن الله ربه وخالقه ، فإن اعترف العبد أن الله ربه وخالقه وأنه مفتقر إليه محتاج إليه ، عرف العبودية المتعلقة بربوبية الله ، وهذا العبد يسأل ربه فيتضرع إليه ويتوكل عليه ، ولكن قد يطيع أمره وقد يعصيه وقد يعبده مع ذلك وقد يعبد الشيطان والأصنام ، ومثل هذه العبودية لا تفرق بين أهل الجنة وأهل النار ولا يصير بها الرجل مؤمنا ، كما قال تعالى : « وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون » ، وإبليس معترف بهذه الحقيقة ، « فبعزتك لأغوينهم أجمعين » ، وكذلك أهل النار ، « ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين » . فمن وقف عند هذه الحقيقة وعند شهودها ولم يقم بما أمر الله به من الحقيقة الدينية التى هى عبادته المتعلقة بالهبة وطاعة أمره وأمر رسوله ، كان من جنس إبليس وأهل النار !

يخرج ابن تيمية من ذلك إلى القول بأن النوع الثانى من معنى العبد هو العبد بمعنى العابد أن يكون عابدا لله لا يعبد إلا إياه ، فيطيع أمره وأمر

رسوله ويوالى أولياءه المؤمنين المتقين ويعادى أعداءه ، وهذه العبادة متعلقة بالهية ، ولهذا كان عنوان التوحيد « لا إله إلا الله » ، فالإله الذى يأله القلب بكمال الحب والتعظيم والإجلال والإكرام والخوف والرجاء ونحو ذلك ، وهذه العبادة هى التى يحبها الله ويرضاها وبها وصف المصطفين من عباده وبها بعث رسله ، وأما العبد بمعنى المعبد سواء أقر بذلك أو أنكره فتلك يشترك فيها المؤمن والكافر ، وبالفرق بين هذين النوعين يعرف الحق بين الحقائق الدينية الداخلة فى عبادة الله ودينه وأمره الشرعى ، التى يحبها ويرضاها ويوالى أهلها ويكرمهم بجنته ، وبين الحقائق الكونية التى يشترك فيها المؤمن والكافر والبر والفاجر والتى من اكتفى بها ولم يتبع الحقائق الدينية ، كان من أتباع إبليس اللعين والكافرين برب العالمين ، ومن اكتفى بها فى بعض الأمور دون بعض أوفى مقام ، نقص من إيمانه وولايته بحسب ما نقص من الحقائق الدينية .

ويضرب ابن تيمية أمثلة لما غلط فيه الغالطون ، فيقول : إن ما قدر من المصائب يجب الاستسلام له ، فإنه من تمام الرضا بالله ربا « ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ، ومن يؤمن بالله يهد قلبه » ، وأما الذنوب فليس للعبد أن يذنب ، وإذا أذنب فعليه أن يستغفر ويتوب ، فيتوب من المعاييب ويصبر على المصايب . « فاصبر إن وعد الله حق ، واستغفر لذنبك » ، فمن الغلط الاستسلام للذنوب والمعاصى والكفر وظن أن الاستسلام لذلك وموافقته والرضا به ونحو ذلك دينا وطريقا وعبادة فيضاهون المشركين الذين قالوا : « لو شاء الله ما أشركنا ولا آباءنا ولا حرمنا من شئ » ، وقالوا : « أنطعم من لو يشاء الله أطعمه » ، وقالوا : « لو شاء الرحمن ما عبدناهم » ، وكذلك ذنوب العباد يجب على العبد فيها أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر بحسب قدرته ، ويجاهد فى سبيل الله الكفار والمنافقين ويوالى أولياء الله ويعادى أعداء الله ويحب لله ويبغض فى الله .

ويقول ابن تيمية بعد ذلك إن النجاة فى الاعتصام بالسنة ، وذلك أن السنة كما قال مالك رحمه الله مثل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق ! والعبادة والطاعة والاستقامة ولزوم الصراط المستقيم ونحو ذلك من الأسماء

مقصودها واحد، ولها أصلان : (أحدهما) ألا يعبد إلا الله و (الثاني) أن يعبد به بما أمر وشرع لا بغير ذلك من البدع ، قال تعالى : « فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا » ، فالعمل الصالح هو الإحسان وهو فعل الحسنات على إخلاص الدين لله وحده ، وكال المخلوق في تحقيق عبوديته لله ، وكلما ازداد العبد تحقيقا للعبودية ، ازداد كماله وعلت درجته (١) .

(٢) معرفة الله : يقول الغزالي : إن خاصية الإنسان العلم والحكمة ، وأشرف أنواع العلم هو العلم بالله وصفاته وأفعاله ، فبه كمال الإنسان ، وفي كماله سعادته وصلاحه لجوار حضرة الجلال والكمال ، ويقول : « إن جملة عالم الملكوت والملك إذا أخذت دفعة واحدة تسمى الحضرة الربوبية لأنها محيطة بكل الموجودات إذ ليس في الوجود شيء سوى الله تعالى ، وأفعاله ومملكته وعبده من أفعاله » ، ولذا يرى أنه يجب على الإنسان أن يفهم التوحيد بأن يرى الأشياء كلها من مسبب الأسباب ، ولا يلتفت إلى الوسائط بل يرى الوسائط مسخرة لا حكم لها ، وأن يوقن بالثواب والعقاب بأن يغلب على قلبه أن من يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ، موقنا بأن الله تعالى مطلع عليه في كل حال مشاهد له واجس ضميره وخفايا خواطره وفكره ، ويظهر أثر الحشية عليه ، لا ينظر إليه ناظر إلا وكان نظره مذكرا لله تعالى ، وكانت صورته دليلا على عمله ا

فالركن الأول من أركان الإيمان هو في معرفة ذات الله سبحانه وتعالى وأنه واحد ، ومدار هذا الركن على معرفة وجوده تعالى والعلم بأنه تعالى قديم لم يزل ، أزلى ليس لوجوده أول وليس لوجوده آخر ، فهو الأول والآخر والظاهر والباطن ، وأنه تعالى ليس بجوهر يتحيز بل يتعالى ويتقدس عن مناسبة الحيز ، وأنه تعالى ليس بجسم مؤلف من جواهر وليس بعرض قائم بجسم

(١) راجع ص ٣٠٢ — ٣١٨ من فتاوى ابن تيمية المجلد الثاني وص ١١٧ — ١٢٥ من وحى الأحاديث الحمديّة الجزء الثاني لمحمود على قراءة .

أو حال في محل ، وأنه منزّه الذات عن الاختصاص بالجهات ، وأنه تعالى مستو على عرشه بالمعنى الذى أراد الله تعالى بالاستواء وهو الذى لا ينافى وصف الكبرياء ولا يتطرق إلى سمات الحدوث والفناء وهو الذى أريد بالاستواء إلى السماء ، وأنه تعالى على كونه منزّها عن الصورة والمقدار ، مقدسا عن الجهات والأقطار ، مرئى بالعين والأبصار فى الدار الآخرة ، وأنه عز وجل واحد لا شريك له .

وإما الركن الثانى من أركان الإيمان فهو العلم بصفات الله تعالى ، بأنه هو على كل شيء قدير ، وهو بكل شيء عليم ، وأنه حى ، وأنه هو المبدى المعبد الفعال لما يريد ، سميع (بلا أذن) بصير (بلا حذقة) ، لا تعزب عن رؤيته هو اجس الضمير وخفايا الوهم والتفكير ، وأنه سبحانه وتعالى متكلم بكلام هو وصف قائم بذاته ليس بصوت ولا حرف ، بل لا يشبه كلامه كلام غيره ، وأن الكلام القائم بنفسه قديم وكذا جميع صفاته إذ يستحيل أن يكون محلا للحوادث داخلا تحت التغير ، وأن عليه قديم ، وأن إرادته وهى فى القدم تعلقت بإحداث الحوادث فى أوقاتها اللائقة بها وفق سبق العلم الأزلى .

والركن الثالث من أركان الإيمان هو العلم بأفعال الله تعالى وأن كل حادث فى العالم هو فعله وخلقه واختراعه ، وأن انفراد الله سبحانه باختراع حركات العباد ، لا يخرجها عن كونها مقدرة للعباد على سبيل الاكتساب ، بل الله تعالى خلق القدرة والمقدور جميعا ، وخلق الاختيار والمختار جميعا ، وأن فعل العبد وإن كان كسبا للعبد فلا يخرج عن كونه مراداً لله سبحانه وتعالى ، وأنه لا يستحيل بعثة الأنبياء عليهم السلام ، وأن الله سبحانه وتعالى قد أرسل محمدا صلى الله عليه وسلم خاتما للنبيين^(١) .

ويقول عطاء الله السكندرى وهو أحد العارفين : « بما يدلك على وجود قهره سبحانه أن حجبك عنه بما ليس بموجود معه ، كيف يتصور أن يحجبه

(١) راجع ص ٢٧ — ٣٤ من الثقافة الروحية فى كتاب احياء علوم الدين للقرالى بقلم محمود على قراءة .

شيء وهو الذى أظهر كل شيء ، وكيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذى ظهر بكل شيء ، كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذى ظهر لكل شيء ، وكيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذى ظهر لـ كل شيء ، كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الظاهر قبل وجود كل شيء ، كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو أظهر من كل شيء ، كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الواحد الذى ليس معه شيء ، كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو أقرب إليك من كل شيء ، كيف يتصور أن يحجبه شيء ولولاه ما كان وجود كل شيء ، ! ويقول : « يا عجبا كيف يظهر الوجود فى العدم ، أم كيف يثبت الحادث على من له وصف القدم ، ما ترك من الجهل شيئا من أراد أن يحدث فى الوقت غير ما أظهره الله فيه ، إحالك الأعمال على وجود الفراغ من رعونات النفس ، لا تطلب منه أن يخرجك من حالة ليستعملك فيما سواها ، فلو أرادك لاستعملك من غير إخراج ، ما أرادت همة سالك أن تقف عندما كشف لها إلا ونادته هو اتف الحقيقة الذى تطلب أمامك ، ولا تبرجت ظواهر المكونات إلا ونادتك حقائقها إنما نحن فتنة فلا تكفر ، طلبك منه اتهام له وطلبك له غيبة منك عنه وطلبك لغيره قلة حيائك منه وطلبك من غيره لوجود بعدك عنه ، وما نفس تبديه إلا وله قدر فيك يفضيه ، لا تترقب فروع الأغيار فإن ذلك يقطعك عن وجود المراقبة له فيما هو مقيمك فيه ، ولا تستغرب وقوع الأكدار ما دمت فى هذه الدار فإنها ما أبرزت إلا ما هو مستحق وصفها وواجب نعتها ، وما توقف مطلب أنت طالبه بربك ولا تيسر مطلب أنت طالبه بنفسك ، ومن علامات النجاح فى النهايات الرجوع إلى الله تعالى فى البدايات ، من أشرقت بدايته أشرقت نهايته ، وما استودع فى غيب السرائر ظهر فى شهادة الظواهر ، وشتان بين ما يستدل به أو يستدل عليه ، المستدل به عرف الحق لأهله فأثبت الأمر من وجود أصله ، والاستدلال عليه عدم الوصول إليه ، فمتى غاب حتى يستدل عليه ومتى بعد حتى تكون الآثار هى التى توصل إليه ؟ ! ، ويقول : « شعاع البصيرة يشهدك قربك منك ، وعين البصيرة يشهدك عدمك لوجوده ، وحق البصيرة يشهدك وجوده لا عدمك ولا وجودك ، كان الله

ولا شيء معه وهو الآن على ما عليه كان ، من عرف الحق شاهده في كل شيء ،
ومن فنى به غاب عن كل شيء ، ومن أحبه لم يؤثر عليه شيئاً ، وإنما حجب الحق
عنك شدة قربه منك ، وإنما احتجب لشدة ظهوره وخفى عن الأبصار لعظم نوره ،
كيف يكون طلبك اللاحق سبباً في عطائه السابق ، جل حكم الأزل أن ينضاف
إلى العلل ، عنايته فيك لا لشيء منك وأين كنت حين واجهتك عنايته وقابلتك
رعايته ؟ ! لم يكن في أزاله إخلاص أعمال ولا وجود أحوال بل لم يكن هناك
إلا محض الأفضال وعظيم النوال ، علم أن العباد يتشوفون إلى ظهور سر
العناية فقال يختص برحمته من يشاء ، وعلم أنه لو خلاهم وذلك لتركوا العمل
اعتماداً على الأزل فقال إن رحمة الله قريب من المحسنين ، إلى المشيئة يستند
كل شيء ، ربما دلهم الأدب على ترك الطلب اعتماداً على قسمته واشتغالا بذكره
عن مسئلته ، إنما يذكر من يحوز عليه الإغفال وإنما ينبه من يمكن منه الإهمال
تحقق بأوصافك يمدك بأوصافه ، تحقق بذلك يمدك بعزّه ، تحقق بعجزك يمدك
بقدرته ، تحقق بضعفك يمدك بحوله وقوته ، الحق ليس بمحجوب وإنما المحجوب
أنت عن النظر إليه إذ لو حجبته شيء لستره ما حجبته ، ولو كان له ساتر ، لكان
لوجوده حاصر ، وكل حاصر لشيء فهو له قاهر ، وهو القاهر فوق عباده ، .
ولذا كان دعاؤه رضى الله عنه دعاء العارفين فرحاً بربه طالباً الرضا منه
فأها عنه ، فكان يقول : إلهي أنا الفقير في غنى فكيف لا أكون فقيراً ،
أنا الجاهل في علمي فكيف لا أكون جهولاً في جهلي ، إلهي إن اختلاف
تدبيرك وسرعة حلول مقاديرك منعاً لعبادك العارفين بك عن السكون إلى
عطاء واليأس منك في بلاء ، إلهي مني ما يليق بلؤمى ومنك ما يليق بكرمك ،
إلهي وصفت نفسك باللطف والرفقة بي قبل وجود ضعفى ، أفتمنعني منهما بعد
وجود ضعفى ، إلهي إن ظهرت المحاسن مني فبفضلك ولك المنة وإن ظهرت
المساوى فبعدلك ولك الحجة على ، إلهي كيف تكلني إلى نفسي وقد توكلت لي
وكيف أضام وأنت الناصر لي أم كيف أخيب وأنت الحفي بي ، ها أنا أتوسل
إليك بفقرى إليك ، وكيف أتوسل إليك بما هو محال أن يصل إليك ، أم
كيف أشكو إليك حالى وهى لا تخفى عليك ، أم كيف أترجم لك بمقالى وهو

منك برز إليك ، أم كيف تخيب آمالي وهي قد وفدت إليك ، أم كيف لا تحسن أحوالي وبك قامت وإليك ، إلهي ما أطفك بي مع عظيم جهلي وما أرحمك بي مع قبيح فعلي ، إلهي ما أقربك مني وما أبعدني عنك ، إلهي ما أراؤك بي فما الذي يحجبني عنك ، إلهي قد علمت باختلاف الآثار وتنقلات الأطوار أن مرادك مني أن تتعرف إلي في كل شيء حتى لا أجهلك في شيء ، إلهي كلما أخرجني لثومي أنطقني كرمك ، وكلما آيستني أوصافي أطمعني منتك ، إلهي من كانت محاسنه مساوي فكيف لا تكون مساويه مساوي ، ومن كانت حقائقه دعاوي فكيف لا تكون دعاويه دعاوي ، إلهي حكمك النافذ ومشيتك القاهرة لم يتركها لذي مقال مقالا ، ولا لذي حال حالا ، إلهي كم من طاعة بنيته وحالة شيدتها هدم اعتمادى عليها عدلك بل أقالني منها فضلك ، إلهي أنت تعلم وإن لم تدم الطاعة مني فعلا جزما ، فقد دامت محبة وعزما ، إلهي كيف أعزم وأنت الفاهر وكيف لا أعزم وأنت الأمر ، إلهي ترددي في الآثار يوجب بعد المزار فاجمعني عليك بخدمة توصلني إليك ، إلهي كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك ، أياكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك متى غبت حتى تحتاج إلى دليل ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك ، إلهي عميت عين لا تراك عليها رقبيا ، وخسرت صفقة عبد لم يجعل له من حبك نصيبا ، إلهي أمرت بالرجوع إلى الآثار فارجعني إليها بكسوة الأنوار وهداية الاستبصار حتى أرجع إليك منها كما دخلت إليك منها مصون السر عن النظر إليها ومرفوع الهمة عن الاعتماد عليها إنك على كل شيء قدير ، إلهي هذا ذلي ظاهر بين يديك وهذا حالي لا يخفى عليك ، منك أطلب الوصول إليك ، وبك أستدل عليك ، فاهدني بنورك إليك ، وأقمي بصدق العبودية بين يديك ، إلهي علني من عليك الخزون ، وصني بسر اسمك المصون ، إلهي حققني بحقائق أهل القرب ، واسلك بي مسالك أهل الجذب ، إلهي اغني بتدبيرك عن تدبيرى ، وباختيارك لي عن اختياري وأوقفني على مراکز اضطرابي ، إلهي أخرجني من ذل نفسي ، وطهرني من شكى وشركى قبل حلول رمسى ، بك أستنصر فأنصرني وعليك أتوكل فلا تكلني وإياك أسأل فلا تخيبني وفي فضلك أرغب

فلا تحرمنى ، ولجنايبك أنتسب فلا تبعدنى ، وبيابك أقف فلا تطردنى ، إلهى
تقدس رضاك أن تكون له علة منك فكيف تكون له علة منى ، أنت الغنى
بذاتك عن أن يصل إليك النفع فكيف لا تكون غنيا عنى ، إلهى إن القضاء
والقدر غلبنى ، وإن الهوى بونائق الشهوة أسرنى ، فكن أنت النصير لى
حتى تنصرنى وتنصر بى واغنى بفضلك حتى أستغنى بك عن طلبى ، أنت الذى
أشرقت الأنوار فى قلوب أوليائك حتى عرفوك ووحدوك ، وأنت الذى
أزلت الأغيار من قلوب أحبابك حتى لم يحبوا سواك ولم يلجأوا إلى غيرك ،
أنت المؤنس لهم حيث أوحشتهم العوالم ، وأنت الذى هديتهم حتى استبان
لهم المعالم ، ماذا وجد من فقدك ، وما الذى فقد من وجدك ، لقد خاب من
رضى دونك بدلا ، ولقد خسر من بغى عنك متحولا ، إلهى كيف يرجى
سواك وأنت ما قطعت الإحسان ، وكيف يطلب غيرك وأنت ما بدلت عاد
الامتنان ، يا من أذاق أحبابه حلاوة مؤانسته فقاموا بين يديه متملقين ،
ويا من ألبس أوليائه ملابس هيئته فقاموا بعزته مستعزين ، أنت الذاكر
من قبل الذاكرين ، وأنت البادى الإحسان من قبل توجه العابدين ، وأنت
الجواد بالعطاء من قبل طلب الطالبين ، وأنت الوهاب ثم أنت لما وهبتنا من
المستقرضين ، إلهى اطلبنى برحمتك حتى أصل إليك ، واجذبنى بمنتك حتى أقبل
إليك ، إلهى إن رجائى لا ينقطع عنك وإن عصيتك ، كما أن خوفى لا يزايلنى
وإن أطعتك ، إلهى قد دفعتنى العوالم إليك ، وقد أوقفنى بكرمك عليك .
إلهى كيف أخيب وأنت أملى ، أم كيف أهان وعليك متكلى ، إلهى كيف
أستعز وأنت فى الذلة أركزتنى ، أم كيف لا أستعز وإليك نسبتنى ، أم كيف
لا أفقر وأنت الذى فى الفقر أقتننى ، أم كيف أفقر وأنت الذى بجودك
أغنيتنى ، أنت الذى لا إله غيرك ، تعرفت لكل شيء فما جهلك شيء ، وأنت
الذى تعرفت إلى فى كل شيء فرأيتك ظاهرا فى كل شيء ، فأنت الظاهر لكل
شيء ، يا من استوى برحمانيته على عرشه ، فصار العرش غيبا فى رحمانيته ،
كما صارت العوالم غيبا فى عرشه ، محقت الآثار بالآثار ، ومحوت الأغيار
بمحيطات أفلاك الأنوار ، يا من احتجب فى سرادقات عزه عن أن تدركه

الابصار ، يا من تجلى بكمال بهائه فتحققت عظمته الأسرار ، كيف تخفى وأنت الظاهر ، أم كيف تغيب وأنت الرقيب الحاضر ، والله الموفق وبه أستعين ،^(١) .

(٣) توحيد الله والتوكل عليه : ويقول الغزالي إن التوحيد يترجمه قولك « لا إله إلا الله وحده لا شريك له » ، ولبابه أن يرى الأمور كلها من الله وأن يعبد عبادة يفرد بها فلا يعبد غيره ويخرج عن هذا التوحيد إتباع الهوى ، فكل متبع هواه فقد اتخذ هواه معبوده^(٢) .

ويقول أحمد بن عطاء الله السكندري « إرادتك التجريد مع إقامة الله إياك في الأسباب من الشهوة الخفية ، وإرادتك الأسباب مع إقامة الله إياك في التجريد انحطاط عن الهمة العلية » ، ويفسر ابن عباد الرندي هذه الحكمة بقوله إن الأسباب هنا عبارة عما يتوصل به إلى غرض ما ينال في الدنيا ، والتجريد عبارة عن عدم تشاغله بتلك الأسباب ، فمن أقامه الحق تعالى في الأسباب وأراد هو الخروج منها ، فذلك من شهوته الخفية ، وإنما كانت من الشهوة لعدم وقوفه مع مراد الله تعالى به وإرادته هو خلاف ذلك ، وإنما كانت خفية لأنه لم يقصد بذلك نيل حظ عاجل وإنما قصد بذلك التقرب إلى الله تعالى بكونه على حال هي أعلى بزعمه ، لكن فاته الأدب بعدم وقوفه مع مراد الله تعالى من إقامته إياه فيما أقامه فيه وتطلعه إلى مقام رفيع لا يليق به في الوقت ، وعلامة إقامته إياه في الأسباب أن يدوم له ذلك وأن تحصل له ثمرته ونتيجته ، وذلك بأن يجرد عن تشاغله بالأسباب سلامة في دينه وقطعا لمطمعه من

(١) راجع متن الحكم : « الله » والقصد المجرد في معرفة الاسم المفرد لابن عطاء الله السكندري .

(٢) ويسمى الغزالي توحيد المتأففين قسراً التوحيد وهو أن يقول الإنسان بلسانه لا إله إلا الله وقلبه غافل عنه أو منكراً له ، والقدير اثنتان توحيد العوام بأن يصدق بمعنى اللفظ قلبه كما صدق به عموم المسلمين ، والمرتبة الرابعة وهي أسمى من اللباب الذي ذكرناه ، هو الغناء في التوحيد بأن لا يرى في الوجود إلا واحداً وهي مشاهدة الصديقين لأنه من حيث لا يرى في الوجود إلا واحداً فلا يرى نفسه . راجع ص ٣٦ - ٤٤ من الثقافة الروحية في كتاب أحياء علوم الدين للغزالي للمحمود علي قراءة .

غيره وحسن نيته في صلة الرحم وإعانة فقير معدم إلى غير ذلك من فوائد المال المتعلقة بالدين ، ومن أقامه الحق تعالى في التجريد وأراد الخروج منه إلى الأسباب فذلك من انحطاط همته وسوء أدبه إن كان واقفاً مع شهوته الجلية ، لأن التجريد مقام رفيع أقام الحق تعالى فيه خواص عباده من الموحدين ، فإذا أقامه الحق تعالى في مقام الخواص ، فلم ينحط عن رتبهم إلى منازل أهل الانتقاص ؟ !

ويقول ابن عطاء الله السكندري : « من علامة الاعتماد على العمل نقصان الرجاء عند وجود الزلل » ويشرح هذه الحكمة شيخ الإسلام الشيخ عبد الله الشرقاوي بقوله : « إن من علامة الاعتماد على العمل أى عمل الجوارح من صلوات وأوراد وأذكار وغيرها ، رؤية النفس ونسبة الأعمال إليها والاعتماد عليها في دخول الجنة أو الوصول إلى الله تعالى وكشف الاستار عن القلوب ، إذ العارفون يشاهدون أن الفاعل الحقيقي هو الله تعالى وأنهم محل لظهور ذلك فقط ، ويريد بنقصان الرجاء ، أى رجائه في الله تعالى — أن يدخله الجنة وينجيه من العذاب أو حصول المكاشفات — عند وجود الزلل بأن تصدر منه معصية كزنا وغفلة عن الله تعالى ، ومن علامة كونه من العارفين فناؤه عن نفسه ، فإذا وقع في زلة أو أصابه غفلة ، شهد تصريف الحق فيه وجريان قضائه عليه ، كما إذا صدر منه طاعة أو لاح له مشاهدة قلبية ، لم ير في ذلك حوله وقوته ، فلا فرق عنده بين الحالين لأنه غارق في بحار التوحيد قد استوى خوفه ورجاؤه فلا ينقص العصيان خوفه ولا يزيد الإحسان رجاءه . »

ويقول ابن عطاء الله السكندري : « عبوديتك في الطاعة أن تشهد منته بها عليك . وفي المعصية الاستغفار والتوبة منها ، وفي النعمة الشكر عليها ، وفي البلية الصبر عليها^(١) وليخفف ألم البلاء عليك عليك بأنه سبحانه هو المبلى لك ،

(١) في الخبر « إذا أحب الله عبداً ابتلاه ، فإن صبر اجتبه ، فإن رضى استغفاه » وفيه أيضاً : يخفف له كفارة الذنوب والخطايا ويستوجب من الله جزيل الهبات والمطايا .

فالذى واجهتك منه الأقدار هو الذى عودك حسن الاختيار . سوابق الهمم^(١) لا تحرق أسوار الأقدار . أرح نفسك من التدبير فيما قام به غيرك عنك لا تقم به لنفسك ، اجتهادك فيما ضمن لك وتقصيرك فيما طلب منك دليل على انطماس البصيرة منك ، لا يكن تأخر أمد العطاء مع الإلحاح فى الدعاء موجبا لئأسك ، فهو ضمن لك الإجابة فيما يختاره لك لا فيما تختاره لنفسك . وفى الوقت الذى يريد لا فى الوقت الذى تريد ، لا يشككك فى الوعد عدم وقوع الموعد وإن تعين زمنه لئلا يكون ذلك قدحا فى بصيرتك ، وإخمادا لنور سريرتك ، إذا فتح الله لك وجهة من التعرف فلا تبال معها إن قل عملك ، فإنه ما فتحها لك إلا وهو يريد أن يتعرف إليك .

• ألم تعلم أن التعرف هو مورده عليك والأعمال أنت مهديها إليه ، وأين ما تهديه إليه مما هو مورده عليك ، اخرج من أوصاف بشريتك عن كل وصف مناقض لعبوديتك لتكون لنداء الحق مجيبا ومن حضرته قريبا ، أصل كل معصية وغفلة وشهوة الرضا عن النفس ، وأصل كل طاعة ويقظة وعفة عدم الرضا منك عنها ، ولأن تصحب جاهلا لا يرضى عن نفسه خير لك من أن تصحب عالما يرضى عن نفسه ، فأى علم لعالم يرضى عن نفسه وأى جهل لجاهل لا يرضى عن نفسه . تنوعت أجناس الأعمال لتنوع واردات الأحوال ، الأعمال صور قائمة وأرواحها وجود سر الإخلاص فيها ، ما نفع القلب شئ مثل عزلة يدخل بها ميدان فكرة ، كيف يشرق قلب صور الأكوان منطبعة فى مرآته ، أم كيف يرحل إلى الله وهو مكبل بشهواته ، أم كيف يطمع أن يدخل حضرة الله وهو لم يتطهر من جنابة غفلاته ، أم كيف يرجو أن يفهم دقائق الأسرار وهو لم يتب من هفواته ١٢ الكون كله ظلمة وإنما أناره ظهور الحق فيه ، فمن رأى الكون ولم يشهده فيه أو عنده أو قبله أو بعده ، فقد أعوزه وجود الأنوار وحجبت عنه شمس المعارف بسحب الآثار ، لا تتعد منة همتك إلى غيره ، فالكريم لا تتخطاه الآمال ، لا ترفعن إلى

(١) أى قوى النفس التى تفعل عنها بعض الموجودات بإذن الله تعالى .

غيره حاجة هو موردها عليك ، فكيف يرفع غيره ما كان هو له واضعا ، من لا يستطيع أن يرفع حاجة عن نفسه ، فكيف يستطيع أن يكون لها عن غيره رافعا ، إن لم تحسن ظنك به لأجل حسن وصفه ، فحسن ظنك به لوجود معاملته معك . فهل عودك إلا حسنا وهل أسدى إليك إلا منّا ، ما قل عمل برز من قلب زاهد ولا كثر عمل برز من قلب راغب ، حسن الأعمال نتائج حسن الأحوال وحسن الأحوال من التحقق في مقامات الإنزال ، من علامات موت القلب عدم الحزن على ما فاتك من الموافقات وترك الندم على ما فعلته من وجود الزلات ، لا يعظم الذنب عندك عظمة تصدك عن حسن الظن بالله تعالى ، فإن من عرف ربه استصغر في جنب كرمه ذنبه ، لا صغيرة إذا قابلك عدله ولا كبيرة إذا واجهك فضله ، إنما أورد عليك الوارد لتكون به عليه واردا ، أورد عليك الوارد ليتسلك من يد الأغيار وليحررك من رق الآثار ، أورد عليك الوارد ليخرجك من سجن وجودك إلى فضاء شهودك ، الأنوار مطايا القلوب والأسرار ، النور جند القلب كما أن الظلمة جند النفس ، فإذا أراد الله أن ينصر عبده أمدّه بجنود الأنوار وقطع عنه مدد الظلم والأغيار ، النور له الكشف والبصيرة لها الحكم والقلب له الإقبال والأدبار ، لا تفرحك الطاعة لأنها برزت منك وافرح بها لأنها برزت من الله إليك . قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون ، قطع السائرين له والواصلين إليه عن رؤية أعمالهم وشهود أحوالهم ، أما السائرون فلأنهم لم يتحققوا الصدق مع الله فيها ، وأما الواصلون فلأنه غيبتهم بشهوده عنها ، خف من وجود إحسانه إليك ودوام إساءتك معه ، أن يكون ذلك استدراجا لك . سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ، إذا أردت أن تعرف قدرك عنده فانظر فيماذا يقيمك ، متى رزقك الطاعة والغنى به عنها فاعلم أنه قد أسبغ عليك نعمه ظاهرة وباطنة ، الحزن على فقدان الطاعة مع عدم النهوض إليها من علامات الاغترار ، والعطاء من الخلق حرمان ، والمنع من الله إحسان ، جل ربنا أن يعامله العبد نقدا فيجازيه بسيئة ، كفى من جزائه إياك على الطاعة أن رضيك لها أملا ، كفى العاملين جزاء ما هو فاتحه على قلوبهم في طاعته وما هو مورده عليهم من وجود مؤانسته ،

متى أعطاك أشهدك بره ومتى منعك أشهدك قهره ، فهو في كل ذلك متعرف ومقبل بوجود لطفه عليك ، إنما يؤلك المنع لعدم فهمك عن الله فيه ، ربما فتح لك باب الطاعة وما فتح لك باب القبول ، وربما قضى عليك بالذنب فكان سببا في الوصول ، معصية أورثت ذلا وافتقارا ، خير من طاعة أورثت عزا واستكبارا ، متى جعلك في الظاهر ممثلا لأمره ورزقك في الباطن الاستسلام لقهره فقد أعظم المنة عليك ، الغافل إذا أصبح ينظر ماذا يفعل ، والعاقل ينظر ماذا يفعل الله به ، كن بأوصاف ربوبيته متعلقا وبأوصاف عبوديتك متحققا ، منعك أن تدعى ما ليس لك مما للخلقين ، أفبيح لك أن تدعى وصفه وهو رب العالمين^(١) ، لو أنك لا تصل إليه إلا بعد فناء مساويك ومحو دعاويك ، لم تصل إليه أبدا ، ولكن إذا أراد أن يوصلك إليه غطى وصفك بوصفه ونعتك بنعته ، فوصلك إليك بما منه إليك لا بما منك إليه ، الستر على قسمين : ستر عن المعصية وستر فيها ، فالعامة يطلبون من الله تعالى الستر فيها خشية سقوط مرتبتهم عند الخلق ، والخاصة يطلبون من الله الستر عنها خشية سقوطهم من نظر الملك الحق ، ربما استحيا العارف أن يرفع حاجته إلى مولاه لا كتفائه بمشيئته ، فكيف لا يستحي أن يرفعها إلى خليفته ، ما أحببت شيئا إلا كنت له عبدا وهو لا يحب أن تكون لغيره عبدا ، لا تنفعه طاعتك ولا تضره معصيتك ، إنما أمرك بهذه ونهاك عن هذه لما يعود عليك ، وصولك إلى الله ووصولك إلى العلم به وإلا لجل ربنا أن يتصل بشيء أو يتصل هو بشيء ، تطلعك إلى بقاء غيره دليل على عدم وجدانك له واستيحاشك لفقدان ما سواه دليل على عدم وصلتك به ، النعيم وإن تنوعت مظاهره فإنما هو بشهوده واقترابه ،

(١) يقول الشيخ أبو طالب رضي الله تعالى عنه : هذا حال عبد فان عن نفسه مأخوذ ، إذ كان ربه عز وجل له موجدا ، طال مقامه في المقامات فقصرت عن وصفه الصفات ، وحق له إذا نظر إلى الحسن الذي حسنت المحاسن كلها عن حسنه وشانت الزينات جميعها بعد النظر إلى زينته ، وشهد الجمال الذي تحمل الجمال والمتجملون بجماله أن لا يستحسن سواه ، وكيف يحب غير ما استحسن أو تزين في عينه إلا إياه ، أم كيف يطلب غير ما أحب ! أو يصبر مع غير ما طلب ، بل كيف يهتم بغير ما طلب ، فهذا نعت عبد مطلوب بهين ما طلب ، ووصف شخص محبوب بعين ما أحب « الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس » .

والعذاب وإن تنوعت مظاهره إنما هو لوجود حجاب ، فسبب العذاب وجود الحجاب ، وإتمام النعيم بالنظر إلى وجهه الكريم ، ما تجده القلوب من الهموم والأحزان ، فلاجل ما منعت من وجود العيان ، متى آلمك عدم إقبال الناس عليك أو توجههم بالذم إليك ، فارجع إلى علم الله فيك ، فإن كان لا يقنعك عليه فصيبتك بعدم قناعتك بعلمه أشد من مصيبتك بوجود الأذى منهم ، إنما أجرى الأذى على أيديهم كي لا تكون ساكنة إليهم ، أراد أن يزعجك عن كل شيء حتى لا يشغلك عنه شيء ، إذا علمت أن الشيطان لا يغفل عنك فلا تغفل أنت عن ناصيتك بيده ، جعله لك عدواً ليحوشك به إليه ، وحرك عليك النفس ليدوم إقبالك عليه ، المؤمن يشغله الثناء على الله تعالى عن أن يكون لنفسه شاكرًا ، وتشغله حقوق الله عن أن يكون لحظوظه ذاكرًا ، ليس المحب الذي يرجو من محبوبه عوضاً أو يطلب منه غرضاً ، فإن المحب من يبذل لك ليس المحب من تبذل له .

(٤) اطمئنان القلوب بالله ومع الله : (١) الإسلام من سلام النفوس و سلام القلوب و سلام الضمائر و سلام النوايا و سلام الأعمال ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قلنا يا رسول الله ! مالنا إذا كنا عندك رقت قلوبنا وزهدنا في الدنيا وكانت الآخرة كأنها رأى عين ! وإذا خرجنا من عندك فأنسنا في أهلينا وشمنا أولادنا ، أنكرنا أنفسنا ؟ فقال عليه السلام : لو تدومون على حالكم عندى لزارتكم الملائكة عليهم السلام في بيوتكم ولصاغتكم في طرقكم ، ولو لم تذبوا لذهب الله بكم وجاء بخلق جديد يذنبون ويستغفرون فيغفر لهم ، وعن أبي إدريس الخولاني عن أبي ذر رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما روى عن ربه عز وجل أنه قال : يا عبادى إني حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا ! يا عبادى كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم ! يا عبادى كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم ! يا عبادى كلكم عار إلا من

كسوته فاستكسوني أ كسكم ! يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم ! يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني ! يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً ! يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ، ما نقص ذلك من ملكي شيئاً ! يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد^(١) واحد وسألوني فأعطيت كل إنسان مسأله ، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص الخيط^(٢) إذا أدخل في البحر ! يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه ، ا

فما هو الظلم الذي حرمه الله على نفسه ونفاه عن نفسه بقوله : « وما ظلمناهم » ، وقوله « ولا يظلم ربك أحداً » ، وقوله « وما ربك بظلام للعبيد » ، وقوله « إن الله لا يظلم مثقال ذرة » ، وإن تك حسنة يضاعفها ، وقوله « قل متاع الدنيا قليل » ، والآخرة خير لمن أتقى ، ولا تظلمون فتيلاً ، ونبي إرادته بقوله « وما الله يريد ظلماً للعالمين » ، وقوله « وما الله يريد ظلماً للعباد » ، ونبي خوف العباد له بقوله « ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن » ، فلا يخاف ظلماً ولا هضماً ، ؟ .

يقول ابن تيمية بعد بحث طويل « الله تعالى خلق كل صانع وصنعتة كما جاء ذلك في الحديث وهو خالق كل موصوف وصفته ، ثم صفات المخلوقات ليست صفات له كالألوان والطعوم والروائح لعدم قيام ذلك به ، وكذلك حركات المخلوقات ليست حركات له ولا أفعالا له بهذا الاعتبار لكونها مفعولات هو خلقها — وبهذا الفرق تزول شبه كثيرة ، والأمر الذي كتبه على نفسه يستحق عليه الحمد والثناء ، وهو مقدس عن ترك هذا الذي لو ترك لكان تركه نقصاً —

(١) الصعيد وجه الأرض وقيل التراب .

(٢) الخيط بكسر الميم : الابر .

وكذلك الأمر الذى حرمه على نفسه ، يستحق الحمد والثناء على تركه . وهو مقدس عن فعله الذى لو كان لأوجب نقصاً ، وهذا كله بين والله الحمد عند الذين أوتوا العلم والإيمان وهو أيضاً مستقر فى قلوب عموم المؤمنين ، فقد دل الكتاب والسنة على أن الله تعالى كتب على نفسه الرحمة ، وكان حقاً عليه نصر المؤمنين ، وكان حقاً عليه أن يحزى المطيعين ، وأنه حرم الظلم على نفسه فهو سبحانه الذى حرم بنفسه على نفسه الظلم ، كما أنه هو الذى كتب بنفسه على نفسه الرحمة ! لا يمكن أن يكون غيره محرماً عليه أو موجباً عليه فضلاً عن أن يعلم ذلك بعقل أو غيره ، وإذا كان كذلك فهذا الظلم الذى حرمه على نفسه هو ظلم بلا ريب وهذا أمر ممكن مقدور عليه ، وهو سبحانه يتركه مع قدرته عليه بمشيئته واختياره ، لأنه عادل ليس بظالم ، كما يترك عقوبة الأنبياء والمؤمنين وكما يترك أن يحمل البرىء ذنوب المعتدين ، وهو سبحانه جعل العدل أمراً واجباً فى كل شيء وعلى كل أحد ، والظلم محرماً فى كل شيء وإكل أحد ، وجعل كل خير داخلاً فى القسط والعدل ، وكل شر داخلاً فى الظلم^(١) .

(ب) عن ابن عباس رضى الله عنهما ، قال : قيل يا رسول الله إن أحدنا يجد فى نفسه يعرض بالشئ لأن يكون حمة أحب إليه من أن يتكلم به ! فقال : الله أكبر ، الحمد لله الذى رد كيده^(٢) إلى الوسوسة ، ولمسلم عن ابن مسعود رضى الله عنهما قالوا يا رسول الله إن أحدنا ليجد فى نفسه ما لأن يحترق حتى يصير حمة أو يخز من السماء إلى الأرض أحب إليه من أن يتكلم به ! قال : ذلك محض الإيمان ! ويقول الشريف الحسينى المغربى إن وساوس الشيطان لا تضر الإنسان لأن التسلط هو أن يفسد على الإنسان دينه ليس التسلط مجرد الوسواس ، « إن الذين اتقوا ، إذا مسهم طائف من الشيطان ، تذكروا فإذا هم مبصرون » ، ويقول ابن تيمية ما خلاصته : إن كراهة وبغض خواطر الكفر والتفارق بأن يتألم لها قلب المؤمن تألماً شديداً ويفر منها هو صريح الإيمان ،

(١) راجع ص ٢١٤ — ٢٢٠ وحى الأحاديث المحمدية لمحمود على قراءة الجزء الأول وص ٢٣٦ — ٣٧٢ من فتاوى ابن تيمية المجلد الأول .
(٢) أى كيد الشيطان .

والحمد لله الذى كان غاية كيد الشيطان الوسوسة ، فإن شيطان الجن إذا غلب وسوس وشيطان الإنسان إذا غلب كذب ، والوسواس يعرض لكل من توجه إلى الله تعالى بذكر أو غيره ، لا بد له من ذلك ، فينبغى للعبد أن يثبت ويصبر ويلتزم ما هو فيه من الذكر والصلاة ولا يضجر فإنه بملازمته ذلك ينصرف عنه كيد الشيطان ، إن كيد الشيطان كان ضعيفا ، وكلما أراد العبد توجهها إلى الله تعالى بقلبه ، جاء من الوسواس أمور أخرى ، فإن الشيطان بمنزلة قاطع الطريق ، كلما أراد العبد أن يسير إلى الله تعالى ، أراد قطع الطريق عليه ، ولهذا قيل لبعض السلف إن اليهود والنصارى لا توسوس فقال صدقوا وما يصنع الشيطان بالبيت الخراب^(١) !

(ح) وحدثنا نبينا الكريم عن حد الله فى السؤال فى الأمور الدينية ، فعن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا يزال الناس يسألونكم عن العلم حتى يقولوا هذا الله خالق كل شىء ، فمن خلق الله ! وله فى أخرى : فإذا قالوا ذلك فقولوا : الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ! ثم ليتفل عن يساره ثلاثا وليستعذ من الشيطان ، ووجه الأمر بمحاربة جولان الشيطان الرجيم ووسوسته فى البحث عما لا يستطيع البشر إدراكه لقصورهم ، أن يلزموا بذلك الأدب مع الله سبحانه وتعالى الذى ترك ذكر أشياء من غير نسيان وأخفاها عنهم رحمة بهم ، لأن نور الحق إذا سطع لن تقوى أبصارهم ولا بصائرهم على رؤيته أو إدراكه إلا بحجب شاءها لهم ربهم ، وأراد سبحانه بهذا الترك والإخفاء عنهم تقوية أرواحهم وتزكية قلوبهم بالقرب منه بالطاعة له بعدم تضييع فرائضه وعدم اعتداء حدوده أو قرب محرماته ، ويقول الأستاذ الحسينى المغربى رضى الله

(١) راجع العقد النفيس فى نظم جواهر التدريس للمغربى ص ٢٠ وص ١٩ - ٢٢ من فتاوى ابن تيمية المجلد الثانى وص ٥٠ - ٥٣ من وحى الأحاديث المحمدية لمحمود على قراءة الجزء الثانى . وقد حدثنا نبينا الكريم عن تجاوز الله سبحانه وتعالى لحديث النفس ما لم ينطق أو يعمل به ، فمن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إن الله تعالى تجاوز عن أمى ما حدثت به أنفسها ما لم يعملوا به أو يتكلموا .

عنه : من أراد سبحانه به خيرا رزقه الأدب معه ، فإن إبليس أذنب حيث لم يسجد لآدم فترك ما أمره الله ، وآدم عليه الصلاة والسلام أذنب حيث أكل من الشجرة ففعل ما نهاه الله عنه ، لكن لما قال سبحانه وتعالى لإبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي استكبرت أم كنت من العالين — والعالين هم ملائكة لم يأمرُوا بالسجود إنما هم هائمون في الله لا يعرفون غيره — وهو ليس منهم فما بقي إلا أنه استكبر ! فبين استكباره بأن قال : « أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين » ، فنسب إلى الحق سبحانه الظلم — لأنه جعل نفسه خيرا منه وسجود الأعلى للأدنى ظلم — فأضاع الأدب أى إضاعة فكان سبب طرده ولعنه ، وآدم عليه السلام لما قال له الحق سبحانه وتعالى — ولزوجه : ألم أنهكما عن تلك الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين ! قالا : ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ! فلزما الأدب واعترفا بذنبيهما ولم ينسبا الظلم إلا إليهما ، فغفر سبحانه وتعالى لهما ، وانظر أيضا إلى إبراهيم عليه السلام حيث دعا ربه سبحانه وتعالى حيث قال : « فإنهم عدو لي إلا رب العالمين الذى خلقني فهو يهدين والذى هو يطعمني ويسقين ، اثم لزم الأدب هنا ولم يقل إذا أمرضني فهو يشفين بل قال : « وإذا مرضت فهو يشفين » ، فنسب المرض إليه تأدبا مع الحق سبحانه وتعالى اثم خاف عند ذلك نخشى أن يكون سلوكه في طريق الأدب قد وقع فيما لا يليق بجلال سيده سبحانه وتعالى بأن نسب المرض إلى نفسه فقال : « والذى أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين » ، فجعل نسبة المرض إليه خطيئة ! وانظر أيضا إلى الخضر عليه السلام حيث نبأ موسى بما لم يستطع عليه صبرا فقال : أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأردت أن أعيبها ، ! فعند ذكر العيب هنا قال فأردت وأتى بالضمير المفرد ونسب العيب للسفينة إلى نفسه وذلك تأدبا مع مولاه سبحانه وتعالى ! وقال في قتل الغلام ، وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا فأردنا ! فأتى بالضمير لاعلى صيغة الإفراد لأن في قتله علي أبو به حزنا وكربا في الابتداء عند قتله ، وسرورا

وراحة في الانتهاء باعتبار ما انتهى إليه أمرهما ، لأن الله سبحانه وتعالى أبدلها بابنة خرج منها سبعون نبيا ، فالضمير ههنا هو ضمير نفسه مع الحق سبحانه والنكته في إتيان الضمير بصيغة التثنية التأدب مع الحق جل وعلا ! فالأمر الذي يقتضى الحزن والكرب وهو ما حصل لأبويه عند قتله ، نسبه إلى نفسه وما آل إليه الأمر نسبه إلى الحق سبحانه وتعالى ، ولذلك لما كانت الحالة لا تقتضى إلا السرور والراحة ابتداء وانتهاء نسب الأمر إلى الله تعالى ولم يجعل لنفسه مدخلا ، فقال في وصف الجدار : وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحا فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما ، ! فقال في الأولى فأردت وقال في الثانية فأردنا وقال في الثالثة فأراد ربك ، وانظر أيضا إلى دعاء نبينا محمد عليه الصلاة والسلام قال : «إليك اللهم ليك ! ليك وسعديك والخير في يديك والشر ليس إليك ، أى لا يتقرب به إليك ، فما أحسن هذا التأدب مع مولاه سبحانه وتعالى موافقة لقوله تعالى : « ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك » ، ومعنى قول أبي بكر الصديق رضى الله عنه — لما قيل له في مرضه الذى منه مات : هل نلتمس لك طيبا ؟ فقال الطبيب هو الذى أمرضنى ! إن الطبيب داوانى بدواء يزول منه دأئى وهو المرض ، فالمرض هو عين الدواء وإذا كان كذلك فليس بشر وإذا كان لم يكن بشر فلا إساءة في الأدب بل ذلك من حسن الأدب !

ويرى المغربي في موضع آخر أن الأدب مع الله يكون حتى في الإعراب ولذا يقول إن كان إذا دخلت على اسم من أسماء الله تعالى ، فإن عملت في الإسم الرفع وفي الخبر النصب فلا تسمى ناقصة تأديبا ، إنما يقال لها الرافعة للإسم الناصبة للخبر ، وإذا لم تعمل سميت التامة ، وكذلك الذى تسميه النحاة زائدا لا يقال له في القرآن زائداً وليس بزائد بل تحته معنى نحو قوله تعالى « حتى إذا ما جاءوها ، بقيت ما هنا النافية لتؤدى معنى وهو أن يبقى في الإثبات شئ من النفي لأنهم ما جاءوها باختيارهم إنما سيقوا إليها » وسبق الذى كفروا

إلى جهنم زمرا ، فبقيت النافية لتؤدى هذا المعنى ، وكذلك قولهم فى قوله تعالى « فأتوا بسورة من مثله » ، إن من هنا زائدة وليس كذلك تعالى الله بل لا يستقيم المعنى إلا بها ، لأن قوله « وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله » أى من مثل عبدنا فالضمير راجع إلى عبدنا ولا يصح المعنى إلا بها فتأمل وكذلك قوله تعالى « إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات » فهى وإن كان المعنى للشبوت لكن أتى بالنافية هنا لتبقى للنفي شتم وهو يؤدى معنى أنهم غير واثقين بالتقوى منهم وذلك شأن المؤمن ، فإنه ورد فى حديث بعض السلف ذكره البخارى أنه عرف كذا عددا من الصحابة كلهم يخشى على نفسه النفاق فتأمل فائدة الإتيان بها^(١) .

وعن عدى بن حاتم رضى الله عنه قال : خطب رجل عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال : من يطع الله ورسوله فقد رشد ! ومن يعصهما فقد غوى ! فقال صلى الله عليه وسلم : بنس الخطيب أنت ! قل : ومن يعص الله ورسوله ! وعن حذيفة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تقولوا ما شاء الله وشاء فلان ، ولكن قولوا ما شاء الله ثم شاء فلان ، ونقول إن النبي الكريم إنما ذم الخطيب ونهى عن القول فى الحديثين الأخيرين لأن الأدب مع الله سبحانه وتعالى يقتضى عدم اتصال الفعل المنسوب إليه بضمير التثنية فى الأمر والنهى كما يقتضى العطف بـ ثم إذا ذكر المشيئة لأن مشيئة الله هى السابقة وثم للترتيب مع التراخى ، بينما واو العطف لمطلق الجمع^(٢) .

وكان نبينا صلى الله عليه وسلم فى حبه لله تعالى أكثر الناس حرصاً على الأدب فى حق ربه ، فعن جبير بن مطعم رضى الله عنه ، قال : أتى أعرابى

(١) راجع ص ٣١٩ — ٣٢٧ من وحى الأحاديث الحمديدية لمحمود على قراءة الجزء الأول وص ٩ و ١٠ و ٢٦ و ٢٩ و ٧٧ و ٧٩ من العقد النفيس للمغربى . ونذكر أنه يتنافى مع الأدب مع الله لف الأشياء فى الصحف أو القاءها إذا كان مذكورا فيها اسم الكريم ، وكذلك لا يجوز استعمال لفظ العبادة إلا لله ، فلا يجوز أن يقول الزوج مثلا لزوجه التى يحبها لى أعبدك ، بل يقول لها لى أحبك ، وفى اللغة متسع لألفاظ التحبيب !

(٢) راجع ص ٣٧٥ و ٣٧٦ من وحى الأحاديث الحمديدية لمحمود على قراءة الجزء الأول وص ٧٨ من قواعد اللغة العربية لتلاميذ المدارس الثانوية للرحوم حفى ناصف وآخرين .

النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله جهدت الانفس وضاع العيال وهلكت الاموال فاستسق لنا فإنا نستشفع بك على الله تعالى ونستشفع بالله عليك ! فقال صلى الله عليه وسلم : ويحك ! أتدرى ما تقول ؟ وسبح صلى الله عليه وسلم ، فما زال يسبح حتى عرف ذلك في وجه أصحابه ثم قال : إنه لا يستشفع بالله تعالى على أحد من خلقه ، شأن الله أعظم من ذلك ، ويحك ! أتدرى ما الله ؟! إن عرشه على سمواته هكذا ، وقال بأصابعه مثل القبة وإنه ليشط أطيط الرجل بالراكب^(١) .

(د) ويدعو الإسلام إلى حسن تأويل النصوص : فعن معاوية بن الحكم السلمي ، قال : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقلت إن لى جارية كانت ترعى غنما لى فجئتها وقد فقدت شاة فسألتها عنها فقالت أكلها الذئب ! فأسفت عليها وكنت من بنى آدم فلطمت وجهها وعلى رقبة أفأعتقها ؟ فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم أين الله تعالى ؟ قالت فى السماء اقال فمن أنا ؟ قالت أنت رسول الله فقال اعتقها فإنها مؤمنة ، ويقول ابن تيمية بأن القول بأن الله فى السماء بمنزلة قوله تعالى « أأنتم من فى السماء أن يخسف بكم الارض فإذا هى تمور ؟ أم أأنتم من فى السماء أن يرسل عليكم حاصبا فستعلمون كيف نذير » وليس المراد بذلك أن السماء تحصر الرب وتحويه كما نحوى الشمس والقمر وغيرهما فإن هذا لا يقوله مسلم ولا يعتقد عاقل ، فقد قال سبحانه وتعالى « وسع كرسيه السموات والارض ، والسموات فى الكرسي كحلقه ملقاة فى أرض فلاة ، والله سبحانه فوق سمواته على عرشه بائن من خلقه ليس فى مخلوقاته شىء من ذاته ولا فى ذاته شىء من مخلوقاته^(٢) » .

ومن ذلك ما روى عن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول : من يدعونى فأستجيب له ، من يسألنى فأعطيه ، ومن يستغفرنى

(١) راجع ص ١٧٢ من وحي الأحاديث الحمديّة لمحمود على قراءة الجزء الأول .

(٢) راجع ص ٤٢ — ٤٤ من وحي الأحاديث الحمديّة لمحمود على قراءة الجزء الثانى

وص ٤٠٥ و ٤٠٦ من فتاوى ابن تيمية المجلد الأول .

فأغفر له ، ويقول الشيباني إن المراد هنا نزول الرحمة والألطف الإلهية ، وهو تفسير قيم قال به مختصراً دفعاً للدخول في رد الاعتراضات التي اعترض بها من أن ظاهر الحديث فيه تشبيه يكذبه القرآن والإجماع وأنه يخالف لقوله تعالى : « ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا » ، وقوله عز وجل : « وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله » ، على أنه بكل مكان لا يشغله شأن عن شأن . وقد رد ابن قتيبة رحمه الله على هذه الاعتراضات بما خلاصته أن الله معهم بالعلم بما هم عليه كأن تحذر من وكلته بأمر من التقصير لأنك معه ، تريد أنه لا يخفى عليك تقصيره فلا إشراف عليه والبحث عن أموره ، وإذا جاز هذا في المخلوق الذي لا يعلم الغيب ، فهو بالخالق الذي يعلم الغيب أجوز ، ويراد بكونه تعالى بكل مكان أنه لا يخفى عليه شيء مما في الأماكن فهو فيها بالعلم والإحاطة ، وبذا يقول ابن قتيبة إنه لا يسوغ لأحد أن يقول إنه بكل مكان على الحلول مع قوله : « الرحمن على العرش استوى » ، أي استقر ، ومع قوله تعالى : « إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه » ، وكيف يصعد إليه شيء هو معه أو يرفع إليه عمل هو عنده وكيف تعرج الملائكة والروح إليه يوم القيامة وتعرج بمعنى تصعد ، والله عز وجل ذو المعارج ، والمعارج بمعنى الدرج ، والله تعالى هو العلي وهو الأعلى وهو بالمكان الرفيع وأن القلوب عند الذكر — أو عند الذعر تسمو نحوه والأيدي ترفع بالدعاء إليه ، ومن العلو يرجى الفرج ويتوقع النصر وينزل الرزق ، وهنالك الكرسي والعرش والحجب والملائكة ، ويقول الله تبارك وتعالى في الشهداء « أحياء عند ربهم يرزقون » ، وقيل لهم شهداء لأنهم يشهدون ملكوت الله تعالى وأحدهم شهيد ، وقال تعالى « لو أردنا أن نتخذ لهموا لاتخذناه من لدنا » ، أي لو أردنا أن نتخذ امرأة وولداً لاتخذنا ذلك عندنا لا عندكم ، والأمم كلها عريتها وعجمها تقول إن الله تعالى في السماء ماتركت على فطرها ولم تنقل عن ذلك بالتعليم ، وأما قوله تعالى : « وهو الذي

في السماء إله وفي الأرض إله ، ، فليس في ذلك ما يدل على الحلول بهما وإنما أراد به أنه إله السماء وإله من فيها وإله الأرض وإله من فيها ، فإن قيل لنا كيف النزول منه عز وجل ؟ قلنا لانحتم على النزول منه بشيء ولكننا نبين النزول منا وما تحتمله اللغة من هذا اللفظ ، والله أعلم بما أراد — والنزول منا يكون بمعنيين أحدهما الانتقال من مكان إلى مكان كنزولك من الجبل إلى الحضيض والمعنى الآخر إقبالك على الشيء بالإرادة والعزم والنية والقصد ، وكذلك قوله عز وجل : « إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » ، لا يريد أنه معهم بالحلول ولكن بالنصرة والتوفيق ، وكذلك قوله تعالى في الحديث القدسي « من تقرب مني ذراعا تقربت منه باعا ، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة ، ومن ذلك أن موسى صلى الله عليه وسلم لما نودي من الشجرة : اخلع نعليك أسرع الإجابة وتابع التلبية وما كان ذلك إلا استئناسا منه بالصوت وسكونا إليه وقال إني أسمع صوتك وأحس وجسك^(١) — أو حسك — ولا أرى مكانك فأين أنت ؟ فقال : أنا فوقك وأمامك وخلفك ومحيط بك وأقرب إليك من نفسك ، يريد أني أعلم منك بنفسك ، لأنك إذا نظرت إلى ما بين يديك خفي عنك ما وراءك وإذا سموت بطرفك إلى ما فوقك ذهب عنك علم ما تحتك وأنا لا تخفي على خافية منك في جميع أحوالك ، ونحو هذا قول رابعة العدوية رضي الله عنها : شغلوا قلوبهم عن الله عز وجل بحب الدنيا ولو تركوها لجالت في الملكوت ثم رجعت إليهم بطرف الفوائد ، ولم ترد أن أبدانهم وقلوبهم تجول في السماء بالحلول ولكن تجول هناك بالفكرة والقصد والإقبال^(٢) .

ومن ذلك حديث خلق الله آدم على صورته ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لما خلق الله آدم على صورته طوله ستون ذراعا ، قال اذهب فسلم على أولئك نفر من الملائكة جلوس فاستمع

(١) الوجس لغة الفزع يقع في القلب أو السمع من صوت أو غيره كالوجسان والصوت الخفي.

(٢) راجع ص ٢٧٢ — ٢٧٦ من وحي الأحاديث المحمدية لمحمود علي قراة الجزء الثاني

وص ٣ من كتاب تيسير الوصول إلى جامع الأصول من حديث الرسول للشيخاني الجزء الثاني وص ٢٤٣ — ٣٥١ من تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة .

ما يحيونك فإنها تحيتك وتحية ذريتك ، فقال السلام عليكم ، فقالوا السلام عليك
ورحمة الله ، فزاده رحمة الله ، فكل من يدخل الجنة على صورة آدم ، فلم يزل
الخلق ينقص حتى الآن ، واعترض بعضهم على هذا الحديث بأن الله تبارك
وتعالى يحل عن أن يكون له صورة أو مثال ، فاما معنى أن الله عز وجل خلق
آدم على صورته ؟ يقول الغزالي إن التعارف والتناسب يقتضي حب الله تعالى
لمناسبة باطنه لا ترجع إلى المشابهة في الصور والأشكال بل إلى معان باطنه هي
قرب العبد من ربه عز وجل في الصفات التي أمر فيها بالاعتناء والتخلق بأخلاق
الربوبية وذلك في اكتساب محامد الصفات ، على أن الروح أمر رباني
« قل الروح من أمر ربي ، » فإذا سويته ونفخت فيه من روحي ، وقد خلق
الله سبحانه آدم على صورته كما رمز النبي صلى الله عليه وسلم حتى ظن القاصرون
أن لا صورة إلا الصورة الظاهرة المدركة بالحواس فشبهوا وجسموا وصوروا
تعالى الله رب العالمين عما يقولون علوا كبيرا ، وعلى هذا فالغزالي يقرر أن
المراد بالصورة الصورة الباطنة في التخلق باكتساب محامد الصفات التي أمر
الله تعالى بها ، وأراد بعضهم تأويل الحديث بعدة تأويلات ، فقال قوم من
أصحاب الكلام : أراد خلق آدم على صورة آدم لم يزد على ذلك ويرد ابن قتيبة
بأنه لو كان المراد هذا ما كان في الكلام فائدة — ومثل هذا قول بعضهم
في حديث « لا تقبحوا الوجه فإن الله خلق آدم على صورته ، أنه يراد به أن
الله عز وجل خلق آدم على صورة الوجه — لأنه لا يشك أحد في أن الله
تعالى خلق الإنسان على صورته (أى على صورة الإنسان) والسباع على
صورها والأنعام على صورها ، وقال آخرون إن الله تعالى خلق آدم على
صورة عنده ، ويرد ابن قتيبة على هذا بأنه لا يجوز لأن الله عز وجل لا يخلق
شيئا من خلقه على مثال ، ويقول إنه لم يره في التأويلات ، شيئا أقرب من الاطراد
ولا أبعد من الاستكراه من تأويل بعض أهل النظر فإنه قال فيه : أراد الله
تعالى خلق آدم في الجنة على صورته في الأرض ، كأن قوما قالوا إن آدم كان
من طوله في الجنة كذا ومن حليته كذا ومن نوره كذا ومن طيب رائحته كذا

لمخالفة ما يكون في الجنة عما يكون في الدنيا ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم إن الله خلق آدم — يريد في الجنة — على صورته — يعنى في الدنيا — ويقول ابن قتيبة إنه لا يحتم بهذا التأويل على هذا الحديث ولا يقضى بأنه مراد رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه قرأ في التوراة : إن الله عز وجل لما خلق السماء والأرض قال تخلق بشرا بصورتنا فخلق آدم من ادمه الأرض ونفخ في وجهه نسمة الحياة ، وهذا لا يصلح له ذلك التأويل ، وكذلك حديث ابن عباس أن موسى صلى الله تعالى عليه وسلم ضرب لبنى إسرائيل فتفجر وقال اشربوا يا حمير ، فأوحى الله تبارك وتعالى إليه : عمدت إلى خلق من خلقي خلقهم على صورتي فشبهتهم بالحمير ، فما برح حتى عوقب — أو حتى عوتب !

ولا ريب في أن قول الغزالي إن المراد هو صورة المعانى الباطنة من تخلق الإنسان بأخلاق الربوبية في اكتساب محامد الصفات ، هو أقرب التفاسير إلى قلب المؤمن الحق ، لا سيما والقول المفسر هنا هو قول نبينا الكريم الذى قيل له في رواية عن ابن عمر رضى الله عنهما يا رسول الله أين الله ؟ فى الأرض أو فى السماء ؟ فقال : فى قلوب عباده المؤمنين !

ومن ذلك ما حدثنا به نبينا الكريم عن صفات الله عز وجل ، فعن ابن موسى رضى الله عنه ، قال : قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمس كلمات فقال : إن الله تعالى لا ينام ولا ينبغي له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار وعمل النهار قبل عمل الليل ، حجاب النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره ، ويقول الشيباني إن سبحات وجه الله أنواره ، أى لو انكشف من أنوار الله التى تحجب العباد عنه شيء لأهلك كل من وقع عليه ذلك النور ، كما خر موسى عليه السلام صعقا وتقطع الجبل دكا لما تجلى الله سبحانه وتعالى (٢)

(١) الأدمة بفتحين بمعنى باطن الأرض هنا .

(٢) راجع ص ٣٤١ — ٣٤٦ من وحى الأحاديث الحمديّة الجزء الأول لمحمود على قراءة وص ٦٣ من الثقافة الروحية فى كتاب احياء علوم الدين للغزالي لمحمود على قراءة و ٢٧٥ — ٢٨٠ من تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة و ٢٨٧ ج ٢ من تيسير الوصول للشيباني .

(هـ) وحدثنا نبينا الكريم عن قدر الله والإيمان به مع العمل والرضا ، فعن ابن مسعود رضى الله عنه ، قال : حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق : أن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوما ، ثم يكون علقه مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يبعث الله إليه ملكا بأربع كلمات ، يكتب رزقه وأجله وعمله وشقى أم سعيد ، ثم ينفخ فيه الروح ، فوالذى لا إله غيره ، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها ، ويقول بعضهم بوجود تناقض بين هذا الحديث الذى يقول بأن الشقى من شقى فى بطن أمه ، والسعيد من سعد فى بطن أمه ، وحديث كل مولود يولد على الفطرة ، فرد عليهم ابن قتيبة بما خلاصته أنه أراد بقوله كل مولود يولد على الفطرة ، أخذ الميثاق الذى أخذه عليهم فى أصلاب آبائهم ، وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ قالوا بلى ، إذ لا يوجد أحد إلا وهو مقرر بأن له صانعا ومدبرا وإن سماه بغير اسمه أو عبد شيئا دونه ليقربه منه عند نفسه أو وصفه بغير صفاته أو أضاف إليه ما تعالى عنه علوا كبيرا ، والله تعالى يقول : « ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله ، فكل مولود فى العالم على ذلك العهد والإقرار ، وهى الحنيفية التى وقعت فى أول الخلق وجرت فى فطرة العقول (١) .

وحدثنا نبينا الكريم عن حب الله عز وجل لمن يصل رحمه ، فعن أنى هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من سره أن يبسط الله تعالى له فى رزقه وأن ينسأ له فى أثره (٢) فليصل رحمه (٣) » .

(١) راجع ص ٣٧٦ — ٣٨٦ من وحى الأحاديث الحمديه الجزء الأول للمحمود على قراءة ومن ١٥٨ — ١٦٠ من تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة .

(٢) الأثر هنا للأجل .

(٣) قال ابن الملقن اختلفوا فى حد الرحم التى يجب صلتها ، فقبل فى كل رحم محرم بحيث لو كان أحدهما ذكرا والآخر أنثى حرمت منا كحتمنا ، فعلى هذا لا يدخل أولاد الأعمام وأولاد الأخوال ، واحتج هذا القائل بتحريم الجمع بين المرأة وعمتها وخالتها فى النكاح وجواز ذلك فى بنات الأعمام والأخوال ، وقيل هو عام فى كل رحم من الأرحام فى الميراث ، يستوى فيه المحرم وغيره ، وبطل عليه قوله عليه السلام « ثم أدناك ، أدناك » .

واعترض بعضهم بأن هذا الحديث ينقضه القرآن ، والله تبارك وتعالى يقول : « فإذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » فكيف تزيد صلة الرحم في أجل لا يتأخر عنه ولا يتقدم ؟ فرد عليهم ابن قتيبة بما خلاصته : إن الزيادة في العمر تكون بمعنيين : أحدهما السعة والزيادة في الرزق وعافية البدن ، وقد قيل الفقر هو الموت الأكبر ، والمعنى الآخر أن الله تعالى يكتب أجل عبده عنده مائة سنة ويجعل بنيته وتركيبه وهيئته لتعمير ثمانين سنة ، فإذا وصل رحمه زاد الله تعالى في ذلك التركيب وفي تلك البنية ووصل ذلك النقص فعاش عشرين أخرى حتى يبلغ المائة وهي الأجل الذي لا مستأخر عنه ولا متقدم !

وإذا كان كل شيء بقضاء وقدر فما معنى الحديث القائل : « إن الصدقة تدفع القضاء المبرم » والله عز وجل يقول : « إنما قولنا لشيء إذا أردنا أن نقول له كن فيكون » والإجماع على أنه لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه ؟ يقول ابن قتيبة في تأويل ذلك إن المرء قد يستحق بالذنوب قضاء من العقوبة فإذا هو تصدق دفع عن نفسه ما قد استحق من ذلك حتى أن المتصدق الغير مؤمن يجازيه الله بصدقاته بدفع بلايا كثيرة عنه في الدنيا وله في الآخرة عذاب عظيم على كفره ، وإذا أراد به خيرا وفقه للإيمان وهداه ^(١) .

(و) وزعم قوم وجود تناقض بين الحديث المروى عن أبي ذر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أتاني جبريل عليه السلام فبشرني أنه من مات من أمتك لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة ! قلت وإن زنا وإن سرق ، قال : وإن زنا وإن سرق ، ومن الحديث المروى عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ، ولا ينتهب نهبة ذات شرف ^(٢) يرفع الناس إليه فيها أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن ، فلو نظرنا

(١) راجع ص ٣٣٥ و ٣٣٦ و ٣٨٢ من وحي الأحاديث الحمديّة الجزء الأول لمحمود على قراعة وص ٢٥٤ — ٢٥٦ من تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة .
(٢) أي عظيمه القدر .

لظاهر الألفاظ لتوهمنا تناقضا ولكن لو دققنا النظر كما فعل ابن قتيبة لتحقيقنا من عدم الاختلاف ، وخلاصة تحقيق ابن قتيبة أن المصدق بلسانه وقلبه مع تدنس بالذنوب وتقصير في الطاعات من غير إصرار — مؤمن ما تنهى عن الكبائر ، فإذا لا بسها لم يكن في حال الملازمة مؤمنا (يريد) مستكمل الإيمان ، ألا ترى أنه صلى الله عليه وسلم قال : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، يريد في وقته ذلك ، لأنه قبل ذلك الوقت غير مصر فهو مؤمن ، وبعد ذلك الوقت غير مصر فهو مؤمن تائب ، وأما قوله صلى الله عليه وسلم « من قال لا إله إلا الله فهو في الجنة وإن زنى وإن سرق ، فإنه لا يخلو من وجهين أحدهما أن يكون قاله على العاقبة — يريد عاقبة أمره إلى الجنة وإن عذب بالزنا وبالسرقة — والآخر أن تلحقه رحمة الله تعالى وشفاعة رسوله صلى الله عليه وسلم فيصير إلى الجنة بشهادة أن لا إله إلا الله ^(١) .

(ع) حب الله تعالى : يقول الغزالي بوجود حس سادس (به تدرك أعمال الصور الباطنة من خلال الخير) ، ويعبر عن هذا الحس إما بالعقل أو بالنور أو بالقلب أو البصيرة الباطنة ، و « البصيرة الباطنة أقوى من البصر الظاهر ، والقلب أشد إدراكا من العين ، وجمال المعاني المدركة بالعقل أعظم من جمال الصور الظاهرة للأبصار ، فتكون لا محالة لذة القلب بما يدركه من الأمور الشريفة الإلهية التي تجل عن أن تدركها الحواس ، أتم وأبلغ ، فيكون ميل الطبع السليم والعقل الصحيح إليه أقوى ، ولا معنى للحب إلا الميل لما في إدراكه لذة ، فلا ينكر إذا حب الله تعالى إلا من قعد به القصور في درجة البهائم فلا يجاوز إدراك الحواس أصلا ، ١

ولكي يبين الغزالي تحقيق معنى محبة العبد لله تعالى ، بين لنا أسباب المحبة عموما ثم ذكر أدلة وجودها بل قوة هذه الأدلة في الله ، ومن عرف نفسه وعرف ربه عرف قطعا أنه لا وجود له من ذاته وإنما وجود ذاته ودوام وجوده وكال وجوده من الله تعالى وإلى الله وبالله « فإذا كان حب

(١) راجع ص ٣٧ — ٤٠ من وحي الأحاديث المحمدية ج ٢ لمحمد علي قراغة و ١٤٣ و ١٤٥ و ٢١١ — ٢١٥ من تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة .

الإنسان نفسه ضروريا ، فجه لمن به قوامه أولا ودوامه ثانيا في أصله وصفاته وظاهره وباطنه وجواهره وأعراضه ، أيضا ضرورى ، ومن خلا عن هذا الحب فلأنه اشتغل بنفسه وشهواته وذهل عن ربه وخالقه فلم يعرفه حق معرفته وقصر نظره على شهواته ومحسوساته ، !

ولو عرف الإنسان حق المعرفة لعلم أن المحسن إليه هو الله تعالى فقط ، وأن الإحسان من الناس غير متصور إلا بالمجاز ، فإن كان في الطبع حب المحسن فينبغى أن لا يحب العارف إلا الله تعالى ، إذ الإحسان من غيره محال ، فهو المستحق لهذه المحبة وحده ، ، ثم إن الله هو المحسن إلى الكافة والمنفضل على جميع أصناف الخلائق بإيجادهم وتكميلهم وترفيهم وتنعيمهم ، فالحب لهذه العلة لغيره أيضا جهل محض .

وثالث أسباب الحب أن يحب الشيء لذاته لا لحظ ينال منه وراء ذاته ، بل تكون ذاته عين حظه ، فإن ثبت أن الله جميل كان لا محالة محبوبا عند من انكشف له جماله وجلاله كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله جميل يحب الجمال » ، والحسن ليس مقصورا لا على مدركات البصر ، إذ كل شيء جماله وحسنه أن يحضر كماله اللائق به الممكن له ، ولا يتصور كمال التقديس والتنزه إلا للواحد الحق ، فالكمال لله وحده وليس لغيره كمال إلا بقدر ما أعطاه الله ، فهو المنفرد بالكمال المنزه عن النقص المقدس عن العيوب ، فهذا الوصف إن كان جمالا وكالا محبوبا فلا تتم حقيقته إلا له ، وكما لغيره وتنزهه لا يكون مطلقا بل بالإضافة إلى ما هو أشد منه نقصانا ، فالجميل المطلق هو الله .

والتعارف والتناسب أيضا يقتضى حب الله تعالى لمناسبة باطنه ، لا ترجع إلى المشابهة في الصور والأشكال بل إلى معان باطنة ، هي قرب العبد من ربه عز وجل في الصفات التي أمر الله فيها بالافتداء والتخلق بأخلاق الربوبية ، وذلك في اكتساب محامد الصفات ، على أن الروح أمر ربانى « قل الروح من أمر ربي » ، فإذا سويته ونفخت فيه من روحي ، وهذا هو أعظم أسباب الحب وأقواها — ولا محبوب بالحقيقة عند ذوى البصائر إلا الله تعالى

ولامستحق للحبة سواء — لأنها مجتمعة في حقه تعالى بجملتها ولا يوجد في غيره إلا آحادها، ووجودها في حق غيره وهم وتخيل وبجاز محض لا حقيقة له .
وفي القلب غريزة تسمى النور الإلهي أو نور الإيمان واليقين ، يدرك به القلب المعاني الباطنة التي ليست متخيلة ولا محسوسة ، ونعيم الجنة بقدر حب الله تعالى ، وحب الله تعالى بقدر معرفته ، فأصل السعادات هي المعرفة ، والذين آمنوا أشد حبا لله ، ، ومن قويت بصيرته لا يرى إلا الله تعالى ولا يعرف غيره ، فيعلم أن ليس في الوجود إلا الله ، وأفعاله أثر من آثار قدرته ، فهي تابعة له ، فلا وجود لها بالحقيقة دونه ، وإنما الوجود للواحد الحق الذي به وجود الأفعال كلها ، ومن هذا حاله فلا ينظر في شيء من الأفعال إلا ويرى الفاعل ويذهل عن الفعل ، فكل العالم تصنيف الله ، فمن نظر إليه وعرفه وأحبه من من حيث أنه فعل الله ، لم يكن ناظرا إلا في الله ولا عارفا إلا بالله ولا محبا إلا له ، وكان هو الماخذ الحق الذي لا يرى إلا الله .

ثم إن الأمور الإلهية لا نهاية لها ، فتبقى أمور لا نهاية لها غامضة ، فينشوق العارف إلى أن يحصل له أصل المعرفة فيما لم يحصل له مما بقي من المعلومات التي لم يعرفها أصلا لا معرفة واضحة ولا معرفة غامضة ، وهذا الشوق لا نهاية له في الدنيا والآخرة ، إذ نهايته أن ينكشف للعبد في الآخرة من جلال الله تعالى وصفاته وحكمته وأفعاله ، ماهو معلوم لله تعالى ، وهو محال لأن ذلك لا نهاية له .
وقال الله تعالى « يحبهم ويحبونه » وقد اشترط للحبة غفران الذنب فقال « إن كنتم تحبون الله فاتبعوني ، يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم » ، ويقول الغزالي إن كل كمال وجمال وبهاء وجلال ممكن في حق الإلهية ، وليس في الوجود إلا ذاته وأفعاله ، فهو إذا لا يحب إلا نفسه ، وما ورد من الألفاظ في حبه لعباده يرجع معناه إلى كشف الحجاب عن قلب العبد حتى يراه بقلبه وإلى تمكينه إياه من القرب منه وإل إرادته ذلك به في الأزل ، وقرب كل واحد من الله بقدر كماله ، وسلوك العبد في درجات الكمال متناه ولا ينتهي إلا لحد محدود ، ثم إن درجات القرب تتفاوت تفاوتاً لا نهاية له أيضا لأجل انتفاء النهاية عن ذلك الكمال .

ويقول إن ثمار المحبة تظهر في القلب واللسان والجوارح وهي كثيرة، منها: حب لقاء الحبيب بطريق الكشف والمشاهدة في دار السلام، وأن يكون مؤثرا ما أحبه الله تعالى على ما يحبه في ظاهره وباطنه، وألا يكون له تنعم بغيره، وأن يجتنب اتباع الهوى (والمعصية لا تخرجه عن الحب ولكن تخرجه عن كماله)، وألا يفتر لسانه عن ذكر الله ولا يخلو عنه قلبه، وذكر ما يتعلق به من كلام ورسول وما ينسب إليه، وحب جميع الخلق لأنهم خلقه، وأن يكون أنسه بالخلوة ومناجاة الله تعالى وتلاوة كتابه، وأن لا يطمئن إلا بالله، «ألا يذكر الله تطمئن القلوب»، وألا يتأسف على ما يفوته مما سوى الله عز وجل، ويعظم تأسفه على فوت كل ساعة خلت من ذكر الله تعالى وطاعته فيكثر رجوعه عن الغفلات بالتوبة، وأن يستقبل كل شيء بالرضا ويذكر قوله تعالى: «وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم»، وأن يتنعم بالطاعة (ولا يستثقلها) ويسقط عنه تعبها، وأن يكتم الحب ويجتنب الدعوى ويتوقى من إظهار الوجد والمحبة، تعظيما للحبوب وإجلالا له وهيبة منه وغيره على سره، وأن يأنس بالله ويرضى بكل حكم نازل، وقد قال تعالى: «رضى الله عنهم ورضوا عنه»، والرضا ثمرة من ثمار المحبة، والحب يورث الرضا بأفعال الحبيب، على أن الدعاء غير مناقض للرضا ولا يخرج صاحبه عن مقام الرضا، وكذلك كراهة المعاصي ومقت أهلها ومقت أسبابها والسعى في إزالتها والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يناقضه أيضا، لأن الله تعبدنا بها^(١).

(٦) مراقبة الله تعالى: مطلب العقل وربحه تزكية النفس «قد أفلح من زكّاها، وقد خاب من دساها»، وهو يحتاج إلى مشارطتها أولا، فيرشدها إلى طرق الفلاح ويحزم عليها الأمر بسلوك تلك الطرق، ثم لا يغفل عن مراقبتها لحظة، ثم بعد الفراغ ينبغي أن يحاسبها، والمحاسبة تكون تارة بعد العمل وتارة قبله للتحذير، ومعناه وزن الأمور أولا وتقديرها والنظر فيها بتدبر ثم الإقدام عليها فبإشرتها، ولا يبقى بعد ذلك إلا المراقبة للنفس عند الخوض

(١) راجع ص ٥٩ — ٧٠ من الثقافة الروحية في كتاب أحياء علوم الدين للغزالي لمحمود علي قراءة.

فى الأعمال وملاحظتها بالعين الكالئة ، فإنها إن تركت طغت وفسدت ، إن الله كان عليكم رقبيا ، ، وحققة المراقبة هى ملاحظة الرقيب وانصراف الهمم إليه ، وبعنى بهذه المراقبة حالة للقلب يشمرها نوع من المعرفة ، وتثمر تلك الحالة أعمالا فى الجوارح وفى القلب ، أما الحالة فهى مراعاة القلب للرقيب واشتغاله به والتفاته إليه وملاحظته إياه وانصرافه إليه ، وأما المعرفة التى تثمر هذه الحالة فهو العلم بأن الله مطلع على الضمائر عالم بالسرائر رقيب على أعمال العباد قائم على كل نفس بما كسبت . والعبد لا يخلو إما أن يكون فى طاعة أو فى معصية أو فى مباح ، فمراقبته فى الطاعة بالإخلاص والإكمال ومراعاة الأدب وحراستها عن الآفات ، وإن كان فى معصية فمراقبته بالتوبة والندم والإقلاع والحياء والاشتغال بالتفكير ، وإن كان فى مباح فمراقبته بمراعاة الأدب ثم بشهود المنعم فى النعمة وبالشكر عليها والصبر على البلية .

والنية ميل القلب إلى الخير وإرادته له ، وغرضنا من الأعمال بالجوارح أن يعود القلب إرادة الخير ويؤكد فيه الميل ليفرغ من شهوات الدنيا ويكب على الذكر والفكر ، والخيرات إنما يعرف كونها خيرات بالشرع ، فالمعاصى لا تتغير عن موضعها بالنية ، ولا ينبغى أن يفهم الجاهل ذلك من عموم قوله عليه السلام : « إنما الأعمال بالنيات ^(١) » ، وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنا يصيبها أو امرأة ينكحها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه ، ويظن أن المعصية تنقلب طاعة بالنية ، ولكن للنية دخل فيها وهو أنه إذا انضافت إليها قصود خبيثة ، تضاعف وزرها وعظم وبالها ، أما الطاعات فمرتبطة بالنيات فى أصل صحتها (وهو أن ينوى بها عبادة الله تعالى لا غير ، فإن نوى الرياء صارت معصية) وفى تضاعف فضلها بكثرة النيات الحسنة ، وأما المباحات فما من شئ منها

(١) يقول البيهقي إن كسب العبد إنما يكون بقلبه ولسانه ونياته ، فالنية أحد أقسام كسبه الثلاثة وهى أرجحها لأنها تكون عبادة بانفرادها بخلاف القسمين الآخرين ، ولأن القول والعمل يدخلهما الفساد ، والرياء لا يدخل النية .

إلا ويحتمل نية أو نيات يصير بها من محاسن القربات وينال بها معالي الدرجات كما يحتمل النيات السيئة (فتكون معصية) .

ولابن تيمية بيان في قوله صلى الله عليه وسلم « نية المرء أبلغ من عمله ، يلخص من وجوه :

(أحدها) أن النية المجردة من العمل يثاب عليها ! والعمل المجرد عن النية لا يثاب عليه ، فمن عمل الأعمال الصالحة بغير إخلاص لله لم يقبل منه ذلك ، ومن هم بحسنة فلم يعمل بها ، كتبت له حسنة .

(الثانى) أن من نوى الخير وعمل منه مقدوره وعجز عن كماله ، كان له أجر عامل .

(الثالث) أن النية عمل القلب — ملك البدن — بخلاف الأعمال الظاهرة فإنها عمل الجنود .

(الرابع) أن توبة العاجز عن المعصية تصح^(١) ، لأن أصل التوبة عزم القلب .

(الخامس) أن أصل النية حب الله ورسوله وإرادة وجه الله ، فلا يدخلها فساد ، بخلاف الأعمال الظاهرة التى تدخلها آفات كثيرة وما لم تسلم منها لم تكن مقبولة ، ولهذا كانت أعمال القلب المجردة أفضل من أعمال البدن المجردة^(٢) . والنية ليست حديث نفس أو حديث لسان أو فكر أو انتقالا من خاطر إلى خاطر ، بل هى انبعاث النفس وتوجهها وميلها إلى ما ظهر لها أن فيه غرضها إما عاجلا وإما آجلا^(٣) ، والميل إذا لم يكن ، لا يمكن اختراعه واكتسابه

(١) كتوبة المحبوب عن الزنى والمقطوع اللسان عن القذف .

(٢) راجع ص ٥ و ٦ من فتاوى ابن تيمية المجلد الأول .

(٣) الجهر بالنية لا يستحب لافى مذهب أى خيفة ولا أحد من أئمة المسلمين ، بل كلهم متفقون على أنه لا يشرع الجهر بالنية ، ومن جهر بالنية فهو مخفى مخالف لسنة بانفاق أئمة الدين بل تذرع العلماء هل يستحب التلطف بالنية سرا على قولين : فقال طائفة من أصحاب أى خيفة والشافعى وأحمد يستحب التلطف بالنية لا الجهر بها ولا يجب التلطف ولا الجهر ، وقال طائفة من أصحاب مالك وأحمد وغيرهم بل لا يستحب التلطف بالنية لا سرا ولا جهرا ، كما لا يجب بانفاق الأئمة وهذا القول هو الصواب الذى جاءت به السنة . راجع ص ٢٧٥ من فتاوى ابن تيمية ٢ م .

بمجرد الإرادة ، إذ لا طريق إلى اكتساب وصرف القلب إلى الشيء وميله إليه وتوجهه نحوه إلا باكتساب أسبابه ، وذلك بما يقدر عليه وقد لا يقدر عليه ، وإنما تنبعث النفس إلى الفعل إجابة للغرض الباعث الموافق للنفس الملائم لها ، وما لم يعتقد الإنسان أن غرضه منوط بفعل من الأفعال فلا يتوجه نحوه قصده وذلك بما لا يقدر على اعتقاده في كل حين ، وإذا اعتقد فإنما يتوجه القلب إذا كان فارغا غير مصروف عنه بغرض شاغل أقوى منه وذلك لا يمكن في كل وقت ، والدواعي والصوارف لها أسباب كثيرة بها تجتمع ، ويختلف ذلك بالأشخاص والأحوال والأعمال . والنية تتبع النظر فإذا تغير النظر تغيرت النية وهي روح العمل ، والعمل بغير نية صادقة رياء وتكلف وهو سبب مقت لا سبب قرب ، وهي ليست قول القائل بلسانه نويت^(١) ، بل هو انبعث القلب ! ونيات الناس في الطاعات أقسام ، منهم من يكون عمله إجابة لباعث الخوف (اتقاء النار) ومنهم من يعمل إجابة لباعث الرجاء (الرغبة في الجنة) ، وأما عبادة ذوى الألباب فإنها لا تتجاوز ذكر الله تعالى والفكر فيه جبا لجماله وجلاله ، وثواب الناس بقدر نياتهم !

وقد قيل في روضة المشتاق إن بعض الأنبياء عليهم السلام^(١) مر على طائفة من العباد كأنهم الشنان البالية ، فقال ما أنتم ؟ قالوا نحن عباد ! قال لأى شيء تعبدتم ؟ قالوا خوفنا الله من النار نخفنا منها ! فقال : حقا على الله أن يؤمنكم مما خفتم ! ثم جاوزها ! فر بأخرين أشد عبادة ، فقال لأى شيء تعبدتم ؟ قالوا شوقنا الله إلى الجنة وما أعد لأولياؤه فنحن نرجو ذلك ؟ فقال حقا على الله أن يعطيكم ما رجوتهم ! ثم جاوزهم فر بأخرين يتعبدون ، فقال ما أنتم ؟ قالوا نحن المحبون في الله عز وجل ، لم نعبده خوفا من ناره

(١) النية الواجبة في العبادات محالها القلب باتفاق أئمة المسلمين ، والنية هي القصد والإرادة ، فلو نوي بقلبه صحت نية والتلفظ بالنية فاسد في العقل ، لأن قول القائل أنوى أن أفعل كذا وكذا بمنزلة قوله أنوى آكل هذا الطعام لأشبع وأنوى لبس هذا الثوب لاستند وأمثال ذلك من النيات الموجودة في القلب التي يستفيع النطق بها . راجع من ٣ — ٥ من فتاوى ابن تيمية المجلد الأول .
(١) قيل في رواية إنه المسيح عليه السلام .

ولا شوقا إلى جنته ، ولكن حبا له واجلالا وتعظيما ، فقال أنتم أولياء الله حقا ، معكم أمرت أن أقيم بين أظهركم ، قال الله عز وجل : قل الحمد لله ، وسلام على عباده الذين اصطفى . .

وكل شيء يتصور أن يشوبه غيره ، فإذا صفا عن شوبه وخلص عنه سمي خالصا ويسمى الفعل المصنفي المخلص إخلاصا ، والإخلاص يضاد الإشراف ، فمن ليس مخلصا فهو مشرك . وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين ، ، والإخلاص وضده يتواردان على القلب ، فحله القلب ، وإنما يكون ذلك في القصود والنيات ، ومهما كان الباعث واحداً على التجرد ، سمي الفعل الصادر عنه إخلاصا بالإضافة إلى المنسوى ، ولكن العادة جارية بتخصيص اسم الإخلاص بتجريد قصد التقرب إلى الله تعالى عن جميع الشوائب ، فمن ابتعث لقصد التقرب ولكن امتزج بهذا الباعث بآخر ، إما من الرياء أو من غيره من حظوظ النفس ، فقد خرج عمله عن حد الإخلاص وخرج عن أن يكون خالصا لوجه الله تعالى ، وتطرق إليه الشرك (الخفي) .

والباعث النفسي إما أن يكون مثل الباعث الديني أو أقوى منه أو أضعف ، والإخلاص تخلص العمل من هذه الشوائب كلها قليلها وكثيرها حتى يتجرد فيه قصد التقرب فلا يكون فيه باعث سواه ، وهذا لا يتصور إلا من محب لله استغرق الهم بالآخرة بحيث لم يبق لحب الدنيا في قلبه قرار حتى لا يحب الأكل والشرب أيضا ، بل تكون رغبته فيهما كرهته في قضاء الحاجة من حيث أنه ضرورة الجبلة ، فلا يشتهي الطعام لأنه طعام بل لأنه يقويه على عبادة الله تعالى .

ويرى الغزالي أن ينظر إلى قدر قوة الباعث ، فإن كان الباعث الديني مساويا للباعث النفسي ، تقاوما وتساقطا وصار العمل لا له ولا عليه ، وإن كان باعث الرياء أغلب وأقوى فهو ليس بنافع وهو على ذلك مضر ومفض للعقاب الأقل من عقاب العمل الذي تجرد للرياء ، وإن كان قصد التقرب أغلب بالإضافة إلى الباعث الآخر فله ثواب بقدر ما فضل من قوة الباعث الديني ، فلا ينبغي أن

يضيع قصد الخير ، بل إن كان غالبا على قصد الرياء حبط منه القدر الذى يساويه وبقيت زيادة ، وإن كان مغلوبا سقط بسببه شيء من عقوبة القصد الفاسد ، وفى الحديث : « أتبع السيئة الحسنة تمحها ، فإذا كان الرياء المحض يمحوه الإخلاص المحض عقيقه ، فإذا اجتمعا جميعا فلا بد وأن يتدافعا بالضرورة .

وقال الله تعالى : « رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، ، والصدق فى تحقيق مقامات الدين كلها هو أعلى الدرجات وأعزها ، كالصدق فى الخوف والرجاء والتعظيم والتوكل والحب وسائر هذه الأمور ، فإن الصدق فى تمام حقيقتها لا فى ظهورها فحسب ، وقد يكون للعبد صدق فى بعض الأمور دون بعض ، والصديق من كان صادقا فى الجميع مع اختلاف فى الدرجات .

وقال الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ، ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون ، ، ويقول الغزالي إن كل ما ليس لله فهو من الدنيا (صورة ومعنى) ، وما هو لله فذلك ليس من الدنيا ، والمال مثل حبة فيها سم وترياق ، وأما فوائده الدينية فهي أن ينفقه على نفسه إما فى عبادة (كالاستعانة على الجهاد) أو فى الاستعانة على عبادة (كالمطعم) وما يصرفه إلى الناس من صدقة ومروءة ووقاية عرض وأجرة استخدام ، وما لا يصرفه إلى إنسان معين ولكن يحصل به خير عام (كبناء المساجد ودور المرضى) ، سوى ما يتعلق بالحظوظ العاجلة من الخلاص من ذل السؤال وحقارة الفقر والوصول إلى العز والمجد من الخلق وكثرة الإخوان والأعوان والكرامة فى القلوب ، وأما آفات المال فدينية ودنيوية ، أما الدينية فإن تجر إلى المعاصي وارتكاب الفجور وأن يجر إلى التمتع فى المباحات ، فإذا اشتد أنسه بما ربما لا يقدر على التوصل إليه بالكسب الحلال فيقتحم الشبهات ويخوض فى النفاق ، وأن يلهيه ماله عن ذكر الله تعالى ، وكل ما شغل العبد عن الله فهو خسران ، والكمال فى حق المال أن يستوى عندك المال والماء (وأنت محتاج إلى كل منهما) وكثرة الماء فى جوارك لا تؤذيك بأن تكون على شاطئ البحر ، ولا قلته تؤذيك إلا فى قدر الضرورة .

ويقول الغزالي : إن الفقير القانع أفضل من الغنى الحريص الممسك ، وإن الغنى المنفق ماله في الخيرات أفضل من الفقير الحريص .

والصبر عبارة عن ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الشهوة ، فإن ثبت حتى قهره واستمر على مخالفة الشهوة فقد نصر حزب الله والتحق بالصابرين قال تعالى « إن الله مع الصابرين » ، « وبشر الصابرين » ، « إنما يؤتى الصابرون أجرهم بغير حساب » ، ويقول الغزالي إن جميع ما يلقي العبد في هذه الحياة لا يخلو من نوعين : ما يوافق هواه (وهو الصحة والمال والجاه وجميع ملاذ الدنيا) وما لا يوافقها (وهو ما يرتبط باختياره كالطاعات والمعاصي وما لا يرتبط باختياره كالمصائب ، أو لا يرتبط باختياره ولكن له اختيار في إزالته كالتشني من المؤذى بانتقام) وهو محتاج إلى الصبر في كل واحد منهما ، ومعنى الصبر على العافية ألا يركن إليها ويعلم أن كل ذلك مستودع عنده ، وأن لا يرسل نفسه في الفرح بها ولا ينهمك في التمتع واللذة واللهو واللعب ، وأن يرعى حقوق الله في ماله بالإتفاق ، وفي بدنه ببذل المعونة للخلق ، وفي لسانه ببذل الصدق وكذا سائر ما أنعم الله به عليه ، وهذا الصبر متصل بالشكر ، والشكر لله لا يتم إلا بأن يعرف أن النعم كلها من الله وهو المنعم ، والوسائط مسخرون من جهته ، ثم إن الحال المستمدة من أصل المعرفة وهو الفرح بالمنعم مع هيئة الخضوع والتواضع ، هو أيضا في نفسه شكر على تجرده كما أن المعرفة شكر ، ولكن إنما يكون شكرا إذا كان حاويا شرطه وشرطه أن يكون فرحك بالمنعم لا بالنعمة ولا بالإنعام . ويقول الغزالي إن العمل بموجب الفرح الحاصل من معرفة المنعم يتعلق بالقلب وبإظهار الشكر لله تعالى بالتحميدات الدالة عليه (وبالجوارح) باستعمال نعم الله تعالى في طاعته والتوقى من الاستعانة بها على معصيته) ويقول الله تعالى « ولئن شكرتم لأزيدنكم » ، أى فى النعمة ، ويقول « إن تعدوا نعمة الله لا تحصوها » ، أى لا تطبقوا عدها ولا القيام بشكرها « إن الإنسان لظلوم كفار » ، أى ظالم لنفسه يجحد نعمه ^(١)

(١) قال ابن مسعود فى قوله تعالى « لتسألن يومئذ عن النعم » ، أى شكر النعم الأمن والصحة .

والشكر استعمال نعم الله تعالى في محابه ، ومعنى الكفر تقيض ذلك إما بترك الاستعمال أو باستعمالها في مكارهه ، والمسلم الحق شاكر لقوله تعالى « فاذكروني أذكركم ، واشكروا لي ولا تكفرون » .

ويجب ألا يأكل الإنسان إلا حلالا في نفسه ، طيبا في جهة مكسبه . كلوا من الطيبات ، موافقا للسنة والورع ، ولم يكتسب بسبب مكروه في الشرع ولا بحكم هوى ومداهنة في دين ، وأن ينوى بأكله أن يتقوى على طاعة الله تعالى ليكون مطيعا بالأكل (ولا يقصد التلذذ والتنعم بالأكل) وأن يرضى بالموجود من الرزق والحاضر من الطعام ، ولا يجتهد في التنعم وطلب الزيادة وانتظار الأدم ، وأن يغسل اليد قبله . لأن اليد لا تخلو عن لوث في تعاطي الأعمال فغسلها أقرب إلى النظافة والنزاهة ، ولأن الأكل لقصد الاستعانة على الدين عبادة ، وأن يبدأه بيسم الله في أوله وبحمد الله في آخره ، ويأكل باليد اليمنى احتراماً له !

ويرى الغزالي أن في مجاهدة الجوع والعطش صفاء القلب وإيقاد القريحة وإفناذ البصيرة (لأن الشبع يورث البلادة ويعمي القلب) ، وبالجوع يرق القلب ويصفو ويزول البطر . فلا تنكسر النفس ولا تذبل بشيء كما تذبل بالجوع فعنده تسكن لربها وتقف على عجزها وذوها إذ ضعفت منها وضاعت حيلتها بلقيمة طعام فاتتها ، وأظلمت عليها الدنيا بشربة ماء تأخرت عنها ، وبه لا ينسى بلاء الله وعذابه ولا ينسى أهل البلاء ، وبه كسر شهوات المعاصي كلها والاستيلاء على النفس الأمانة بالسوء ، وبه يندفع الندم ويدوم السهر ، (لأن من شبع شرب كثيرا ومن كثر شربه كثر نومه) وبه تيسر المواظبة على العبادة ويستفيد من قلة الأكل صحة البدن ودفع الأمراض ، وبالجوع وقلة الأكل تخف المؤنة . فإن من تعود قلة الأكل كفاه من المال قدر يسير ، والذي تعود الشبع صار بطنه غريما ملازما له وآخذا بمخنقه في كل يوم ، وبقلة الأكل يتمكن من الإيثار والصدقة بما فضل من الأطعمة على اليتامى والمساكين فيكون في يوم القيامة في ظل صدقته !

والجاه والمال هما ركنا الدنيا ، ومعنى المال ملك الأعيان المنتفع بها ، ومعنى الجاه ملك القلوب المطلوب تعظيمها وطاعتها والتصرف فيها ليستعمل بواسطتها أربابها في أغراضه ومآربه ، وحكم الجاه حكم الأموال عرض من أغراض الحياة الدنيا وينقطع بالموت كالمال ، وحبهما لأجل التوصل بهما إلى مهمات البدن غير مذموم ، ولكن يذم حبهما لأعيانهما فيما يجاوز ضرورة البدن وحاجته (ولا يوصف صاحبه بالفسق ما لم يتوصل إليه بعبادة وما لم يحمله الحب على مباشرة معصية ، وما لم يتوصل إلى اكتسابه بكذب وخداع وتلبيس) ١

ومهما علم الإنسان أن أمره بيد الخالق وأن الأرزاق والآجال بيد الله تعالى قل التفاته إلى مدح الخلق وذمهم ، وسقط من قلبه حب المدح واشتغل بما يهمه من أمر دينه وبطلب المنزلة عند الله ، إذ الصدق في العبادة أن يكره المدح إذ يعلم أنه فتنة عليه ويحب الزام إذ يعلم أنه مهد إليه عيبه ومرشد إلى مهمه ومهد إليه حسناته ١

ويقول الغزالي إن الرياء حرام والمرأى عند الله ممقوت ، والرياء مشتق من الرؤية ، والسمعة مشتقة من السماع ، وإسم الرياء مخصوص بحكم العادة بطلب المنزلة في القلوب بالعبادات وإظهارها ، والرياء هو إرادة العباد بطاعة الله فالرياء هو طلب الجاه ، وهو يكون بالعبادات أو بغير العبادات ، إلا أن طلب الجاه بأعمال ليست من الطاعات أهون من الرياء بالطاعات ، وطلب الجاه كطلب المال يحرم كسبه بتلييسات وأسباب محظورات ، وأما سعته من غير حرص منك على طلبه ومن غير اغتمام بزواله إن زال ، فلا ضرر فيه ، ولكن انصراف الهم إلى طلب الجاه (أو المال) نقصان في الدين ولا يوصف بالتحريم ، وإذا لم يكن للمرأى بالعبادات إلا قصد الرياء المحض دون الأجر ، فتبطل عبادته بل يعصى بذلك ويأثم ، لأن فيه تلييسا ومكرا على الناس ، لأنه خيل إليهم أنه مخلص مطيع لله وليس كذلك ، وهو مهما قصد بعبادة الله تعالى خلق الله فهو مستهزئ بالله إذ قصد بطاعة الله تعالى مراآة عبد ضعيف

لا يملك له ضرا ولا نفعا ، وما ذلك إلا لأنه يظن أن ذلك العبد أقدر على تحصيل أغراضه من الله وأنه أولى بالتقرب إليه منه ، ولهذا سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم الشرك الأصغر ، ولو لم يكن في الرياء إلا أن يسجد ويركع لغير الله لكان فيه كفاية ، ولعمري لو عظم غير الله بالسجود لكفر كفر جليا ، إلا أن الرياء هو الكفر الخفي لأن المرأى عظم في قلبه الناس فاقترضت تلك العظمة أن يسجد ويركع ، إلا أنه قصد تعظيم نفسه في قلب من عظم عنده بإظهاره من نفسه صورة التعظيم لله ، فعند هذا كان شركا خفيا .

والرياء جلى وخفى ، فالجلى هو الذى يبعث على العمل ويحمل عليه ولو قصد الثواب وهو أجلاه ، وأخفى منه قليلا هو ما لا يحمل على العمل بمجردة إلا أنه يخفف العمل الذى يريد به وجه الله ، وأخفى من ذلك ما لا يؤثر فى العمل ولا بالتسهيل والتخفيف أيضا ولكنه مع ذلك مستبطن فى القلب ، ومهما لم يؤثر فى الدعاء إلى العمل لم يمكن أن يعرف إلا بالعلامات وأجلى علاماته أن يسر باطلاع الناس على طاعته ، وأخفى من ذلك أن يخفى بحيث لا يريد الاطلاع ولا يسر بظهور طاعته ولكنه مع ذلك إذا رأى الناس أحب أن يقابلوه بالبشاشة والتوقير وأن يثنوا عليه ، وكل ذلك يوشك أن يحبط الأجر ولا يسلم منه إلا الصديقون ، ولكن ليس كل شوب محبطا للأجر ، إذ السرور أقسام لا يكره منها إلا أن يكون فرحه لقيام منزلته فى قلوب الناس ، فيحمد فرحه بحمیل نظر الله له بإطلاع الخلق على الجميل من أحواله ، قل بفضل الله ورحمته ، فبذلك فليفرحوا ، ، وأن يستدل بإظهار الله الجميل وستره القبيح عليه فى الدنيا أنه كذلك يفعل فى الآخرة ، وأن يسر باقتداء المطلعين به فى الطاعة ، وأن يفرح بطاعة المطلعين على طاعته فى مدحهم وبحبهم للطبع وبميل قلوبهم إلى الطاعة .

وإذا عقد العبد العبادة على الإخلاص ثم ورد عليه بعد الفراغ سرور مجرد بالظهور من غير إظهار ، فهذا لا يفسد العمل إذ العمل قد تم على نعت الإخلاص سالما من الرياء ، والأصل فى الإخلاص استواء السريرة

والعلانية ، ولا يخلو الإنسان عن ذنوب بقلبه أو بجوارحه وهو يخفيها ويكره إطلاع الناس عليها لا سيما ما تختلج به الخواطر في الشهوات والأمانى ، والله مطلع على جميع ذلك ، وإرادة العبد لإخفائها ربما يظن أنه رياء محذور وليس كذلك ، بل المحذور أن يستر ذلك ليرى الناس أنه ورع خائف من الله تعالى مع أنه ليس كذلك ، ومن الناس من يترك العمل خوفاً من أن يكون مرأثياً به وذلك غلط وموافقة للشيطان .

والتوبة في لسان العرب هي الرجوع ، وهي عبارة عن معنى ينتظم ويلتئم من ثلاثة أمور مرتبة :

أولها : العلم وهو معرفة عظم ضرر الذنوب وكونها حجاباً بين العبد وبين كل محبوب ، فإذا عرف ذلك معرفة محققة ييقن غالب على قلبه ، ثار من هذه المعرفة تألم للقلب وتأسف بسبب فوات المحبوب بفعله (يسمى ندماً) وتمكن مرارة تلك الذنوب في قلبه بدلاً عن حلاوتها فيستبدل بالميل كراهية وبالرغبة نفرة (دائمة) ، فإذا غلب هذا الألم على القلب واستولى ، انبعثت منه في القلب حالة أخرى تسمى إرادة وقصداً إلى فعل له تعلق بالحال (بالترك لكل محذور هو ملابس له وأداء كل فرض هو متوجه عليه في الحال) وبالماضى (بتلافي مافات بالجبر والقضاء إن كان قابلاً للجبر) وبالمستقبل (بالعزم على ترك الذنب الممقوت للمحسوب إلى آخر العمر بأن يعقد مع الله عقداً مؤكداً ويعاهده بعهد وثيق ألا يعود إلى تلك الذنوب ولا إلى أمثالها) فالتوبة هنا رجوع عما كان مذموماً في الشرع إلى ما هو محمود منه ، والذنوب عبارة عن كل ما هو مخالف لأمر الله تعالى في ترك أو فعل ، وتنقسم الذنوب إلى صفائر وكبائر ، ويقول الغزالي إن الكبير والصغير من المضافات ، وما من ذنب إلا وهو كبير بالإضافة إلى مادونه وصغير بالإضافة إلى ما فوقه (فالمضاجعة مع الأجنبية مثلاً أى إصابتها بكل شيء إلا المسيس ، كبيرة بالإضافة إلى النظرة ، صغيرة بالإضافة إلى الزنا) ، ويرى مع هذا أن الصغيرة تكبر بأسباب منها الإصرار والمواظبة واستصغار الذنب والسرور بالصغيرة والفرح

والتبجح بها واعتداد التمكن من ذلك نعمة والغفلة عن كونه سبب الشقاوة ،
والتهاون بستر الله عليه وحمله عنه وإمهاله إياه ، وإتيانه الذنب وإظهاره بأن
يذكره بعد إتيانه أو يأتيه في مشهد غيره أو رغب الغير فيه وحمله عليه وهياً
أسبابه له ، وكذلك يكبر الذنب — فلا تكفره الصلوات الخمس — إذا كان
المذنب عالماً يقتدى به وبفعله بحيث يرى ذلك منه .

ويقول الغزالي إن شروط صحة التوبة فيما يتعلق بالماضى أن يرد فكره
إلى أول يوم بلغ فيه بالسن أو الاحتلام ، ويفتش فيه عما مضى من عمره
يوماً يوماً ، وينظر إلى الطاعات ما الذى قصر فيه منها (فيؤديها) وإلى المعاصي
ما الذى قارفه منها فينظر فيها ، فما كان من ذلك بينه وبين الله تعالى من حيث لا يتعلق
بمظلمة العباد كشرب الخمر مثلاً) فالتوبة عنها بالندم والتحسر عليها ، وبأن
يحسب مقدارها من حيث الكبر ومن حيث المدة ، ويطلب لكل معصية منها
حسنة تناسبها فيأتى من الحسنات بقدر تلك السيئات (فيكفر شرب الخمر مثلاً
بالتصدق بشراب حلال هو أطيب منه وأحب إليه) ، وعد جميع المعاصي
غير ممكن ، وإنما المقصود سلوك الطريق المضادة ، فإن المرض يعالج بضده ،
فكل ظلمة ارتفعت إلى القلب بمعصية فلا يمحوها إلا نور يرتفع إليها بحسنة
تضادها ، فلذلك ينبغى أن تمحى كل سيئة بحسنة من جنسها لكن تضادها ،
وهذا التدرج والتحقيق من التلطف فى طريق المحو ، فالرجاء فيه أصدق والثقة به
أكثر من أن يواظب على نوع واحد من العبادات ، وإن كان ذلك أيضاً مؤثر
فى المحو ، وأما مظالم العباد ففيها أيضاً معصية وجناية على حق الله تعالى ،
فإن الله تعالى نهى عن ظلم العباد فما يتعلق منه بحق الله تعالى تداركه بالندم
والتحسر وترك مثله فى المستقبل والإتيان بالحسنات التى هى أضدادها (فيقابل
إيذاء الناس بالإحسان إليهم ، ويكفر تناول أعراضهم بالغيبة والقدح فيهم
بالثناء على أهل الدين وإظهار ما يعرف من خصال الخير من أقرانه وأمثاله
الخ ...) ثم إذا فعل ذلك لم ينجه ولم يكفه مالم يخرج من مظالم العباد ،
فليستحلهم أو ليؤد حقوقهم إن قدر وإلا فليكثر من الحسنات حتى تفيض
عنه يوم القيامة فتؤخذ حسناته وتوضع فى موازين أرباب المظالم .

والمسلم الحق تواب لقوله تعالى : « وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون » ، وقوله « استغفروا ربكم ثم توبوا إليه » ، وقوله « يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا » ، وهى أن تتوب ثم لا تعود إلى الذنب ، كما لا يعود اللب في الضرع ، وقوله تعالى : « إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب ^(١) » ، فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليهما حكيما ، وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ، ولا الذين يموتون وهم كفار ، أولئك اعتدنا لهم عذابا أليما . . وفي الإسلام مثل رائع للتوبة النصوح ، فعن ابن شهاب قال : أخبرني عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك أن عبد الله بن كعب وكان قائد كعب من بنيه حين عمى ، قال : وكان أعلم قومه وأوعاهم لأحاديث أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : سمعت كعب بن مالك يحدث حديثه حين تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك ، قال كعب إني لم أتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة غزاها قط إلا في غزوة تبوك ، غير أني قد تخلفت في غزوة بدر ولم يعاتب أحدا تخلف عنها ، إنما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون يريدون غير قريش حتى جمع الله تعالى بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد ، ولقد شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام وما أحب أن لي بها مشهد بدر وإن كانت بدر أذكر في الناس منها ، وكان من خبري حين تخلفت عن تبوك أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حينئذ ، والله ما جمعت قبلها راحلتين ^(٢) قط حتى جمعتهما في تلك الغزوة ، ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد غزوة إلا وري ^(٣) بغيرها حتى كانت تلك الغزوة فغزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم في حر شديد واستقبل سفرا بعيدا ومفاز ^(٤)

(١) أى قبل معاناة ملك الموت .

(٢) الراحلة الجمل والناقة القويان على الأحمال والأسفار .

(٣) التورية إخفاء الشيء وإظهار غيره .

(٤) المفاز جمع مفازة وهى البرية القفر .

واستقبل عددا كثيرا فجلى^(١) للمسلمين أمرهم ليأهبوا أهبة غزوم وأخبرهم بوجههم^(٢) الذى يريد ، والمسلمون مع رسول الله كثير لا يجمعهم كتاب حافظ (يريد بذلك الديوان) ، قال كعب فقل رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن ذلك سيخفى ما لم ينزل فيه وحى ، وكان ذلك حين طابت الثمار والظلال ، فأناز إليها أصعر^(٣) فتجهز^(٤) رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون معه ، وطفقت أغدو لكي أتجهز معهم فأرجع ولم أقض شيئا وأقول فى نفسى أنا قادر على ذلك إن أردت ، فلم يزل ذلك يتمادى بى حتى استمر بالناس الجد^(٥) ، فأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم غاديا والمسلمون معه ، ولم أقض من جهازى شيئا ، ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئا ، فلم يزل ذلك يتمادى^(٦) حتى أسرعوا وتفارط^(٧) الغزو ، فهممت أن أرتحل فأدرتهم ، فياليتنى كنت فعلت ! ثم لم يقدر لى ذلك وطفقت^(٨) إذا خرجت فى الناس بعد خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يحزنتى أن لا أدرى لى أسوة^(٩) إلا رجلا مغموصا^(١٠) عليه فى النفاق أو رجلا بمن عذر الله تعالى من الضعفاء ، ولم يذكرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بلغ تبوك فقال وهو جالس فى القوم ما فعل كعب بن مالك ؟ فقال رجل من بنى سلية يا رسول الله حبسه برداه والنظر فى عطفه^(١١) ، فقال له معاذ بن جبل : بش ما قلت ، والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيرا ، فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

(١) جلا للناس أمرهم ، أظهره .

(٢) وجههم : جهتهم التى يستقبلونها ومقصدهم . وقد سمي جيش تبوك جيش العسرة لأن الناس ندبوا إليه فى شدة الحر ففسر عليهم وكان وقت إدراك الثمار .

(٣) الأصعر بهملتين مفتوحتين : الميل .

(٤) التجهيز المبادرة إلى الشيء فى أول وقته .

(٥) استمر بالناس الجد أى تنابع الاجتهاد فى السر .

(٦) التمداد أى التفاؤل والتأخير .

(٧) تفارط الغزو تباعد وأشار به إلى ما بينه وما بينهم من المسافة .

(٨) طفقت مثل جعلت .

(٩) الأسوة بضم الهمزة وكسرهما التمدد .

(١٠) المغموص : المشار إليه بالعيب .

(١١) نظر فلان فى عطفه إذا أعجب بنفسه .

فبينما هو على ذلك رأى رجلاً مبيضاً يزول به السراب^(١) ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كن أباً خيثة ، فإذا هو أبو خيثمة الأنصاري وهو الذي تصدق بصاع من تمر حين لمزه^(٢) المنافقون ، قال كعب : فلما بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد توجه قافلاً^(٣) من تبوك ، حضرنى بئى^(٤) فطفقت أتذكر الكذب وأقول بهم أخرج من سخطه غدا ، وأستعين على ذلك بكل ذى رأى من أهلى . فلما قيل إن رسول الله صلى الله عليه وسلم : قد أظل^(٥) قادماً ، زاح^(٦) عنى الباطل حتى عرفت أنى لن أنجو منه بشئ أبداً ، فأجمعت^(٧) صدقه وأصبح قادماً ، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين ثم جلس للناس ، فلما فعل ذلك جاءه المخلفون^(٨) فطفقوا يعتذرون إليه ، ويحلفون له وكانوا بضعة^(٩) وثمانين رجلاً ، فقبل منهم علانيتهم فبايعهم واستغفر لهم ووكل^(١٠) أمرهم إلى الله تعالى ، حتى جئت فلما سلمت تبسم تبسم المغضب ثم قال : تعال ، فجئت حتى جلست بين يديه ، فقال ما أخلفك ألم تكن قد ابتعت ظهرك^(١١) : قلت يا رسول الله والله إني لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أنى سأخرج من سخطه بعذر ، لقد أعطيت جدلاً ولكنى والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عنى ، ليوشكن الله تعالى أن يسخطك على ، ولئن حدثتك حديث صدق تجد^(١٢) على فيه ، إني لأرجو عفو الله تعالى فيه ، والله ما كان لى من عذر ، والله ما كنت قط أقوى

(١) يزول به السراب أى يظهر شخصه خيالا فيه .

(٢) اللمز العيب .

(٣) القافل الراجع من سفره إلى وطنه .

(٤) البئ أشد الحزن .

(٥) أظل قادماً إذا دنى .

(٦) زاح عنى ، زال .

(٧) أجمعت صدقه أى عزمته عليه .

(٨) المخلفون المتأخرون عن القزو .

(٩) البضع ما بين الثلاث إلى التسع .

(١٠) وكل سرائرهم : أى ردها إلى علم الله تعالى .

(١١) الظاهر هنا عبارة عما يركبه .

(١٢) وجد من المودة وهى الغضب .

ولا أيسر مني حين تخلفت عنك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
أما هذا فقد صدق ، فقم حتى يقضى الله تعالى فيك ، فقممت وثار رجال من
بنى سلمة فاتبعوني وقالوا والله ما علمناك أذنبت ذنبا قبل هذا ، لقد عجزت
أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بما اعتذر إليه
المخلفون ، فقد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله صلى الله عليه وسلم لك ،
قال فوالله ما زالوا يؤنبوني^(١) حتى أردت أن أرجع إلى رسول الله صلى الله
عليه وسلم فأكذب نفسي ، قال ثم قلت هل لقي معي هذا أحد ؟ قالوا : نعم
رجلان قالوا مثل ما قلت وقيل لهما مثل ما قيل لك ، قلت من هما ، قالوا امرأة
ابن الربيع وهلال بن أمية ، فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدرا فيهما
أسوة ، قال فضيت حتى ذكروهما لي ، ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم
المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه ، فاجتنبنا الناس وتغيروا
لنا حتى تنكرت لي نفسي الأرض فما هي بالأرض التي أعرف ، فلبثنا على
ذلك خمسين ليلة ، فأما صاحبنا فاستكانا^(٢) وقعدا في بيوتهما يبكيان ، وأما أنا
فكنت أشب القوم وأجلدهم ، فكنت أخرج وأشهد الصلاة وأطوف
الأسواق فلا يكلمني أحد ، وآتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم عليه
وهو في مجلسه بعد الصلاة فأقول في نفسي هل حرك شفتيه يرد السلام أم لا ،
ثم أصلي قريبا منه وأسارقه النظر ، فإذا أقبلت على صلاتي نظر إلى ، وإذا
التفت نحوه أعرض عني ، حتى إذا طال على ذلك من جفوة المسلمين ،
مشيت حتى آسورت^(٣) جدار حائط أبي قتادة وهو ابن عمي وأحب
الناس إلى ، فسلمت عليه فوالله ما رد علي السلام ! فقلت له يا أبا قتادة :
أنشدك الله هل تعلم أني أحب الله ورسوله ، قال فسكت فعدت فناشدته
فسكت ، فعدت فناشدته ، فقال : الله ورسوله أعلم ، ففاضت عيناي ووليت حتى
تسورت الجدار ، فبينما أنا أمشي في سوق المدينة ، إذا نبطي من نبط الشام

(١) التأنيب : الملامة والتوبيخ .

(٢) الاستكانة : الخضوع .

(٣) تسورت الجدار : علوته .

من قدم بطعام يبيعه في المدينة يقول من يدل على كعب بن مالك ؟ قال فطفق الناس يشيرون له إلى حتى جاءني فدفع إلى كتابا من ملك غسان وكنت كاتباً فقرأته فإذا فيه : أما بعد فإنه بلغنا أن صاحبك قد جفاك ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضیعة ، فالحق بنا نواسك^(١) فقلت حين قرأته وهذا أيضا من البلاء ، فتيمنت^(٢) به التنور فسجرتة حتى إذا مضت أربعون من الخسین واستلبت^(٣) الوحي ، فإذا رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتيني فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرک أن تعتزل امرأتک ، فقال فقلت : أطلقها أم ماذا أفعل ، قال لا : بل اعتزلها ولا تقر بها ، وأرسل إلى صاحبي بمثل ذلك ، قال فقلت لا مرأى : الحق بأهلك فكوني عندهم حتى يقضى الله تعالى في هذا الأمر ، وجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله : إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم ، فهل تكره أن أخدمه ؟ قال : لا ولكن لا يقربنک ! قالت إنه والله ما به حركة إلى شيء ! والله ما زال يبکی منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا ، فقال لي بعض أهلي لو استأذنت رسول الله صلى الله عليه وسلم في امرأتک فقد أذن لامرأة هلال أن تخدمه ، فقلت لا أستأذنه فيها ، وما يدريني ما يقول وأنا رجل شاب ، فلبثت بذلك عشر ليال ، فأكمل لنا خمسون ليلة من حين نهى عن كلامنا ، فصليت صلاة الفجر صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا ، فبينما أنا جالس على الحال التي ذكر الله تعالى منا ، قد ضاقت على نفسي وضافت على الأرض بما رحبت^(٤) سمعت صوت صارخ أو في^(٥) على جبل سلع^(٦) يقول بأعلى صوته : يا كعب ابن مالك أبشر ، قال : فخررت ساجدا وعلمت أن قد جاء فرج وآذن^(٧)

(١) المواساة : المشاركة والمساهمة في المعاش والرزق ونحوهما .

(٢) التيمم : التقصد .

(٣) استلبت : أبطأ .

(٤) الرحب : السعة .

(٥) أوفى : أشرف .

(٦) سلع جبل في المدينة .

(٧) آذن : أعلم .

رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر ، فذهب الناس يبشروننا فذهبت قبل صاحبي مبشرون وركض^(١) إلى رجل فرسا وسعى ساع من أسلم قبلي ، فأوفى على الجبل فكان الصوت أسرع من الفرس ، فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرنى نزعته له ثوبي فكسوتها إياه ببشارته والله ما أملك غيرهما يومئذ ، فاستعرت ثوبين فلبستهما وانطلقت أنا^(٢) رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتلقاني الناس فوجا^(٣) يهنوني بالتوبة حتى دخلنا المسجد ، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم حوله الناس ، فقام طلحة بن عبيد الله رضى الله عنه يهرول حتى صاحفنى وهناني ، والله ما قام إلى رجل من المهاجرين غيره فكان كعب لا ينساها لطلحة ، قال : فلما سلبت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال وهو يبرق وجهه^(٤) من السرور أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك ، قال : فقلت أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله ؟ قال : بل من عند الله تعالى ، قال : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذا سراسنار وجهه كأنه قطعة قمر ، قال وكنا نعرف ذلك ، فلما جلست بين يديه قلت : يا رسول الله . . . من توبتي أن أنخلع^(٥) من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله صلى الله عليه وسلم ، قال : أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك ، فقلت : فإني أمسك سهمي الذي بخير ، وقلت يا رسول الله . . . إن الله تعالى إنما نجاني بالصدق وإن من توبتي أن لا أحدث إلا صدقا ما بقيت ، فوالله ما أعلم أحدا من المسلمين أبلاه الله تعالى في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن مما أبلاني ، والله ما تعمدت كذبة بعد ذلك وإني لأرجو أن يحفظني الله تعالى فيما بقي .

فأنزل الله تعالى : لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار ، حتى بلغ : إنه بهم رؤوف رحيم ، وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم

(١) الركض : ضرب الراكب الفرس برجله ليسرع العدو .

(٢) أنا : أقصد .

(٣) الفوج : الجماعة من الناس .

(٤) يبرق وجهه إذا لمع وظهرت عليه أمارات السرور .

(٥) أنخلع من مالي أى أخرج من جميعه .

الأرض بما رحبت ، حتى بلغ « اتقوا الله وكونوا مع الصادقين » ، والله ما أنعم الله تعالى على من نعمة قط بعد إذ هداني للإسلام أعظم في نفسي من صدقي رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا أكون كذبتة فأهلك كما هلك الذين كذبوا ، إن الله تعالى قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد ، قال الله تعالى « سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم ، لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم إنهم رجس ^(١) » وماؤاهم جهنم بما كانوا يكسبون ، يحلفون لكم لترضوا عنهم ، فإن ترضوا عنهم ، فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين » ، قال كعب كنا خلفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرنا حتى قضى الله تعالى فيه بذلك ، قال الله عز وجل « وعلى الثلاثة الذين خلفوا ، وليس الذي ذكر مما خلفنا تخلفنا عن الغزو وإنما هو تخليفه إيانا وإرجاؤه ^(٢) » أمرنا عمن حلف له واعتذر إليه فقبل منه ^(٣) .

هذا هو الإيمان الحق الذي أريده للمسلمين ليبلغوا الشأو الذي بلغوه وليصلوا للعز الذي وصلوا في الماضي إليه ، وهذه هي التوبة النصوح التي يحبها الله تعالى .

وظلمة المعصية تنمحي عن القلب بشيئين : حرقه الندم وشدة المجاهدة بالترك في المستقبل ، فإذا فرضنا تائبين أحدهما سكنت نفسه عن النزوع إلى الذنب والآخر بقى في نفسه نزوع إليه ، وهو يجاهدها ويمنعها ، فأيهما أفضل ؟

يقول الغزالي إن الذي انقطع نزوعه له حالتان :

- (١) أن يكون انقطاع نزوعه إليها بفتور في نفس الشهوة فقط ، فالمجاهد أفضل من هذا ، إذ تركه بالمجاهدة دليل قاطع على قوة النفس واليقين والدين .
- (٢) أن يكون بطلان النزوع بسبب قوة اليقين وصدق المجاهدة السابقة إذ بلغ مبلغا وقع فيه هيجان الشهوة حتى تأدبت بالشرع فلا تهيج إلا بالإشارة من

(١) الرجس النجس .

(٢) الإرجاء : التأخير .

(٣) أخرجه الحمزة . راجع ص ١٢٨ — ١٣٣ من تيسير الوصول للشيباني ج ١ .

الدين وقد سكنت بسبب استيلاء الدين عليها ، فهذا أعلى رتبة من المجاهد المقاسي لهيجان الشهوة وقمعها ، لأن الجهاد ليس مقصودا لعينه ، فإذا قهرته وحصلت المقصود فقد ظفرت !

والخوف لا يتصور أن ينفك عنه مؤمن وإن ضعف ، ويكون ضعف خوفه بسبب ضعف معرفته وإيمانه ، والرجاء والخوف متلازمان ، لأن كل من رجا محبوبا فلا بد وأن يخاف فوته ، ويجوز أن يغلب أحدهما على الآخر وهما مجتمعان ، ويجوز أن يشتغل القلب بأحدهما ولا يلتفت إلى الآخر في الحال لغفلة عنه ، وعلى كل حال فهما متلازمان ، ولذلك قال تعالى : « ويدعوننا رغبا ورهبا^(١) » .

« سبحانه خالقا ومعبودا بحسن بلائك عند خلقك ، خلقت دارا^(٢) وجعلت فيها مآدبة مشربا ومطعما وأزواجا وخداما وقصورا وأنهارا وزروعا وثمارا ، ثم أرسلت داعيا يدعو إليها^(٣) ، فلا الداعي أجابوا ولا فيما رغبت إليه رغبوا ولا إلى ما شوقت إليه اشتاقوا ، أفلبوا على جيفة^(٤) افتضحوا بأكلها واصطلحوا على حثها ، ومن عشق شيئا أعشى بصره^(٥) وأمراض قلبه ، فهو ينظر بعين غير صحيحة ويسمع بأذن غير سميعة ، قد خرقت الشهوات عقله وأماتت الدنيا قلبه وولعت عليها نفسه فهو عبد لها ولمن في يده شيء منها ، حينما زالت زال إليها وحينما أقبلت أقبل عليها ، ولا يزدجر من الله بزاجر ولا يتعظ منه بواعظ وهو يرى المأخوذين على الغرة^(٦) حيث لا إقالة ولا رجعة ! كيف نزل بهم ما كانوا يجهلون وجاءهم من فراق الدنيا ما كانوا يأمنون وقدموا من الآخرة على ما كانوا يوعدون ، فغير موصوف ما نزل

(١) راجع ٧١ — ١٣٨ من الثقافة الروحية في كتاب احياء علوم الدين للغزالي المحرر على قراة .

(٢) يريد الجنة .

(٣) سيدنا محمد .

(٤) يريد الدنيا .

(٥) أعماء .

(٦) الغرة بالكسر بفتح وعلى غفلة .

بهم ، اجتمعت عليهم سكرة الموت ، وحسرة الفوت ، ففترت لها أطرافهم ، وتغيرت لها ألوانهم ، ثم ازداد الموت فيهم ولوجاً^(١) فحيل بين أحدهم وبين منطقته ، وإنه لبين أهله ينظر يبصره ويسمع بأذنه على صحة من عقله وبقاء من لبه ، يفكر فيم أقي عمره ، وفيم أذهب دهره ، ويتذكر أموالاً جمعها أغمض في مطالها^(٢) وأخذها من مصراتها ومشتبهاتها ، قد لزمته تبعات جمعها وأشرف على فراقها ، تبقى لمن وراءه ينعمون فيها ويتمتعون بها فيكون المهناً لغيره والعبء على ظهره ، والمرء قد غلقت رهونه بها^(٣) فهو يعرض يده ندامة على ما أصحّر له^(٤) عند الموت من أمره ، ويزهد فيما كان يرغب فيه أيام عمره ويتمنى أن الذي كان يغبطه بها ويحسده عليها قد حازها دونه ، فلم يزل الموت يبالغ في جسده حتى خالط لسانه وسمعه ، فصار بين أهله لا ينطق بلسانه ولا يسمع بسمعه ، يردد طرفه بالنظر في وجوههم ، يرى حركات ألسنتهم ولا يسمع رجوع كلامهم ، ثم ازداد الموت التياطاً^(٥) فقبض بصره كما قبض سمعه وخرجت الروح من جسده ، فصار جيفة بين أهل قد أوحشوا من جانبه وتباعدوا من قربه ، لا يسعد باكبها ولا يجيب داعيها ، ثم حملوه إلى محط في الأرض وأسدوه فيه إلى عمله ، وانقطعوا عن زورته حتى إذا بلغ الكتاب أجله والأمر بمقاديره وألحق آخر الخلق بأوله وجاء من أمر الله ما يريد من تجديد خلقه ، أماد السماء وفطرها^(٦) وأرج الأرض وأرجفها ، وقلع جبالها ونسفها ودك بعضها بعضها من هبة جلالته وخوف سطوته ، وأخرج من فيها فجدهم على أخلاقهم وجمعهم بعد تفرقهم ثم ميزهم لما يريد من مسألته عن خفايا الأعمال وخبايا الأفعال ! وجعلهم فريقين ، أنعم على هؤلاء وانتقم من هؤلاء ، فأما أهل طاعته فأثابهم بجواره وخلدهم في داره حيث لا يظعن النزال ولا يتغير لهم الحال ولا تنوبهم

(١) دخولا .

(٢) أي لم يفرق بين الحلال والحرام .

(٣) كناية عن تعذر الخلاص .

(٤) ظهر .

(٥) أي التصاقاً به .

(٦) أمادها : حركتها على غير انتظار . وفطرها : صدعها .

الافزاع^(١) ولا تنالهم الأسقام ، ولا تعرض لهم الأخطار ولا تشخصهم الأسفار^(٢) ، وأما أهل المعصية فأنزلهم شردار وغل الأيدي إلى الأعناق وقرن النواصي بالأقدام وألبسهم سراويل القطران ومقطعات النيران في عذاب قد اشتد حره وباب قد أطبق على أهله في نار لها كلب ولجب^(٣) ولهب ساطع وقصف هائل^(٤) لا يظعن مقيمها ولا يفادي أسيرها ولا تقصم كبولها^(٥) ، لا مدة للدار فتفى ولا أجل للقوم فيقضى^(٦) ، !

« واتقوا الله عباد الله وبادروا آجالكم^(٧) وابتاعوا ما يبق لكم بما يزول عنكم ، وترحلوا فقد جد بكم واستعدوا للموت فقد أظلمكم ! وكونوا قوما صريح بهم فانتبهوا وعلبوا أن الدنيا ليست لهم بدار فاستبدلوا ، فإن الله سبحانه لم يخلقكم عبثا ولم يترككم سدى ، وما بين أحدكم وبين الجنة أو النار إلا الموت أن ينزل به^(٨) ، !

(١) جمع فزع وهو الخوف .

(٢) أشخصه ، أزغبه .

(٣) الكلب يفتح الهيجان ، واللجب : الصوت المرتفع .

(٤) أشد الصوت .

(٥) أى لا تقطع قيوده .

(٦) من خطبة الإمام على رضى الله عنه . راجع ص ٢١٧ — ٢٣١ من نهج البلاغة ج ١

وص ٤ — ٢٨ من وحي الموت لمحمود على قراءة (الطبعة الثانية) .

(٧) أى اعملوا قبل الأجل

(٨) من خطبة الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه . راجع ص ١١٩ — ١٢١ من نهج

البلاغة ج ١

الفصل السابع

روحانية الإسلام في العبادات

«قال الحسن: قلت أى الأعمال أفضل يا رسول الله؟»

قال: «أن تموت ولسانك رطب بذكر الله»

لقد ذم القرآن الكريم المادية البحتة والروحانية المحضة وحث على الأخذ بالنصيبيين، فقال تعالى منفراً من المادية البحتة «من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون، أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار، وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون»، وقال فى الحث على ترك الروحانية المحضة «قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق؟ قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة»، «ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها»، وقال عز وجل فى الحث على الأخذ بالنصيبيين «وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا»، ولذا جعل الله تعالى كل أعمال المؤمن حتى فى سعيه لرزقه عبادة، ولكن تعبدنا سبحانه بأشياء خصت بمعنى العبادة، فقال «ما يريد الله ليجعل عليكم فى الدين من حرج، ولكن يريد ليطهركم»، ويقول الغزالي إن لهذه الطهارة أربع مراتب:

(١) تطهير الظاهر عن الأحداث وعن الآخبات والفضلات (بالاستنجاء والغسل والوضوء بالماء أو التيمم بالمسح بالتراب الخالص اللين إن تعذر عليه استعمال الماء)

(٢) وتطهير الجوارح عن الجرائم والآثام.

(٣) وتطهير القلب عن الأخلاق المذمومة الممقوتة.

(٤) وتطهير السر عما سوى الله تعالى. فالطهارة تكون من الأعيان

النجسة (منه قوله تعالى « وثيابك فطهر ، على أحد الأقوال) وتارة من الأعمال الخبيثة (ومنه قوله تعالى « فيه رجال يحبون أن يتطهروا ») وتارة من الأحداث المائعة (وفيه قوله تعالى « وإن كنتم جنبا فاطهروا ») ، ولا ريب في أن أسمى الطهارة وأسمى معانيها هو تطهير السر عما سوى الله تعالى .

أما الصلاة فهي ذكر الله عز وجل إذ قال الله تبارك وتعالى « وأقم الصلاة لذكري » ، والذكر في الصلاة هو محاورة ومناجاة مع الله عز وجل (حمد وثناء وتضرع ودعاء) ، وأما الركوع والسجود فالمقصود بهما التعظيم قطعاً ، ولا يكون معظما لله عز وجل الغافل عنه ، فحضور القلب هو روح الصلاة ، ولذا كان على المسلم الحق أن يؤدي الصلاة المكتوبة في أوقاتها أو أن يؤديها قضاء إذا منعه عذر شرعي عن أدائها في وقتها ، ولذا أرى أنه يجب قفل دور السينما من الساعة العاشرة صباحاً إلى الساعة الواحدة مساءً أيام الجمعة ، لكي يؤدي شبانتنا ظهر الجمعة في مساجدهم ولا يلهمهم لهو عن أدائها ، ففي أداء الجمعة في الجمعة خير كثير ، وفيه تعويد لهم على الصلاة وحث لهم على المحافظة عليها ، على ما فيه من اجتماعهم بإخوانهم المسلمين وشعورهم بالتجاذب والتراحم ^(١) أما الزكاة فقد قال تعالى « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » وهو ربع العشر ، والمسلم الحق هو من يفهم معنى قوله تعالى « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم

(١) وإنا نرجو الأخ الأستاذ فتحي رضوان وزير الإرشاد القومي تنفيذ هذا الاقتراح لما له من سلطة التنفيذ . وإنا نلاحظ أن الجاليات الأجنبية وأهل الأديان الأخرى يعنون بزيارة اولادهم لمعابدهم يوم الأحد والسبت حرصاً منهم على معنيين : معنى موالاة انصالحهم بدينهم ومعنى انصالحهم بإخوان دينهم ، فهل نكون نحن أهل الدين الحق وفي بلد دينه الرسمي — بنس دستور الشعب — الإسلام ، أقل غيرة من هؤلاء ؟ وعلى ذكر السينما أشكو للأخ ضعف الوازع الديني عند بعض رقبائها إذ يسمعون بذكر ألفاظ الكفر في بعض الأفلام الأجنبية ذات الدعايات الدينية ، وأرجو أن ينص على وجوب حذفها ، كما أرجو أن يشترط في الرقيب أن يكون على معرفته بالفن واسع الأفق غزير العلم بالدين والتدين ، إذ أذكر أنني رأيت في العهود الماضية فلماً عربياً جيداً سودر لا شيء إلا لأن بطلته أسلمت في آخره ثم رأى الرقيب الإفراج عنه بشرط حذف هذه الخاتمة التي رآها حضراته من المنوعات وأنهز فرصة الحديث للأخ الوزير راجياً أن يأمر بإلغاء رقبس البطن والرقص البلدي من التمثيل والسينما لأن فيهما الفحش الجسيم ولا فن فيهما ولا ذوق فن وقد أقرنا الأستاذ أحمد علام نقيب الممثلين على وجهة نظرنا هذه وأنا إذ أشكر الأخ مقدماً أرجو له التوفيق في إجابة رغباتي هذه ، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً .

وأموالهم بأن لهم الجنة ، والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ، ، أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ، ولقد فتنا الذين من قبلهم ، فيعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ، فيعلم أن الله تعالى يفتن الذين يدعون الإيمان بألسنتهم أو توسوس لهم به أنفسهم أى يخبرهم ليعلم — وهو عالم الغيب والشهادة — صدقهم إذ قال تبارك وتعالى ، وما كان الله ليزر المؤمنين على ما أنتم عليه ليميز الخبيث من الطيب ، وقال ، إنما أموالكم وأولادكم فتنة ، والله عنده أجر عظيم ، وقال ، إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا ، ، فيخرج الزكاة زكاة لماله وتطهيرا له ويرجع عن شحه ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ، ، ويعلم أن مانع الزكاة منحرف عن صراط الدين وعن كمال الإنسانية وصدق الوطنية معاً ، لأن المال إذا لم يقض حوائج الإنسان وإذا لم يصرف في خيره وخير ذويه ويواسى به المحتاج ، فعرض لا قيمة له ، ولا يحبه لذاته إلا كل مجنون ، أما الذى يصرفه فى لذاته وشهواته فإنسان ساقط إذا تجاوزنا ونسبناه إلى الإنسانية ، وبهيمة قد تستنكر البهايم نسبتته إليها ! ويقول الغزالي إن على مريد الآخرة بزكاته وظائف :

(١) فهم وجوب الزكاة ومعناها ووجه الامتحان فيها شكر النعمة وتطهير النفس من صفة البخل بأن تتعود بذل المال !

(٢) والتعجيل عن وقت الوجوب إظهاراً للرغبة فى الامتثال بإيصال السرور إلى قلوب الفقراء !

(٣) والإسرار فإن ذلك أبعد عن الرياء والسمعة ، وأن يظهر حيث يعلم أن فى إظهاره ترغيباً للناس فى الاقتداء !

(٤) أن لا يفسد صدقته بالمن (بذكرها) والأذى (بإظهارها) واشتكر على الآخذ وتعييره بالفقر وانتباهه وتوبيخه !

(٥) وأن يستصغر العطية (لأن العجب محبط للأعمال) !

(٦) وأن ينتقى من ماله أجوده وأحبه إليه وأجله وأطيبه !

(٧) وأن يطلب لصدقته من تزكو به الصدقة ، فيطلب الاتقياء لأن التقى يستعين به على التقوى ، وأن يكون من أهل العلم خاصة إعانة له على العلم ، وأن يكون صادقا في تقواه وعلمه بالتوحيد بأنه إذا أخذ العطاء حمد الله عز وجل وشكره ورأى النعمة منه ولم ينظر إلى واسطة ، وأن يكون مستترا مخفيا حاجته لا يكثر البث والشكوى ، وأن يكون من أهل المروءة ممن ذهبت نعمته وبقيت عادته ، وأن يكون معيلا أو محبوسا بمرض أو سبب من الأسباب ، وأن يكون من الأقارب فتكون صدقة وصلة رحم ، والأصدقاء وإخوان الخير يتقدمون على المعارف كما يتقدم الأقارب على الأجانب .

هذا ويوجد في الإسلام غير الزكاة صدقة التطوع إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اتقوا النار ولو بشق تمرة ، فإن لم تجدوا فبكلمة طيبة .

وأما الصوم فيقول الغزالي فيه إنه ثلاث درجات : صوم العموم (بكف البطن والفرج عن قضاء الشهوة) وصوم الخصوص (بكف السمع والبصر واللسان واليد والرجل وسائر الجوارح عن الآثام ، وعدم الاستكثار من الطعام الحلال وقت الإفطار بحيث يمتلئ الجوف إذ مقصود الصوم الخواء وكسر الهوى لتقوى النفس على التقوى) وصوم خصوص الخصوص (بصوم القلب عن الهمم الدنيئة والأفكار الدنيوية ، وكفه عما سوى الله عز وجل بالكلية) .

والمسلم الحق يصوم رمضان^(١) بالكف عن قضاء شهوتي البطن والفرج وما ألحق بهما ، والمسلم الحق يكثر الصدقة في رمضان ، إذ سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم أي الصدقة أفضل فقال : صدقة في رمضان ، والصوم

(١) وعند أبي حنيفة يشترط لوجوب أداء الصوم ثلاثة : الصحة من مرض وحيض ونفاس والإقامة وعند مالك شروط صحته ثلاثة : النقاء من الحيض والنفاس والمقل وأن يكون غير يوم عيد ، وعند الشافعي لا يجب الصيام إلا على مسلم بالغ عاقل مطلق للصوم . والإطاعة للصوم هنا يستغنى فيها انقلاب السليم والطيب المسلم النابغ في فقه التقى . ونرى أنه لا يجوز للصائم أن يتردد على السينما وهو صائم لأنه بالصوم في عبادة ولا يجوز وهو في العبادة أن يلهو ، ومحافضة على عينيه لأنهما بالصوم مجهدتان !

الحقيقى هو ما عرفه النبى الكريم بقوله : « الصوم نصف الصبر » ، رواه الترمذى وحسنه وغيره ، وفى رواية البيهقى زيادة « وعلى كل شىء زكاة وزكاة الجسد الصيام » ، والمسلم الحق يفهم سر الصوم وحكمة الله تعالى فيه المعبر عنها فى القرآن بالتقوى « لعلكم تتقون » ، لهذا كان كمال الصوم فى كف جميع الجوارح عن شهواتها لقول النبى صلى الله عليه وسلم « إنما الصوم جنة » ، فإذا كان أحدهم صائما فلا يرفث ولا يجهل ، فإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل إلى صائم » ، وقوله : « ومن لم يدع قول الزور والعمل به ، فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه » ١

وأما الحج فقد فرضه الله تعالى على كل مسلم بالغ عاقل حر مستطيع (بأن تمكنه صحته من ذلك وأن تكون الطريق آمنة وأن يجد نفقة ذهابه وإيابه إلى وطنه وأن يملك نفقة من تلزمه نفقته فى هذه المدة) ، ويقول الغزالى إن أول الحج فهم موقعه فى الدين ، ويوضح ذلك بقوله إنه لا وصول إلى الله تعالى إلا بالتزهد عن الشهوات والتجرد لله سبحانه وتعالى فى جميع الحركات والسكنات ولأجل هذا انفرد الربانيون فى الملل السالفة عن الخلق وانحازوا إلى قلل الجبال ، فالحج رهبانيتنا ، فشف الله البيت العتيق بالإضافة إلى نفسه تعالى ، وجعل ما حواليه حرما لبيته تفخيما لأمره ، يقصده الزوار من كل فج عميق شعنا غبرا متواضعين لرب البيت ومستكينين له ، مع الإعراف بتنزيهه عن أن يحويه بيت أو يكتنفه بلد ، ليكون ذلك أبلغ فى عبوديتهم وأتم فى إذعانهم ، ولذلك وظف عليهم أعمالا لا تأنس بها النفوس ولا تهتدى إلى معانيها العقول كرمى الجمار بالأحجار والتردد بين الصفا والمروة على سبيل التكرار وذبح الهدى ، فإذا تحقق بأن البيت بيت الله فينبعث شوقه للحج ، وبعد الشوق يأتى العزم على الحج ، فيجب أن يجعل عزمه خالصا لوجه الله سبحانه وتعالى ، بعيدا عن شوائب الرياء والسمعة ، فإذا عزم فيرى الغزالى وجوب قطع العلائق ويفسره بأنه رد المظالم والتوبة الخالصة لله تعالى عن جملة المعاصى ، ويقول بوجوب أن يطلب الزاد من موضع حلال ، وليذكر أن سفر الآخرة أطول من هذا السفر وأن زاده التقوى ، وإذا أحضر الراحلة فليشكر الله بقلبه

وليتذكر عنده المركب الذى يركبه إلى دار الآخرة وهى الجنازة التى يحمل عليها ، وإذا اشترى ثوبى الإحرام ليتزر بهما عند القرب من بيت الله عز وجل فليتذكر عنده الكفن (إذ ليس فيه مخطط مثله) ولفه فيه عند لقاء الله عز وجل فإذا خرج من البلد ، فليحضر فى قلبه رجاء الوصول والقبول ، وإذا دخل البادية إلى الميقات وشاهد تلك العقبات ، فليتذكر فيها ما بين الخروج من الدنيا بالموت إلى ميقات يوم القيامة وما بينهما من الأهوال والمطالبات ، وإذا أحرم ولبى من الميقات ، فليعلم أن معناه إجابة نداء الله عز وجل ، فليرج أن يكون مقبولا وليخش أن يقال له لالبيك ولاسعديك ، فإذا دخل مكة فليتذكر عندها أنه قد انتهى إلى حرم الله تعالى آمنا ، وليرج عنده أن يأمن بدخوله من عقاب الله عز وجل ، فإذا وقع بصره على البيت فينبغى أن يحضر عنده عظمة البيت فى القلب ، ويقدر كأنه مشاهد لرب البيت لشدة تعظيمه إياه ، وليذكر إنصاب الناس فى القيامة إلى جهة الجنة آملين لدخولها كافة ثم انقسامهم إلى مأذونين فى الدخول ومصروفين ، انقسام الحاج إلى مقبولين ومردودين وبهذه المعانى يفسر الغزالي باقى الأعمال فيقول إن الحاج إذا طاف بالبيت فليعلم أنه بالطواف متشبه بالملائكة المقربين الخافين حول العرش ، ولا يظن أن المقصود طواف جسمه بالبيت ، بل طواف القلب بحضرة الربوبية ، فإذا استلم فليعتقد أنه مبايع الله عز وجل على طاعته ، فليصمم عزمته على الوفاء ببيعته ، فإذا تعلق بأستار الكعبة^(١) والتصق بالملتزم ، فلتكن نيته فى الالتزام طلب القرب حبا وشوقا للبيت ولرب البيت ، ولتكن نيته فى التعلق بالأستار الإلحاح وطلب المغفرة وسؤال الأمان ، فإذا سعى بين الصفا والمروة فى فناء البيت ، فليتذكر عنده تردده بين كفتى الميزان فى عرصات القيامة ، وليتمثل الصفا بكفة الحسنات والمروة بكفة السيئات ، فإذا اعتكف بعرفة ، فليذكر بما يرى من ازدحام الخلق وارتفاع الأصوات وإختلاف اللغات ، عرصات

(١) قال بعضهم تعلق شاب بأستار الكعبة وقال : إلهى لا لك شريك فيؤتى ، ولا وزير لك فيرىنى ، إن أعطتك فيفضلك ولك المنة ، وإن عصاك فبعد لك ولك الحجة على ، فيأبىات حجك على وانقطع حجى لديك إلا ما غفرت لى ! فسمع هاتفا يقول : الفنى عتيق من النار !

القيامة واجتماع الأمم مع الأنبياء والآئمة واقتفاء كل أمة نبيها واطمعهم في شفاعتهم وتخيرهم في ذلك الصعود الواحد بين الرد والقبول ، وإذا تذكر ذلك فليلزم قلبه الضراعة والإبتهاال إلى الله عز وجل فيحشر في زمرة الفائزين ، وليحقق رجاءه بالإجابة ، وإذا زار المدينة ، فليتذكر أنها البلدة التي اختارها الله لنبيه ، فإذا زار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فينبغي أن يقف بين يديه بسكينة ووجل ويمثل صورته الكريمة في خياله وليحضر عظيم رتبته في قلبه ويجب أن يلزم قلبه الحزن والخوف والهلم ، إذ لا يدرى أيقبل حجه أم يرد ! ومن العبادة تلاوة القرآن الكريم ، ويقول الغزالي إن ظاهر آداب التلاوة أن يكون القارئ على الوضوء واقفا على هيئة الأدب والسكون إما قائما أو جالسا ، مستقبل القبلة مطرقا رأسه غير متربع ولا جالس على هيئة التكبر . وأن يحسن القراءة ويرتلها بترديد الصوت من غير تمطيط مفراط يغير النظم (لأن الترتيل والتؤدة أقرب إلى التوقير والاحترام وأشد تأثيرا في القلب من الاستعجال) وأن يتعوذ بالله في مبتدأ قراءته وليقل عند فراغه « صدق الله وبلغ رسوله » وأن يراعى حق الآيات (فإذا مر مثلاً بآية سجدة سجد) ، وأن يجهر بالقراءة إلى حد يسمع نفسه (لأن الجهر يوقظ القلب ويجمع همه إلى الفكر فيه ويصرف إليه سمعه) ، ولكن الإسرار أبعد عن الرياء ! أما أعمال الباطن في التلاوة فيرى الغزالي أنها فهم أصل الكلام وعظمته وعلوه وفضل الله سبحانه وتعالى ولطفه بخلقه في نزوله عن عرش جلاله إلى درجة إيفهامهم ، وأن يحضر القارئ في قلبه عظمة المتكلم ويعلم أنه « لا يمسسه إلا المطهرون » ، وكما أنه لا يصح لمس جلد المصحف كل يد ، فلا يصح لتلاوة حروفه كل لسان ولا لنيل معانيه كل قلب ، ولذا يجب حضور القلب وترك حديث النفس وأن يتدبر ويفهم بأن يستوضح من كل آية ما يليق بها ، وأن يتخلى عن موانع الفهم ، وأن يقدر بأنه المقصود بكل خطاب في القرآن وأن يتأثر قلبه بآثار مختلفة بحسب اختلاف الآيات ، فيكون له بحسب كل فهم حال ووجد يتصف به قلبه من الحزن والخوف والرجاء وغيره « وتلاوة القرآن حق تلاوته هو أن يشترك فيه اللسان والعقل والقلب ، فخط اللسان

تصحيح الحروف بالترتيل ، وحظ العقل تفسيرا المعاني ، وحظ القلب الاتعاظ والتأثر بالانزجار والالتزام ، فاللسان يرتل والعقل يترجم والقلب يتعظ ، ١ .

والمسلم الحق يقرأ القرآن ويتأدب في قراءته ، إذ يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « القرآن أفضل من كل شيء » ، فمن وقر القرآن فقد وقر الله ، ومن استخف بالقرآن ، استخف بحق الله ، حملة القرآن هم المحفوفون برحمة الله المعظمون كلام الله الملبسون نور الله ، فمن والاهم فقد والى الله ومن عاداهم فقد استخف بحق الله عز وجل ، وينبغي لحامل القرآن أن يكون أول ما يقصد بتعليمه وتعليمه وجه الله تعالى لقوله سبحانه « وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين » وأن يتأدب بأدابه فيمثل أو امرده ويتجنب نواهيه لقوله تعالى « فمن اتبع هداى (يعنى القرآن) فلا يضل ^(١) ولا يشقى ^(٢) » ، وعن عبد الله ابن مسعود رضى الله عنه ، قال : كنا نتعلم من رسول الله صلى الله عليه وسلم العشر فلا نجاوزها إلى العشر الآخر حتى نعلم ما فيها من العلم والعمل ^(٣) . ١ .

ومن العبادة ذكر الله ودعاؤه ، وقد قال تعالى « اذكر ربك في نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ، ولا تكن من الغافلين » ، وقال « ادعوني أستجب لكم » ، إن الذين يستكبرون عن عبادتى ، سيدخلون جهنم داخرين ، ويقول الغزالي إن المؤثر النافع هو الذكر على الدوام (أو فى أكثر الأوقات) مع حضور القلب ، وهو المقدم على سائر العبادات ، بل به تشرف وهو غاية ثمرتها العملية ، وأول الذكر يوجب الأانس والحب ، وآخره يوجب الأانس والحب ويصدر عنه ، وهو المطلوب ! ويقول فى تدرىج المريد فى سلوك سبيل الرياضة (عند حديثه عن شروط الإرادة ومقدمات المجاهدة) « إنه إن قال مثلا « الله ، الله » أو « سبحان الله ،

(١) فى الدنيا . (٢) فى الآخرة .

(٣) ولأرب فى أن أساس البلاغة العربية والبيان العربى هو القرآن الكريم ، وإنى لأذكر دليلا على ضعف الوازع الدينى فى بعض النفوس أنه كان المقرر فى جميع المدارس المصرية أن يحفظ التلاميذ أمثلة من القرآن كتواهد لألوان البيان العربى ، واسكن أحد وزراء المعارف فى العهود الماضية أراد بمعاملة وزير غير مسلم ذى نفوذ فقرر حظر هذه الأمثلة ! مع أن الوزير المسيحى نفسه يحيد حفظه كله !

سبحان الله ، أو ما يراه الشيخ من الكلمات ، فلا يزال يواظب عليه حتى تسقط حركة اللسان ، وتكون الكلمة كأنها جارية على اللسان من غير تحريك ، ثم لا يزال يواظب عليه حتى يسقط الأثر على اللسان ، وتبقى صورة اللفظ في القلب ، ثم لا يزال كذلك حتى تمحى عن القلب حروف اللفظ وصورته ، وتبقى حقيقة معناه لازمة للقلب حاضرة معه غالبية عليه ، فقد فرغ عن كل ما سواه . ومن ذكر الله الاستغفار اتباعا لقوله تعالى : « والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ، ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم » ، والصلاة على النبي إذ قال : « إن الله وملائكته يصلون على النبي ، يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما » ، وفي الصلاة على النبي أمثال أمر الله وشكركه سبحانه بطلب زيادة فضل لمن أجرى نعمة الإيمان على يديه وهو الرسول الكريم^(١) .

والمسلم الحق يذكر الله تعالى بأن يتوجه له بكلية سواء نطق باسمه الكريم أو لم ينطق وسواء كان في ذلك قائما أو قاعدا أو نائما كما قال تعالى : « فإذا قضيتُم الصلاة ، فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم » ، وقال تعالى : « واذكروا الله ذكرا كثيرا » ، أى بالليل والنهار في البر والبحر والصحة والسقم في السر والعلانية ، وقال مجاهد الذكر الكثير أن لا تنساه أبدا ، والذكر المطلوب ذكر القلب وإنما ذكر اللسان طريق إليه ، والذكر واجب في جميع الأحوال ففي الطاعة يذكره بالتوفيق ويطلب منه القبول ، وفي المعصية يدعوه بالامتناع ويسأله التوبة ، وفي النعمة يذكره بالشكر ، وفي الشدة يذكره بالصبر ، ويروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من أطاع الله فقد ذكر الله ، وإن قلت صلاته وصيامه وتلاوته القرآن » .

ويقول الأستاذ عبد الوهاب الشعراني : « ومما أنعم الله به على مواظبي أوائل دخولي في حجة طريق القوم على ذكر الله تبارك وتعالى بلفظ الجلالة أربعة وعشرين ألف مرة في كل يوم وليلة عدد الأنفاس الواقعة في الثلاثمائة

(١) راجع ص ٤٥ - ٥٨ من ثقافة الروحانية في كتاب إحياء علوم الدين للغزالي للمحمود

على قراءة .

وستين درجة ، وكنت أذكرها تارة في مجلس واحد وتارة في مجالس على نية أن الله تبارك وتعالى يبسطها لى على جميع الأنفاس الواقعة في الليل والنهار ليكون حكيم إن شاء الله تعالى حكم من لم يغفل عن الله عز وجل نفسا واحدا ، ولم أزل على ذلك حتى استحكم في الحضور مع الله تبارك وتعالى في أكثر أوقاتي ، فكانت لى كالمادة التي يستمد الإنسان منها المراقبة لله عز وجل والحضور معه تبارك وتعالى طول عمرى ، فإن الذكر باللسان إنما هو وسيلة لحضور القلب لأنه يحلى القلب من الظلمات والأدناس والرعونات المانعة من دخول حضرة الله تبارك وتعالى ، فإذا انجلي القلب كذلك صار ليلا ونهارا يستحضر في نفسه أنه بين يدى الله جل وعلا ، والله تبارك وتعالى ناظر إليه ، فهذا هو الذكر الحقيقي الدائم الذى تصل إليه الفقراء (يريد الصوفيين) فى سلوكهم بالذكر والخلوة والرياضة فلا يحتاجون بعد ذلك إلى ذكر اللسان ، إنما ذكرهم به تطوع ليزينوا جوارحهم الظاهرة بالذكر أو ليقتدى بهم المریدون ، وإلا فمن كان يستحضر دائما أن الله يراه فمن أدبه الصمت والهمس قال تعالى « وخشعت الأصوات للرحمن ، فلا تسمع إلا همسا » أى من شدة الهيبة والحضور مع الله تعالى كما ذكرنا ، فلا يقدر على تكليف نفسه الحضور على الدوام ، إنما هو تارة وتارة ، بخلاف من حصل له العادة بأنه لا يتكلف الحضور كما أنه لا يتكلف لدخول النفس وخروجه ،^(١) !

ويقول ابن تيمية إن الاجتماع لذكر الله واستماع كتابه والدعاء ، عمل صالح وهو من أفضل القربات والعبادات فى الأوقات ، ولكن ينبغى أن يكون هذا أحيانا فى بعض الأوقات والأمكنة ، فلا يجعل سنة راتبة يحافظ عليها إلا ما سن رسول الله صلى الله عليه وسلم المداومة عليه فى الجماعات من

(١) راجع ص ٥٨٣ من لطائف المنن والأخلاق فى بيان وجوب البعد بالنعمة على الإطلاق للشعراني . وقد ذكر رضى الله عنه أنه أرشد أخاه الشيخ يوسف الطهوانى إلى هذا الذكر فذكر أنه حصل له أمانة الفتح وهو رسم الجلالة بالنور فى محل تصويره وحضوره ، ثم انتشر من الجلالة نور فلأ الأفق أو أكثر من غير وجود شيء معه ، هذا وهو ملاحظ للجلالة بعين الروح مع التلاوة لها باللسان حتى يتمكن الرجال وتنتفى عنه الخواطر والأكدار إذ الجلالة مصفلة تصفى قذى الأغيار عن وجوه الأسرار .

الصلوات الخمس في الجماعات ومن الجمعات والأعياد ونحو ذلك ، وأما محافظة الإنسان على أوراد له من الصلاة أو القراءة أو الذكر أو الدعاء طرفي النهار وزلفا من الليل وغير ذلك ، فهذا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم والصالحين من عباد الله قديما وحديثا ، ما سن عمله على وجه الاجتماع كالمكتوبات فعل كذلك ، وما سن المداومة عليه على وجه الانفراد من الأوراد ، عمل كذلك ، كما كان الصحابة رضي الله عنهم يجتمعون أحيانا يأمرهم أحدهم يقرأ والباقيون يستمعون ، وما يحصل عن السماع والذكر المشروع من وجل القلب ودمع العين واقشعرار الجسوم ، فهذا أفضل الأحوال التي نطق بها الكتاب والسنة وأما الاضطراب الشديد والغشى والموت والصيحات ، فهذا إن كان صاحبه مغلوبا على أمره لم يلم عليه لأن منشأه قوة الوارد مع القلب مع ضعف القلب والقوة ، وأما السكون قسوة وجفاء فهذا مذموم لا خير فيه ، والمشروع من السماع الذي تصلح به القلوب ويكون وسيلة إلى ربها بصلتها بينه وبينها ، هو سماع كتاب الله الذي سمعه خيار هذه الأمة^(١)

هذا ولقد سئل ابن تيمية عن عدة مسائل يشتبه على الطالب فيها من جهة الأفضلية مما اختلف فيه الأئمة ، فأجاب بأن هذه المسائل التي يقع فيها النزاع مما يتعلق بصفات العبادات ، أربعة أقسام

(الأول) ما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سن كل واحد من الأمرين واتفقت الأمة على أن من فعل أحدهما لم يأثم بذلك ، لكن قد يتنازعون في الأفضل ، وهو بمنزلة القراءات الثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم التي اتفق الناس على جواز القراءة بأي قراءة شاء منها كالقراءات المشهورة بين المسلمين ، فهذه يقرأ المسلم بما شاء منها وإن اختار بعضها لسبب من الأسباب ، ومن هذا الباب الاستفتاحات المنقولة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقولها في قيام الليل وأنواع الأدعية التي كان يدعو بها في صلاته في آخر التشهد ، فهذه الأنواع الثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم كلها سائغة باتفاق

(١) راجع ص ١٨٥ و ١٨٦ من فتاوى ابن تيمية المجلد الأول .

المسلمين ، لكن ما أمر به من ذلك أفضل لنا بما فعله ولم يأمر به ، وما تنازع العلماء في وجوبه فهذا أوكد مما لم يأمر به ولم يتنازع العلماء في وجوبه ، وكذلك الدعاء الذي كان يكرره كثيرا كقوله « ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » ، أوكد مما ليس كذلك (١) .

و (القسم الثاني) ما اتفق العلماء على أنه إذا فعل كلا من الأمرين ، كانت عبادته صحيحة ولا إثم عليه ، لكن يتنازعون في الأفضل ، وفيما كان النبي صلى الله عليه وسلم يفعل ، ومسألة القنوت في الفجر والوتر والجهر بالبسملة وصفة الاستعاذة ونحوها ، من هذا الباب ، فإنهم يتفقون على أن من جهر بالبسملة صحت صلاته ومن خافت صحت صلاته ، وعلى أن من قنت في الفجر صحت صلاته ومن لم يقنت فيها صحت صلاته ، وكذلك القنوت في الوتر ، وإنما تنازعوا في وجوب قراءة البسملة ، وجهورهم على أن قراءتها لا تجب ، وتنازعوا أيضا في استحباب قراءتها ، وجهورهم على أن قراءتها مستحبة (٢) .

و (القسم الثالث) ما قد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سن الأمرين لكن بعض أهل العلم حرم أحد النوعين أو كرهه لكونه لم يبلغه أو تأوله في الحديث تأويلا ضعيفا ، والصواب في مثل هذا أن كل ما سنه رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمة فهو مسنون لا ينهى عن شيء منه ، وإن كان بعضه أفضل من ذلك ، ومن هذا الباب الصوم والفطر للمسافر في رمضان ، فإن الأئمة الأربعة اتفقوا على جواز الأمرين ، وذهب طائفة من السلف والخلف إلى أنه لا يجوز إلا الفطر وأنه لو صام لم يجزئه ، وزعموا أن الإذن لهم في الصوم في السفر منسوخ بقوله « ليس من البر الصيام في السفر » ،

(١) وقد ثبت عنه في الصحيح أنه قال : إذا قعد أحدكم في التشهد فليستعذ بالله من أربع ، يقول : اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم ومن عذاب القبر ومن فتنة المحيا والممات ومن فتنة المسيح الدجال ! فالدعاء بهذا أفضل من الدعاء بقوله : اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما أنت أعلم به مني ، أنت المقدم وأنت المؤخر ، لا إله إلا أنت . ويقول ابن تيمية : هذا أيضا قد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول في آخر صلاته ، لكن الأول أمر به . راجع ص ٢٩٦ من فتاوى ابن تيمية م ٢ .

(٢) راجع ص ٣٩٧ — ٤٠٧ من فتاوى ابن تيمية م ٢ .

والصحيح ما عليه الأئمة ، وليس في هذا الحديث ما ينافي إذنه لهم في الصيام في السفر ، فإنه نفي أن يكون من البر ولم ينف أن يكون جائزا مباحا ، والفرض يسقط بفعل النوع الجائز المباح إذا أتى بالمأمور به ، والمراد به كونه في السفر ليس من البر كما لو صام وعطش نفسه بأكل المالح وضحي للشمس ، فإنه يقال ليس من البر الصيام في الشمس ، ولهذا قال سفيان بن عيينة معناه ليس من صام أبر ممن لم يصم ، ففي هذا ما دل على أن الفطر أفضل فإنه آخر الأمرين من النبي صلى الله عليه وسلم فإنه صام أولا في السفر ثم أفطر فيه ، وقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أن حمزة وابن عمرو سأله فقال : إني رجل أكثر الصوم أفأصوم بالسفر ؟ فقال : إن أفطرت فحسن وإن صمت فلا بأس ! فإذا فعل الرجل في السفر أيسر الأمرين عليه من تعجيل الصوم أو تأخيرها ، فقد أحسن ، فإن الله يريد بنا اليسر ولا يريد بنا العسر ! أما إذا كان الصوم في السفر أشق عليه من تأخيرها ، فالتأخير أفضل ، فإن في المسند عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال إن الله يحب أن يؤخذ برخصه كما يكره أن تؤتى معصيته .

وأما (القسم الرابع) فهو ما تنازع العلماء فيه فأوجب أحدهم شيئا أو استحبه وحرمه الآخر ، والسنة لا تدل إلا على أحد القولين لم تسوغهما جميعا^(١) .

أيهما أفضل تلاوة القرآن مع أمن النسيان أو التسبيح وما عداه من الاستغفار والأذكار في سائر الأوقات ؟ يقول ابن تيمية إن أكثر السالكين ، بل العارفين ، إنما يخبر أحدهم عما ذاقه ووجدته ، لا يذكر أمرا عاما للخلق إذ المعرفة تقتضي أمورا معينة جزئية ، والعلم يتناول أمرا عاما كلياً ، فالواحد من هؤلاء يجد في الذكر من اجتماع قلبه وقوة إيمانه واندفاع الوسواس عنه ومزيد السكينة والنور والهدى مالا يجده في قراءة القرآن ، بل إذا قرأ القرآن لا يفهمه أولا يحضر قلبه وفهمه ويلعب عليه الوسواس والفكر ، كما أن من الناس من يجتمع قلبه في القرآن وفهمه وتدبره مالا يجتمع في الصلاة بخلاف ذلك ،

(١) راجع ص ٤٠٧ — ٤٠٩ من فتاوى ابن تيمية م ٢ .

وليس كل ما كان أفضل يشرع لكل أحد ، بل كل واحد يشرع له أن يفعل ما هو أفضل له . وفي أوقات النهي عن الصلاة فإن القراءة والذكر والدعاء أفضل في هذا الزمان ، كذلك الأمانة التي نهى عن الصلاة فيها كالخمام وأعطان الإبل والمقبرة ، فالذكر والدعاء فيها أفضل ، وكذلك المحدث القراءة والذكر في حقه أفضل ، وكذلك حال الركوع والسجود فقد اتفق العلماء على كراهة القراءة في الركوع والسجود تشريفاً للقرآن وتعظيماً له أن لا يقرأ في حال الخضوع والذل ، كما يكره أن يقرأ مع الجنائز ، كما كره أكثر العلماء قراءته في الحمام !

ويقول ابن تيمية بعد ذلك إنه إذا عرف هذان الأصلان : فيقال : الأذكار المشروعة في أوقات معينة مثل ما يقال عند جواب المؤذن هو أفضل من القراءة في تلك الحال ، وكذلك ما سنه النبي صلى الله عليه وسلم فيما يقال عند الصباح والمساء وإتيان المضجع وهو مقدم على غيره ، وأما إذا قام من الليل فالقراءة له أفضل إن أطاقها ، وإلا فليعمل ما يطيق ، ولهذا نقلهم عند نسخ وجوب قيام الليل إلى القراءة ، قال تعالى « إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك ، والله يقدر الليل والنهار ، علم أن لن تحصوه فتاب عليكم ، فاقرءوا ما تيسر من القرآن » (١) .

هذا وقد حث الشرع على الاقتصاد في الأعمال فعن عائشة رضي الله عنها قالت : دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعندي امرأة من بني أسد فقال من هذه ؟ قلت فلانة لا تنام الليل ، فقال مه ! عليكم من الأعمال ما تطيقون فإن الله تعالى لا يمل حتى تموتوا وكان أحب الدين إليه ما دام عليه صاحبه ، وفي رواية للبخاري والنسائي عن أبي هريرة أن هذا الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه ، واعترض قوم على هذا الحديث بأنه يبطله النظر لأن الله تعالى لا يمل على كل حال ولا بكل ، ورد عليهم ابن قتيبة بما خلاصته أن التأويل

(١) راجع ص ١٩٦ — ١٩٨ من فتاوى ابن تيمية م ١ وص ٧٢٣ — ٧٢٥ من وحى الأحاديث الحمديّة لمحمود على قراءة الجزء الثاني .

لو كان على ما ذهبوا إليه ، كان عظيماً من الخطأ فاحشاً ، ولكنه أراد بأن الله سبحانه وتعالى لا يمل إذا مللتم^(١)

وحدثنا نبينا الكريم عن حسن جزاء الله عز وجل لذاكريه ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يقول الله عز وجل : أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه حين يذكرني ، فإذا ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ، ذكرته في ملأ خير منه ، فإن اقترب إلى شبرا ، اقتربت إليه ذراعاً ، وإن اقترب إلى ذراعاً ، اقتربت منه باعاً ، وإن أتاني مشياً أتيته هرولة^(٢) ،

وبذا نختم هذا البحث بما بدأناه به من أن أفضل الأعمال ذكر الله وأن مخ العبادات هو هذا الذكر !

(١) راجع ص ٢٥ — ٣٣ من وحي الأحاديث الحمديدية لمحمود على قراءة الجزء الثاني و ص ٤٥٠ و ٤٥١ من تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة .
(٢) راجع ص ٣٦١ من وحي الأحاديث الحمديدية لمحمود على قراءة الجزء الأول .

وبعد !

« بسم الله ما شاء الله ، ما شاء الله
لا يسوق الخير إلا الله ، ما شاء الله
لا يصرف السوء إلا الله ، ما شاء الله
ما كان من نعمة فمن الله ، ما شاء الله
لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ،
وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي
العربي القرشي الهاشمي وعلى آله
وصحبه وسلم »

... فقد حدثناك عن الإسلام بما يوصلك إلى الله لو أتبعته ، ويجعلك
مسلبا حقا لو حققته ، ومنه ترى أن الإسلام يحب القوة ويحب الحق ويحب
الجمال ويحب النظافة الداخلية والخارجية ، فمن سيرة الرسول الكريم عرفنا
أنه كان يحب من الأسماء ما كان جميلا وكان يحب جمال البيان ويحب الطيب
ويستحسن الزينة لكل من الرجال والنساء — ولكنه كان يكره أن يبالغ الرجال
فيها أو أن تخرج بها المرأة عن الأدب مع الغير — وكان يستحسن الترجيل
للشعر وكان يحب السواك ، وكان من سنته صلى الله عليه وسلم قص الأظفار
ونف الإبط وحلق العانة ، وكان يحب الوفاء للناس وللأماكن وللجهات ،
وكان باراً بأهله وولده وأصدقائه ، وكان يمزح ويسمع باللهو البريء ولا يقول
إلا حقا ، وكان يحب القوة في كل معانيها^(١) .

ويسرني أن قد تطور تفكير العلماء فرجعوا بأرائهم إلى حقيقة الإسلام ،
فلقد أصدر فضيلة المفتي العبقري الشيخ حسن مأمون فتوى بعدم حرمة لبس
القبعة ، فسررت ، لأنني لبست القبعة في الصيف الماضي لا تقي بها الشمس فقابلني
شيخ غر جاهل لا يعرفني واتهمني غاضبا بأن لبس القبعة معصية لا تجوز ،

(١) راجع ص ٥٧ و ٦٢ و ٨١ — ١١٤ من وحي الأحاديث المحمدية الجزء الأول لمحمود
عل فراعة .

ولست أدري أيهما في عرف الحقيقة معصية !؟ أن أجبه الناس بما يكرهون وأن أتهمهم بما هم عنه بريئون ، أم بأن أدرا عن نفسي شر حرارة الشمس وأنا بذلك لم أؤذ أحدا ولم أجرح إحساس أحد ؟ ثم ماذا جنت القبة على التدين وهي ليست إلا غطاء رأس بشكل مخصوص ، كل ما قد يأخذه الشيخ أنا لم نعتده وإن يكن لا ضير في أن نعتاده !

ثم ماذا يضير التدين أن يلبس شيخ معمم أو غير معمم زيا أوروبيا؟ أرسل إلينا أستاذنا الشيخ أمين الخولي سنة ١٩٤٠ رسالة يرد بها على خطاب منا أرسلناه إليه عقب رؤيتنا له مرة بالزى الإفرنجى ، منها « أبادر فأقول لك يا عزيزى إن هذا زى قديم عندى حملته أعواما وأنا كاره له وتركنه حين حانت فرصة ذلك فى مصر.. ولو كنت يا محمود قد غيرت بعد هذا كله لمددت ذلك وعددته أنا ، اضطراب رأى فى الحياة ، ليس خليقا برجل يحرص على سلامة النفس ، ويحاول أن يشعر بشخصيته الاجتماعية ، وليس ذلك ذودا عن رأى فى الزى أو اكبارا لأمره ، ولكنه اطمئنان إلى أن هذه وأشباهها قشور لا يغير بها شخص ولا يتغير فلتكن كما تجبى ، وإذا كنت قد نشأت معهما فلأبقى على ما نشأت ، وليس من الهمة فى شيء أن أنشط إلى استبدال زى بزى لغير اعتبار هام ، إلا أن يكون مجاراة لمن يزن الناس بأغطية رؤسهم ويقدرهم بلفائف أجسامهم ، وأنا إذ أقدر مثل هذا النظر أكون أتفه من صاحبه وأهون على نفسى وعلى الزمن من خرقة يعبث بها الهواء أو لون يحل من أشعة الشمس .. إن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى أعمالكم ، تلك نظرة الإسلام إلى الحياة ، فهل تراها تدع مجالا للاهتمام بالزى !... أنا يا عزيزى آنس إلى زى الذى ألقته إلى الظروف أو ألقتنى إليه فصار له على حق الإلalf الطويل وله ميزة ملائمة الجو إلى حد ما أو قل فى أكثر أجزائه ، ولست أطرحه فيظن تافه أنى أحب أن ألقب بالبك أو ما يشبهها ويحسب أنى أكره أن أكون الشيخ فلانا ، فأنا أؤثر المعالنة بأنى شيخ ولا على إن تخففت فى رحلة أو نزهة أو رياضة ، فليس الزى عندى شيئا يفكر فيه أو يدبر له ، بل هذا غلاف لا غير ... ،

لذلك استغربت ما قرأته فى أهرام ٢١ يناير سنة ١٩٥٦ من أن مشيخة

الأزهر وجهت إلى الأساتذة والمدرسين في الكليات الأزهرية الثلاث وإلى شيوخ المعاهد الدينية كتابا تناشدهم فيه أن يلتزموا حدود الزى الأزهرى المؤلف من العمامة والجبة والقفطان (وقد نسيت الحزام !) ، وقالت إن هذا الزى المتعارف هو السمة المميزة لرجال الدين في مصر ، وطلبت إليهم في هذا الكتاب أن يلتزموا هم ويلزم الطلاب بهذا اللباس بحيث يكون الزى موحدًا متسقًا بين الطلاب وأساتذتهم !

وعجبت إذ أن المشيخة بعد أن رأت الطلاب الأزهريين وكثيرًا من الأساتذة والمدرسين في مختلف المعاهد قد مضوا في طريقهم وظلوا يلبسون الزى الإفرنجى — عادت تقول لشيوخ المعاهد في كتاب رسمى أنها سبق أن أرسلت إليهم منشورًا خاصًا بالأساتذة الذين يتخذون الزى الإفرنجى بدلًا من الزى الأزهرى العربى المعهود ، ونهت في ذلك الخطاب إلى ما فى هذا التقليد من خروج لا يليق بالبيئة الأزهرية التى يعد الزى العربى مظهرًا خاصًا له أثره فى تقدير الناس لها وتميزهم بين العالم الدينى وغيره فى أغلب الأحيان !

وأرى^(١) أنه لا تثريب على الطلبة والأساتذة لاتخاذهم الزى الإفرنجى لأنهم راعوا فيه ، مظهرين المظهر الاقتصادى والمظهر الدينى ، إذ لا يتنافى لبسه مع الدين ، على أن المظهر العلمى الدينى لا يتنافى معه أيضًا ، وباضيعه العلم إذا كان مظهره أى زى مهما كان له من الإلف الطويل ، لأن الدين فى القلوب والعلم فى الصدور ولا شأن لهما بزي أو بآخر ، على أن الإسلام يأمر جميع بنيه بالبحث والتعلم والتعليم والخلق الكريم ، ولا يعرف كهنوتًا ولا لبس كهنوت !^(٢) .

(١) مع أن بيتى أزهرية معمة من أب وأعمام وجدود ؛ إذ أن والدى رئيس المحكمة العليا الشرعية السابق ، وأحد أعمامى المفتى الأسبق ، والعم الآخر قاضى قضاة السودان . ورجدى قاضى أسيرى الأسبق هو وأبوه وجده ، ومع تقديرى الكلى لعبقريه الأستاذ الشيخ عبد الرحمن ناج شيخ الجامع الأزهر ذى الثقافتين العربية والأوروبية . ولستنى أحب الحق أكثر من أهلى ومن أحب !

(٢) وأذكر هنا نكتة رواها لى أحد الأساتذة الأجلاء عن عالم يكذب ويظلم ويفجر ، فإذا جابه أحد ، قال : إن العالم لا يكذب ولا يظلم ولا يفجر ، وهو واقع فى المحذور ! وأعرف عالمًا

فالبسوا أيها الطلاب وأيها الأساتذة ما شئتم ، البسوا الزى المألوف إذا
رغبتم والبسوا الزى الإفرنجي إذا تقتم ، فكل ما نريده منكم هو حب العلم
والبحث والتخلق بأخلاق الدين وأن تخدموا الشريعة الإسلامية بالمحافظة على
تراثها الثمين ، اتركوا التزمت الباطل^(١) وحافظوا على التزمت الصحيح وادخلوا
دينكم بالفهم الصحيح لهذا الدين الكريم !

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

محمود علي فراءة

{ أول رمضان سنة ١٣٧٥ هـ
منشئة البكرى في ١٢ أبريل سنة ١٩٥٦ م }

آخر كان يرى أحد الشبان المثل الأعلى الذي تتطلع النفوس لمثله ، فلما صاهره قال عنه إنه مريض
بالهستيريا ودواؤه عنده الصفح بالتمال ونزع الحجاري ، ورفع عليه دعوى التفقة فالدفع أو الحبس !
(١) أذكر أني كنت أراجع كتابا في المطبعة لأحد أساتذتي المعممين الأفاضل ، فورد في كتابه
عن الرسول الكريم قوله إن المسلمين الأوائل كانوا إذا بصق يلزمون ، صائه وإذا توضأ يلزمون
وضوئه ، فأصرت على حذف هذا الكلام لأنه غير صحيح ولأنه لو كان صحيحا صدوره منهم فليس
بالصحيح أن النبي كان يقبله منهم ، لأن المصاء في فم النبي طاهر ما كان في فيه ، ولكنه إذا ماخرج
منه كان كأي شيء خارج ، لأنه بخروجه من فيه ينفصل عنه ، أما الوضوء فتطهير ولا يكون التطهير
إلا من حدث ومن نجاسة والمسلمون الأوائل كانوا يطعمون الرسول الكريم ويحبونه ولكنهم كانوا
يعرفون من الشريعة أدق أسرارها فغير معقول منهم الخروج هذا الخروج عنها ، وتذكرت في
الحال رواية أحد الأصدقاء إذ طلب من حبيب له أن يبصق في فيه ليجد في ذلة نفسه لذة ، وظاهر
أن حب أصحاب النبي الكريم له كان حبا روحيا لله ورسوله حب طاعة لغرض سام هو الجهاد والغرض
أسمى هو الوصول إلى الله ، وليس من الجهاد ولا من الوصول إلى الله هذا الاقتراء الذي يدعون .
كذلك أذكر أني كنت أراجع مع نفس الأستاذ كتابا آخر له كان يتخرج فيه عن ذكر الحديث من
غير تلك التعينات عن فلان . . . عن فلان ، وبري في ذكرها قدسية . . .

أهم مراجع كتاب التدين الحق

مرتبة حسب الرجوع إليها في الكتاب

- (١) النظام والإسلام : لأستاذنا المرحوم الشيخ طنطاوى جوهرى — تحدث فيه بفلسفته المعروفة عن جمال الكون ووجوب التفكير فيه ، مستشهدا بالقرآن الكريم .
- (٢) الثقافة الروحية في كتاب إحياء علوم الدين للغزالي : لمحمود على قراءة (المؤلف) — قال عنه أستاذنا المرحوم الشيخ أحمد إبراهيم : « . . . وجدتكم يا محمود قد وقفت فيه إلى عمل محمود ، وأجدت فيه ما استطعت » ، وقال عنه الأستاذ محمد سعيد السحراوى : « إنه دراسة قوية لتحفة رائعة قوية » .
- (٣) كتاب الإرشاد : لبعض العلماء — تحدث فيه نخبة من العلماء عن إرشاد المسلمين للواجب عليهم اتباعه في دنياهم للفوز بأخراهم .
- (٤) فناوى ابن تيمية : وهى فناوى شيخ الإسلام ابن تيمية ، وتتماز بأن صاحبها كان يستند فيها على الكتاب والسنة وعلى روح الإسلام .
- (٥) وحى الأحاديث المحمدية : (الجزءان الأول والثانى) لمحمود على قراءة ، تحدث عن الجزء الأول منهما أستاذنا المرحوم الشيخ أحمد إبراهيم فقال : « . . . حقا إنه كتاب قيم جدا ، قد وقفت فيه كل التوفيق كتابا وموضوعا ، وقمت فيه بأجل خدمة لسيدنا ومولانا محمد المصطفى صلى الله عليه وسلم » ، وتحدث رحمه الله عن جزئه الثانى فقال . « . . . قد قرأت كثيرا من موضوعاته ، فكنت أتعجب فيه من حسن إلى حسن ، وإني أنصح لطلاب العلم بالأزهر الشريف والمعاهد الدينية الإسلامية أن يقرأوا الكتاب ليستفيدوا منه ما لا يمكنهم استفادته في سنين . مع سهولة في العبارة وحسن التقسيم والتبويب ، مع ما فيه من المزية الكبرى وهو أخذ الأحكام من ينبوعها الأسمى كتاب الله تعالى وصلة رسوله صلى الله عليه وسلم . . . » ، وتحدث أستاذنا المرحوم محمد لطفي جمعة عن طريقة المؤلف بقوله إنه « قد أدخل الطريقة الحديثة إلى بحوثه وتأليفه ، فهو يحوس خلال النصوص ويسيح في مجلداتها الضخمة سياحة عالم أزهرى (وإن يكن من أفاضل خريجي كليتي الحقوق والآداب) دقيق النظر أليف تحقيق وحليف فخص وتمحيص ، حتى إذا ظفر بالنص الذى يؤدى إلى غايته وضعه في مكانه اللائق به وأتقن التقديم له

والتعليق عليه ونقد آراء شراحه ومفسريه ، ولكن المؤلف قد رسم خطة لكتابه فهو يشرح التاريخ الإسلامى فى عهد الرسول ويفسر الشريعة والأخلاق على ضوء العلوم الحديثة ، وقل أن نجد من يتبع هذه الطريقة غير ابن تيمية وابن قيم الجوزية والشيخ محمد عبده والشيخ رشيد رضا وهذا الأديب .

(٦) تأويل مختلف الحديث : لابن قتيبة : تحدث فيه عن الاعتراضات الموجهة لبعض الأحاديث ورده عليها .

(٧) التنين الكبرى : للإمام عبد الوهاب الشعرانى : تحدث فيه عن نعم الله عليه فى تطهيره من نقائص الصوفيين .

(٨) حكم ترجمة القرآن الكريم : لأستاذنا المرحوم الشيخ محمد حسين مخلوف المدوى — تحدث فيه عن حكم الشرع فى ترجمة القرآن الكريم .

(٩) القول الوثيق فى الرد على أدعاء الطريق : لأستاذنا المرحوم الشيخ محمد حسين مخلوف المدوى — رد فيه على دعاة الصوفية .

(١٠) محاضرات فى النصرانية : لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد أبى زهرة — محاضرات عن رأى الإسلام فى التحريفات التى أدخلت فى النصرانية الأولى .

(١١) تلبس إبليس : لابن الجوزى — تحدث فيه عن التلبسات التى يظن أنها حق وهى باطل .

(١٢) خطرات نفس : لأستاذنا الدكتور منصور فهمى — تحدث فيه صادقا عن خطرات نفسه الصافية .

(١٣) نعيم الجنة : لمحمود على قراءة — تحدث فيه عن نعيم الجنة بحسباته وروحانياته .

(١٤) حاشية الدر المختار : لابن عابدين — وهى فتاوى ابن عابدين .

(١٥) إحياء علوم الدين : للغزالي — تحدث فيه حجة الإسلام الغزالي عن المنجيات والمهلكات والعبادات والمعاملات .

(١٦) الحياة الزوجية من الوجهتين التشريعية والاجتماعية : لمحمود على قراءة —

حدث عنه أستاذنا الشيخ عبد الجليل عشوب ، فقال إنه : « دل على روح طيبة ونفس عالية ونشاط جم ورغبة صادقة فى المساهمة فى خدمة المجتمع وتهذيبه ، وإصلاح ما اعوج من أخلاقه والتوى من عاداته . . » وقال عنه أستاذنا المرحوم الشيخ

عبد المجيد اللبان : « يسرنا كثيرا أن تخرج مصر هذه العقول الكبيرة الراجحة لتخرج الأسيرة المصرية من ظلام حالك بهم كاد يفنيها ، وقد لا أكون مبالغا إن قلت إن مؤلفكم هذا هو الوحيد من نوعه ، وإن مصر ستجنى من ثماره الشهي والبهيج » .
وتحدث عنه الأستاذ عمر مرعي ، فقال « قد لمست فيه روحا قوية ، جدير بها أن تنقل شباب الجيل الى طريق الهداية والرشاد ، وما نفس المؤمن الصادق الا من النور الإلهي وتعاليم الرسول صلى الله عليه وسلم »

- (١٧) تفسير القرطبي : وهو من التفاسير القيمة للقرآن الكريم .
- (١٨) دروس المعاملات الشرعية : لوالدنا فضيلة الأستاذ الشيخ علي قراعة —
محدث فيه عن المعاملات في الإسلام .
- (١٩) العلاقة الدولية في الحروب الإسلامية : لوالدنا فضيلة الأستاذ الشيخ علي قراعة —
تحدث فيه عن صلة المسلمين بمجارهم في العهد الأولي للإسلام .
- (٢٠) نهج البلاغة : (الجزءان الأول والثاني) — جمعت فيه خطب وحكم الإمام علي بن أبي طالب وشرحها الإمام محمد عبده .
- (٢١) تيسير الوصول : للشيباني — ذكر فيها الصحيح من أحاديث الرسول .
- (٢٢) خطب الرئيس جمال عبد الناصر : (الأجزاء الثلاثة) — جمعت فيها خطب الرئيس جمال عبد الناصر ، وهي خطب سياسية اجتماعية أخلاقية دينية ، ترمي للمثل العليا وفيها « الشعوب التي تسام على حربيها توقع وثيقة عبوديتها » ، « نريد أن يؤمن الفرد بنفسه » ، « خلقنا الله أحرارا » ، « تعاونوا على الخير » ، « لانتهاونوا في حقوق بلادكم » ، « مصر يجب أن تحيا عزيزة » ، « الحرية حق لنا » ، « أصبحت مصر للمحكومين لا للحاكمين » ، « إن نمكن للمستعمر من بلادنا » ، « الواجبات قبل الحقوق » ، « ثورتنا سياسية واجتماعية واقتصادية » ، « التضحية في سبيل الله » ، « يجب أن يتحد العرب والمسلمون لمحاربة عدوهم المشترك » ، « تخلصوا من الأنانية والفردية » ، « لا حرية مع الرشوة والاستغلال » . « يجب أن نجتمعنا المحبة لنبنى مجتمعا قويا » ، « الحاكم أخ للمحكوم لاسيده » ، « تحرير الفرد تحرير للوطن » ، « الشباب مستقبل هذا البلد » ، « نريد نقدا نزيها » ، « الغلبة والنصر لقوى الخير دائما » ، « واجب الجيش أن يحمي الوطن في الداخل وفي الخارج » ، « الوطن في حاجة لجميع الجهود » ، « الضغينة لا تبني » ، « محمد العظيم كان يعتمد على الصراحة والصدق »

« لاخداع في طلب الحرية » ، « لن تقضى على الحق بالحق » ، « سأظل جمال ابن بنى مر أعمل لرفعة الوطن » .

(٢٣) حادى الأرواح إلى بلاد الأفراح : لابن القيم — يتحدث فيه عن نعيم الجنة.

(٢٤) « الله » والقصد المجرد في معرفة الاسم المفرد : وهى حكم الصوفى الكبير

ابن عطاء الله السكندرى ، وترى كلها للتوحيد والفناء فى الله تبارك وتعالى .

(٢٥) العقد النفيس فى نظم جواهر التدريس : — وهى دروس الصوفى الكبير

الشيخ الحسينى الغربى ، وتدل على صوفية طاهرة .

(٢٦) وحى الموت : لمحمود على قراعة — يتحدث عن الموت وحقيقته ، ودفع

الخوف منه وكشف قربه ودفع جهله ، وعن الروح وصلتها بالجسم ومناجاتها وحديثها .

تصويبات

صفحة	سطر	خطأ	صواب	صفحة	سطر	خطأ	صواب
٤	٨	مان	ثمان	٧٦	٢	قرفه	فرقه
١٠	٢٤	من كتاب	فى كتاب	٨١	٣	المراد	المراء
١٦	١٧	عبارات	عبادات	٨٠	١٢	أفات	آفات
	١٨	الطفولية	الطفولة	١٠٠	٢٣	أشرب	شرب
٣٧	٢١	أو إن وقع	وإن وقع	١٠٤	١٣	فكم	فلم
٤٣	٣	الشنارى	الشناوى	١٠٥	١٦	للاخرين	للاخرين
٤٤	٨	تصيره	تصر	١١٢	٦	« يقول الغزالي : يقول الغزالي »	
٤٨	٢٣	من للرقى	للرقى	١٣٣	٩	بها	بما
٤٩	١٤	مبعدا	مبعد	١٢٩	٢٢	القاءها	القاؤها
٥١	٤	أحدا	أحد	١٣٨	١	مقصور لا على	مقصورا على
	١٤	دعها	ذلك (١)	١٣٨	١٨	الإله	إله
	٢٢	أمة	(٢)	١٤٣	٢٣	نيه	نيته
٦٢	٢	أثهما	إعهما	١٥١	١	التبجح	والتبجح
٦٨	١٠	لشهوة	لشهوة	١٥٣	٥	فأنا	فأنا
٦٩	١٣	الاختبارات	الاختيارات	١٥٧	٢	فذهبت	فذهب
٧٥	١٩	فهستانى	قهستانى	١٥٧	٤	فكسوتها	فكسوتها